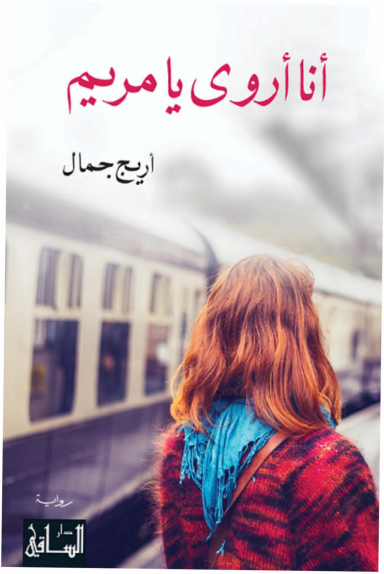
أنا أروى يا مريم
أريج جمال
رواية
دار الساقي

أريج جمال

# أنا أروى يا مريم

آفاق AFAC

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمَاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيَة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصَة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلَف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، 2019

الطبعة الإلكترونية، 2019

ISBN-978-614-03-0181-8

تمَ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

والصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)

شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان

صندوق بريد: بيروت 13 - 5290 ، لبنان
هاتف: +961-1-218 901

email: info@arabculturefund.org

www.arabculturefund.org

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثالثة، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

**www.daralsaqi.com**

تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى جبّور الدويهي وعباس خضر

وإلى نويمي...

كانت أياماً عادية، أتلقى فيها الخيبات كهدايا عيد الميلاد، خيبات في العمل، الصداقة، الحُب، صعود السُلَّم، هبوط السُلَّم، عبور الشوارع المُكتظَة، السير في الشوارع الخالية، كان خيالي بليداً لا يعرف التدوين بعد، أزم شفتيَ، وأثبت عينيَ في السقف، فيأتي النوم، أنام ست عشرة ساعة دون حلم واحد، دون أن أبدل وضعي، أستقبل العالم وأودعه على ظهري، أنظر كثيراً في وجوه سائقي عربات نقل الركاب، وأحرك شفتيَ دون أن يخرج صوتي "تحرير"، أتجاهل انعكاسي في النافذة البلاستيكية للميكروباص، يصبح إيقاعي هشاً ونحن نقترب من ميدان عبد المنعم رياض، أصغي إلى صوت العجلات على الأسفلت، صرخات الباعة الجائلين، لا أهدأ إلا حين تصلني معرفة ألا مُظاهرة تمر من هُنا، وجوه الناس بلا فزع، لا رائحة للدم، مع ذلك، حين كان ينبغي لأي سبب أن أقطع سيراً إلى مُحيط المتحف، كان سمعي يتهيأ لصوتِ قادمٍ من حيث لا ترى بصيرتي، بعد الانحناءة الحادَة للرصيف، بعد مشهد عساكر الأمن المركزي، تتكرر كلمة واحدة "يسقط"، ثم لا يعود بإمكاني أن أعرف الهلوسة من الحقيقة، طلقات رصاص، أناس يهرولون باتجاهي صائحين "خرطوش"، كان يمكن أن أسقط بطلقة طائشة، كان يُمكن أن يُشتبَه في أسباب دخولي المنطقة الملعونة، فأموت في المُعتقل، بدا الموت إجبارياً وعتيداً، شاهدتُ ضُباطاً يغتصبون مُتظاهِرات، وخيولاً مُدَرَّبة على التحرش بالفتيات

اللواتي يدخلن الدائرة مثلي بالصُدفة، ولا مرّة نجحتْ في تفريق الخوف عن الحقيقة، فقط كنتُ أستمرُ في المسير، أغالب حاجتي إلى الترنح كي لا يُظن بي السُكر، كانت أياماً طويلة وعادية، لا أميز منها إلا مجيئها الواثق إليّ، عبرَتِ الشارع وعينها مُثبَّتة على وجهي، لم تتربص من السيارات المسعورة، لا أعرف كيف اشتقّتْ خوفي من العبور إلى الجانب الآخر، لا أعرف كيف عَرَفَتني، وجهها بيضاوي، وشعرها هائش يُشير إلى كل الاحتمالات في وقت واحد، قميص أبيض وبنطلون جينز، قدمان تتحركان بُسرعة كأنها ستنقذ رضيعاً والرضيع يقفُ في الناحية الأخرى من الشارع، ينتظر، ويشاهد العالم بالإيقاع البطيء للأحلام، كانت قد وصلت إلى كتفي، غرق أنفي في الرائحة، عرق وعطر وشيء يخص الجسد جداً، كنتُ أتفرج على عينيها، كلما اقتَرَبَتْ، تُصبح الصورة أصفى، أخَذَتْ كفي إلى كفها، واستدرات بي، راقصتا باليه في قفزة سحرية أثناء الكواليس، لم يرنا أحد ونحن نعبر، فتَى صوت العالم، بدت اللحظة آبدة، اشتهيتُ النوم على جنبي وأنا أبتسم، سلَمتني للناحية الآمنة، اِلتفَتَتْ مرّة أخيرة، زاغت عيناها على فمي الأخرس، اِبتَعَدَتْ بعد أن قَبَّلَتني على خدي، عاد صوتُ العالم وظهرها يتحركُ إلى مُحيط المتحف، إلى حيث لا يُمكنني رؤيتها، كانت أياماً عادية، أتلقى فيها الخيبات كهدايا عيد الميلاد، خيبات في

العمل، الصداقة، الحب، صعود السلم، هبوط السلم، عبور الشوارع المكتظة، السير في الشوارع الخالية...

بدأت الحياة قبل أن أولد. ماما تجلس على مقعد وحيد في منتصف الغرفة بالضبط، كأنها قد أحصت المسافة جيداً واختارت مكانها، خائفة ألا تكون حُبلَى، وجهها أصفر، في عينيها زَيغٌ، على رأسها الحجاب البُني الطويل الذي كانت تُصلي به، تدعو الله به، وتُقابل الغرباء. منذ أيام معدودة، نهض بابا من فوقها في الليل، كانت لا تزال جائعة، لكنها سكتت وقالت على الأقل أخلِّف. نهض تاركاً أبناءه في رَحِمها دون اكتراث، وكما يحدث منذ بداية الخلق، مات الكثير، الكثير جداً من الأبناء، ولم ينجُ أحدٌ غيري.

حين كانت ماما خائفة، في الغرفة الفارغة، تُحملق في السقف وتحاول أن تتكلم إلى الله، لم تكن تعرف أنني نجوث. ضمَت ذراعيها إلى صدرها، خشعت وهي تتخيل أنها تنظر إلى الله الذي ظنته في السقف، تتعلق به أكثر، تنوح بصوت خفيض: "مكانش لي غيرك"، لم تكن تستعطفه، "معقول هتسيبني؟"، كانت تسأله فعلاً، غير مُتحملة أن تكون إجابته: "أيوة". لهذا بكت حين أتت على كلمة "هتسيبني"، وأنا بكيث معها في الرَحِم، أذكر هذا جيداً لأنه أول ما حدث حين خُلقت، بكت ماما لأنها لا تعرفُ ما تفعل كي تحبل من بابا، ظلَت ضامَة يديها إلى صدرها، رافعة الكفين إلى الفم في وضع الميزان، ثم قررت زيادة في الخضوع أن تضم رِجليها أيضاً، رفعت الرُكبتين لتلامس النهدين، حاوَلَث أن تنسى الغُرفة وفراغها، تذكرت فجأة دون أي تدبير سئنا مريم،

ربما قد رأتها في الوضع نفسه ذات يوم، وهي ضائعة مرَت الصورة على بالها.

هذه أول صورة أرى عليها أمي، يا أروى، صورة الحزن الذي لم يُبدِله وجودي فرحاً، كيف أخبرها أن الله قد سمعها واستجاب؟ إنني هنا يا ماما، راقبتُ المشهد من بعيد، كالمحكومين من بين قُضْبان الزَنازين، تركتُه يتسلل إلى ذاكرة بيضاء فيُباشر العمل على البداية، ولم أستطع أن أنساه. فكرث ماما كثيراً في مريم، "يا مريم أنتِ أم، خليني أم"، هكذا تستعين بمَنْ لا يستطيع الله أن يرده، "يا مريم قولي له يعطيني وأنا أسمي العطية مريم"، أسمتني ماما مريم حينذاك، وجعلتني مريم ربما، زمن مجنون كانت ستتوسل فيه إلى الله بأي شيء، تعدُ بكل شيء، كأنها مخمورة، "اعطيني بنت وأنا أسميها مريم".

كانت لا تزال ضارعة تنظر إلى السقف، حين شعَرَث، كما حكت لي لاحقاً، أنها قد رأت الله حقاً، وأن ستنا مريم ضحكت ضحكة قصيرة خاطفة في أذنها، كأنها تُبشِّرها بالإجابة.

وقعتُ في قلب ماما كما أنا قبل أن تلدني، وقد عوضني هذا عن بؤس البداية كما ترين. بعد شهر بالضبط أجرت ماما اختبار الحمل، هي أخيراً حامل، إنتَظَرث حتى عاد بابا من العمل، تقرَبت منه وهو يأكل، قطَعت له الخُبز، برَدت له الماء، تبسمت له، تبسمت له بحُبّ، حاولت أن تجعله ينتبه إلى عينيها الجميلتين، لم

يفعل، استدار قليلاً بجسده وهو نافد الصبر كأنه يُهدد بأن يعود إلى الأكل إذا لم تتكلم، فأخبرَته. حكت له كل ما حدث معها، الأمنية والتوسل، ضحكة مريم والسقف الذي رأت منه الله، أرادت أن تروي مُعجزتها على العالم الذي لم يكن سوى غُرفة ضيقة وبابا، أحبت جداً أن يؤمن معها، بقيت تُعيد وتزيد في التفاصيل، وهو صامت لا يتغير مزاجه، صَبَرَ حتى سكتت ماما، أدار جسده مرَة أخرى إلى الطعام، قال ببساطة لا تليق بكل هذه القداسة: "أنا عاوز صبي"، ولم يضِفْ كلمة واحدة.

تركها تلَمّ بالونات أمنياتها المثقوبة واحدة واحدة وحدها، ونهض طالباً الشاي. استدعت العبارة أصواتاً عدة مَحَت بها صوت مريم وهي تضحك ضحكتها السريعة الخاطفة. أصبحت تكات الساعة مُرتفعة جداً، وكان يُمكن لأيام طويلة أن تسمع ماما العقارب توسوس لها: "صبي صبي صبي". قامت مُطأطِئةً، سارت ببطء مترنحة حتى باب الحمام، حيث كان بابا يغتسل، "طيّب أدعي له تاني ييجي صبي"، في القلب، كانت تعرف أن الدعوة الأولى قد وقعت، وسعَت إلى استرضاء بابا بمُشاركته الأمنية عن بُعد، لكن مع الله لا تسير الأمور على هذا النحو، لو أنها غيَّرت الدعوة الآن، جائز أن ترتبك الدعوات وتتشتت الأمنيات، ولا يتحقق أي شيء. حين دخَلت المطبخ وهي تهرول حافية كي تعد الشاي، خاطبت سقف المطبخ وطلبت منه أن يُعطيها مريم، لكن "بعد مريم صبي".

لم يكن سقف أحلامها فقط هو الذي انخفض، لكن معجزة العثور عليَ أيضاً، انكمش العالم أمامها، مثل حشرة صغيرة تدعسها وتنساها فتنساها الحشرة المدعوسة، هَبَطَث مشاعرها ولم يعد بإمكانها تصديق أن ستنا مريم قد ضحكت ذات يوم أصلاً في هذه الدُنيا.

لكنني كنتُ هناك يا أروى، في هذه النقطة المظلمة وحدي، أنتظرُ الخروج إلى العالم، كي أقنع بابا أنني سوف أحبه مثل صبي، كي أقنع ماما أنها لا ينبغي أن تحزن لأن كل ما عَاشَته حقيقة، قالت لي ماما حين بدأتُ أقف على رِجلي دون مساعدة منها، آتي وأذهب في الغُرفة الضيقة: "من أول يوم حلمت بيكي"، كانت عيناها تلمعان، كما تلمع عيناي وأنا أحكي عنكِ.

قبل أن تنام ماما، قالت لبابا: "نام معايا انهاردة"، لكنه لم يُبالِ، أدار جسده إلى الجانب الآخر، عكس اتجاه قلبها، وضع وسادة صغيرة بين رِجليه، وقال: "أنا تعبان". اعتقدت ماما أنه مغموم لأنه مثلها يعرف أنني بنت، فدافعت بسرعة: "إزاي يتولد صبي في البيت الضيق ده؟"، واصَلَث بحماسة لما صمت: "بعدين ييجي صبي لما يكون البيت واسع". تلك الليلة لم تسمع ماما صوت بابا مرة أخرى، راحت في النوم وهي مستلقية على ظهرها، بلا كوابيس ولا أحلام طيِّبة، كانت قد اطمأنت على الأقل إلى أن نسلها لن ينقطع من العالم.

أنا، يا أروى، عشت داخل رحم ماما، شهوراً طويلة، أتعرفين مثل ماذا؟ مثل عصفور، صدّقيني، أنتفضُ كل الوقت، وأعومُ في بطنها بجناحين كالحرير لا يُمكن أن ينكسرا، أحرثُ الأرض التي لن تُنبت غيري بهدوء يومياً متحسسة أن أضايقها، أشاهدُ العالم الواسع من بعيد وأنا في جوفه، دون أن أطلب الخروج، دون أن أطلب في الواقع أي شيء، في غمق ماما، كنت أطير والوقت يمرُ مثلما يمرُ في تهاويم الأحلام، لم يكن يوجد وقت، كنتُ أنا، وكانت ماما، وكان بابا، وإخوة كثر، يتبدلون ولا يبقى منهم أحد، نحن الثلاثة فقط أبطال الفيلم.

كم رأيتُ بابا يحتضن ماما ووجهه مُحمر بالانفعال، رأيتُ ماما تغضب من بابا وتعبس قبل أن تُسلِّم نفسها لانفعاله، كنتُ أُغلَق ناحية الكبد محبوسة، إذ ينقر فوق الرحم عدة نقرات، أبتعد وهو يصبُ سوائله الملونة، ثم أعود وأسكنُ حين يهدأ.

كُلما كبر بطن ماما، كان يُصبح وجودي في نظر العالم تحصيل حاصل، بلا أي سحر، مجرد كيان مُضاف إلى عدد لا نهائي من الكيانات، يولد ويعيش ويموت كما ولد وعاش ومات السابقون، دون أن يلتقط الكون أنفاسه، أو يرغب في إحصاء خسائره وتمييزها عن انتصاراته، لم أتعجل خروجي، لم يكن ما هو أهنأ من حياتي، حياتي هناك، كنتُ أعرف كل شيء، هكذا ظننتُ، الحكايات والحِكَم والمشاعر، معرفة لا تؤذي لأنه ليس بالإمكان تطبيقها، كان ينقصني عِلمٌ وحيد لم أتصور

وجوده، ولا قدرته المُتجبِّرة على التأثير، كان ينقصني العلم بالنهايات.

أتت النهاية حين بدأ جسد ماما يلفِظني، كأنه لم يُطعمني ويُنيِّمني ويُعلمني الطيران كل هذا الوقت، لفظني وأنا آمنة أمارس مهماتي وأبتسم، فجأة بلا تحضير، كنتُ أشاهد أحلام ماما في السينما قبلها بقليل، بقيت كما هي، أدراج وبكرات خيط، وصبية صغار يلعبون بلا أرجل، دون أن يعرفوا أنهم بلا أرجل، عُلَبُ بيبسي وبنات كُنّ نسخاً مكررة من أمي تتخطفهن السماء وهنّ يلعبن. لا شيء عن هذا العنف في نبذي وقذفي إلى الخارج.

يُحزنني أن أقول إن ماما خدعتني يا أروى.

بدأتُ أنزلق إلى الأسفل بفعل قوة رهيبة تزداد تسلطاً بمقاومتي، حاولتُ أن أصمد، شبكتُ أجنحتي بالكبد، ألصقتُ نفسي بسقف المعدة وأنا أنهج من المرار. أنا أفسدتُ الأجهزة التي طالما حرستُها. لو أنني ذئب، لكنتُ عويتُ من الجرح. طبعاً لم أعوِ، كل ما حدث أنني واصلتُ الانزلاق، غير مُصدقة أن الله الذي أودعني في الجنة، يقتلعني الآن منها. دم، وماما صوت صراخها يُجبرني على الانصياع، وتجاهل الماضي، ماما لم تعد تُريدني هنا.

يتشوش الشريط كثيراً، يضربُ الصداع رأسي، فلا أقوى على مواصلة النظر، ويملأ أذنيَ الضجيج.

هذه هي البداية الحقيقية على ما يبدو، ولدتُ.

لم أعد عصفوراً، فقدتُ أجنحتي في المعركة الخاسرة مع الداخل، تفتحت عيناي بالتدريج، تحلَّلت ظُلمة الرحم الرحيبة وكنتُ أرى فيها كل شيء، غزاني ضوء لمبات النيون، لا أدري حتى الآن لمَ عذبونني هكذا، دون خوف على عدستيَ الحديثتين، كل أطفال الدنيا يُعذبون بالهمجيَة نفسها، ظللتُ أهرب من النور وأبكي، هذا هو العالم الذي راقبته من بعيد، وقلتُ هو بسيط وأجمل الذي فيه حضور ماما، كنتُ معها أخيراً، مع ذلك، شعرتُ بحاجة متزايدة إلى الهرب والعودة من حيثُ أتيتُ، أن أعترض وأقول لم أكن أريد أن أولد الآن، ولما كنتُ مازلتُ بكماء، أخذتُ أبكي لعلَهم يفهمونني ويُعيدونني، خِلْتُ العودة مُحتمَلة، وفهمهم مُحتمَلاً.

احتلت وجوه الممرضات خلايا الضوء، كُن يضحكن ويبتسمن بوداعة، يتناوبن على تقبيلي عابثات، يتجاهلن كل هذا البكاء المُصرَ على أن يُسمَع، نعم، كُن مبتهجات لوصولي وخضوعي بين أيديهن بلا أجنحة، هذا الابتهاج لم يكن يخصَني، هكذا هي عادات الأرض، وهي تسيرُ برغمها، كُن مبتهجات، هذا النوع من الابتهاج الذي خُلق كي يُنسى، حين يخلد الناس إلى النوم ليلاً، ذلك النوع من الابتهاج الذي خُلق فقط كي يُنسى. ولأنني تأملتُ وجوههن جيداً وأنا أبكي، عرفتُ أن العالم الجديد أبله وخبيث وسريعُ النسيان، وصار عليَ أن أسلِّم منذ الآن أنه لن يُعيدني أبداً إلى وطني.

في مستشفى اسمه اليمامة، صرختُ صرختي الأولى بين يدي الطبيب، وكانت حولنا الممرضات. كما تتوقعين، لم يأتِ بابا، لم يتلقَفني بسرور منهم، نضجتُ ساعتها، فتخليتُ عن البكاء، سمحتُ لهن بسلام أن يأخذنني إلى المغطس الدافئ، نظفنني، وألبسنني ثياباً تُناسب الشتاء، ومن بعد، ذهبن كي يُقدمنني إلى ماما، في سريرها، وكانت لحظة مُقدسة يا أروى، أرغبُ في تأخير لَذة روايتها، كما أخَّرنا دائماً لذتنا معاً.

كان السوق كبيراً، أكبر سوق تجولتُ فيه طوال حياتي، مازالوا يقولون له إلى الآن سوق المُتنبي، يعرض الأثواب بالألوان التي لا أعرفُ أساميها، والأقمشة الملفوفة حول أسطوانات في نظام دقيق من صنع الماكينات، كان هُناك أيضاً محلات لبيع ألعاب الأطفال، وأكشاك تصطفُ حواليها دُمى بلاستيكية، تبتسمُ وتُردَد كلمات لا تحفظ غيرها، بلغة لم أكن أفهمها بعد، لكنها تُثيرني، تُنير العيون أحياناً أو تقول ماما دون أن تحصل على إجابة من أية دُمية أخرى، كُنَّ دُمى لبنات، قليلاً ما رأيتُ دُمية لصبي، أو أنني رأيتُ ونسيتُ، كان لهن قياس طولي نفسه أو أقصر مني بقليل، كُنت أشبههن كشقيقة يا أروى.

ثم محلات الصاغة وتلتم عليها النساء، نساء تشتهي الذهب ومُضطرات إلى ضبط شهوتهن للحفاظ على الأكف الصغيرة في الأيدي ضد السرحان إلى الخارج وضد الخطف.

وكنا نتقدم، أنا الآن أستطيع أن أسير وأتكلم، قامتي تصلُ إلى رَحِم ماما بالضبط، أفهمُ الكلام وأترجم كل هذه الصور البشرية الزاحمة في عبارات قصيرة مفجوعة على الخروج إلى الآذان التي لا تسمع أحداً طبعاً، ماما تُمسك يدي وتسير، تغطي جسدها عباءة سوداء، كُنا وحيدتين، بابا سيأتي في موعد إغلاق السوق الذي هو موعد مغادرته عمله، سينتظرنا عند البوابة، كانت ماما معي تتلفتُ إلى البضاعة التي تتغير كلما تقدمنا خطوة إلى الأمام وأنا أحرك رأسي بين السماء السوداء والدمى المتربصة بي على الجانبين.

من أين بدأ الصوت تحديداً؟ متى خرج وكيف شَقَّ السوق؟ لا أدري، لكنه حين صار بازغاً كأن الشمس قد أشرقت فجأة في الليل على غير ما تعوَّدت منذ بداية الكون، حين قَلَبَ الصوت السوق هكذا، أجبرني على ترك يد ماما.

سأقول لكِ، لو أن العالم هو السوق، ولو أن السوق هو دائرة، فقد جعل الصوت الدائرة تنزاح عن حدودها القصوى، حدث هذا كما يحدث في الطبيعة، بغتة لكن بلا شذوذ. الصوت صراخ حاد ومسنون لمجموعة من السيدات كُن يرتدين بالصُدفة زي الحداد الأسود في نقطة ما من شارع المُتنبي في مدينة الرياض، صوتٌ خاطفٌ لم يكن كذلك بالنسبة لي.

ضاع طفلٌ من أمه، أغوته الدمى التي تقول ماما أو تلك التي ترفع أسلحتها في الفضاء، أو أن شيئاً آخر

أغواه لا أعلمه، تحوَّل الصراخ النسوي الملتاع بدايةً إلى نواح لما تأكد الفقد، ولزمن قصير جداً، استطاع أن يُسكِت الهمهمة المتصاعدة لضيوف السوق، حلّت محلها كلمات تأكيد الفقد، "يا عيني"، "الله يعوضها"، "خطفوه". أنا انحرفث عن الأصوات التي خوّفتني وأجبرتني أن أرفع رأسي إلى السماء مُستغيثة كي أعاين العتمة كما لم أعاينها من قبل وأتيه عن ماما وأضطرَ إلى التوحد مع الطفل، درث حول نفسي مثل بَرجَل ضلًّ مركزه وانكسر سِنه وأصبح هكذا يَعرَج في السوق الكبير، ضعث بسبب الصراخ والنحيب حين أضحى صادراً عن كل المحلات.

تلاحقت اللقطات وأنا أطوف حول نفسي في متاهات تظهر من العدم وتبتلعتني، أو على الأقل من مكان لا أستطع رؤيته وأنا صغيرة هكذا، وكانت المتاهات يا أروى آمنة، أو لديها نية صادقة أن تبدو كذلك في عينيَ كي تُخدر مُقاومتي. بصراحة، لم أفكر في المقاومة أصلاً، تذكرت أيامي الحلوة وقلت إنني سأعود إلى الطيران على هيئة عصفور أرضي هذه المرة، وظل الصوت لا يختفي ولا ينخفض، كما ظلت الدمى تُنير عيونها بلُطف من أجلي.

كانت اللعبة قد بدأت تحلو، كنث قد أغمضث واستسلمث حين أيقظتني قبضة بابا تمسك دماغي وترَجه كي أفيق، عرفثُ أنني انهزمت لكن جسدي حاول أن يقاوم منفرداً، حاول أن يكمل دورانه. عدث من

الحلم غصباً عني فوجدتُ أن الصوت قد اختفى، والسوق عائمٌ في همهمته الأولى. النساء تشتهي الذهب في محلات الصاغة، والأطفال يشعرون بالملل في السوق الكبير، كان بابا صامتاً ينظر إلي يريد أن يسألني متى سأتوقف عن تكدير حياته، ثم سلَّمني من كتفيَ لماما، جريتُ إليها وصرختُ فرحة: "ماما"، وددتُ أن أقول وحشتيني وأحكي لها عن كرامتي الصغرى في العبور من الظلام إلى النور، والعكس بالعكس، لكن مثل مَنْ يدق مسماراً بسرعة قبل أن يسقط، لطمتني ماما على خدي، أحسستُ بغلظة أسناني في فمي وتذوقتُ من الفور طعم الدم، فهمتُ أن إثماً عظيماً لن يُسامحه أحد قد وقع بسببي.

ابتسمتُ كي أداري الحرارة التي نتأت على خدَي، خجلتُ أن أبكي أمام كل هذه الدمى والأطفال والليل، رفعتُ وجهي بصعوبة كي أقول لماما: "أنا آسفة"، كان وجهها محتقناً وعابساً، لن يهدم عبوسه شيء، ذاب حاجباها وعيناها الجميلتان في كتلة لحم واحدة وملتهبة، كعين في منتصف الرأس، تنظر إليَ نظرة قديمة، نظرة يوم ميلادي الأول، بعد أن تلقتني من الأطباء على سريرها مُنهكة، كانت مُمتنة لأن المُعجزة تحققت وأنجبتني، حزينة تُريد أن تبكي لأنني جئتُ بنتاً كما تمنتني، حاولت أمي أن تنتحر يومذاك يا مريم، رأيتها وهي تكتم أنفاسها، فبكيتُ بخرقة كي أهدئ روعها، لم تفت ماما، واصلت عيناها التحديق فيَ كمركز

للخيبة، مركز لن يصده أحد عن ملاحقة المُخيَّب حتى باب القبر، كلعنة كما يصفون.

# الفصل الأول

بابا كان اسمه محمد علي، وماما صدِّيقة، تفتَّح قلبي على عيشة خاصَة بنا في الرياض، لا يُشبهنا فيها أحد، ولا نحن نشبه أحداً، كان بيتنا مكوناً من غرفتين فقط بلا حتى صالة، يُفتَح باب البيت على غرفة لعبي ومكان طهي ماما وأكلنا وحمامنا، والباب الثاني في الحائط يؤدي إلى غُرفة نومنا والتلفزيون والدواليب البلاستيك التي تُغلَق بسحابات طويلة وليس لها أقدام، فتثبت على الأرض، هكذا كان الناس، إذا ضلّوا، أتوا يدقون الباب علينا، أنا وماما، في قلب حياتنا.

على جدار آخر، كان يوجد باب ثالث قصير، لا يُمرر شخصاً بالغاً إلا بعد انحناءة، اسمه باب السطح.

كُنا نمر عبره إلى حيث يمكننا رؤية سطوح بيوت الآخرين، نفتح الباب ونتحرك خطوة واحدة، لا يجب أن ننظر إلى الأسفل المُخيف، نستدير فنتسلق السلم الخشبي المدقوق بالمسامير في كل أنحائه، إلى أن تبين السماء ويبين العالم كُله، ما كنتُ أظنه كذلك.

السطح كان مساحة جرداء إلا من الأطباق الهوائية، وجثث الحمام الذي أخفق في الطيران، أو مات من فرط التعب، فتيَبس ريشه وأصبح لونه غامقاً وعُنقه متغضناً، كُنا نفتح الباب في أيام الرضا، نتسلقُ السلم، بابا أولنا، يستطلع خلو الفضاء من أي جارٍ متلصص

مثلنا، وأنا خلفه، حتى إذا تعثرت، أنقذتني ماما التي تتبع خطانا.

كان العالم يبين بالتدريج مع كل درجة أصعدها، بعد الحبس تحت سقف بيتنا المُضجِر، كنتُ أرى السماء شاسعة بلا حدود، وأسأل: "السما إيه آخِرها يا بابا؟"، "تاخدنا في الآخِر على مصر"، "ومن بعد مصر؟"، "مش عارف مجربتش". ينشغل بابا وماما أحياناً بلَمِّ الحجارة والخشب المتناثر، ومنه يصنعان النار في أيام البرد الخفيف بغرض اللعب أكثر من التدفئة، وأنا أنشغل بمحاولة تخيُّل صورة مصر التي لم أولد فيها لكنني أتكلم لهجتها ولابد أن أرجع إليها في يوم قريب.

هذه هي الأيام التي كنتُ أدور فيها بالعجلة أمامهما، وأسقط أحياناً على جثة طَير فيقشعرَ بدني وأصرخ، هذه هي الأيام التي خاطبتُ فيها الله الذي يسكن في السماء كي يُرسل إلي الخب أو أختاً أو حصاناً عملاقاً، أو أن يبعث لي بحراً واسعاً أملكه وحدي: "قد السما بتاعتك كدة". كنت أردد على الله طلباتي كأنه يُسجلها من بعدي على ورقة، كي يُحققها لي بحرص في المستقبل، "لأنه لا ينسى"، كما تقول ماما.

لم أكن أعرف أنه سيرسلكِ يا أروى. فقولي لي: هل يمكن أن يأخذ الله البحر بعد أن يُعطيه؟

لكن الأيام انتهت، أعني أيام السطح سريعاً، لم يكن الصعود حقاً لنا، فنحن نزلاء مثل الجميع لا نملك أكثر من ساحة السجن الضيقة في الأسفل. أما بابا وماما،

فكانا يعرفان أكثر مني أن أوقات رِضاهما قليلة، كأن خِناقَهما جزءٌ من الحياة، يمكن أن يحدث في أي وقت كالمطر، كالحب معكِ يا حبيبتي، إذا وقعت الواقعة، نزلنا جميعاً متوسلين الدرج إلى الحفرة التي اسمها بيتنا، كُنت أحب أن أبقى وحدي تحت السماء، كي أشاهد الحمام وهو يطير أو حتى وهو يموت، كي أتمادى في تكليم الله، كُنت أريد أن أفوِّت الاستماع لحكايات ماما التي تبدأ دائماً بعد أن ينام بابا، وتشتد كلما أوغل الليل.

ملأت حكايات ماما جبراً عالمي، كانت تجلس وراء باب السطح، جهة الشقة، تسند ظهرها إلى الخشب، وتبدأ: "عشت أيام سودا كتير"، تتحدثُ إلى نفسها أكثر مني، أو إلى نفسها فيَ، تهرول في اتجاهات ليس فيها أحد، ثم تعود إليَ، وتحكي: "لازم تعرفي حكاية جزيرة القرود".

"كُلي الأول وإلا لن أحكي الحكاية. كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، جزيرة كبيرة. الجزيرة وسط المحيط. المحيط ألف بحر دايبين في بعض. وكان في المحيط جزيرة واحدة. هي جزيرة القرود. يسكنها ألف قرد. وكل قرد يعيش لوحده تحت شجرة".

"لم يكن له بيت زي بيتنا يا ماما؟"، "لا لم يخلق ربنا بيت زي بيتنا". "ولا عنده سقف يا ماما؟". "لا ولا عنده سقف". "ولا بابا وماما؟". "لا ولا بابا وماما". "كُلي الأول وإلا لن أكمل الحكاية". "القرود عندهم شجر. ولا شيء

غير الشجر. وكل قرد كان له صاحب أو جار. في الليل يسهروا يتكلموا عن المُحيط. أنه يُغرِق كل مَنْ يحاول الاقتراب. كانوا سعداء رغم كل شيء. وفي المنام يعوضوا كل ما ينقصهم". "وبعدين؟".

"مرة قال قرد لصاحبه إنه المحيط بدأ يرتفع عن الحد الطبيعي. بمقدار كل يوم بِشِبر. يعني إيه شِبر؟ قد إصبع صغير من كفك. يعني إيه؟ يعني الجزيرة ممكن تغرق والقرود ممكن تموت".

"خليهم يمشوا يا ماما؟"

"لا يمكن يمشوا جوة المحيط".

"نطلب من صاحب المحيط أن يتصرف يا ماما؟".

"ربنا هو صاحب المحيط، يا مريم، وهو لم يتصرف".

"نقول للقرود أن يناموا؟".

"هم ناموا فعلاً ولم يستيقظوا. خلال يوم وليلة اختفت جزيرة القرود. ولم يبقَ منها إلا مجرد حكاية. وبما إنك لم تأكلي أكلك كله. فأنا لن أحكي لك حكاية ثانية".

أنا أيضاً نمت، ولما استيقظت، وجدث بابا قد وصل من العمل، كما يصل كل يوم، لم تتأثر الحكاية، وهو يدخل مترقباً ويصفع الباب خلفه، استدار وتأمل وجه ماما الجاثمة وراء باب السطح، عرف أن الغضب قد زال بعد خناقة أمس، أنها الآن أفضل، عادة لم يكن يسأل كيف يزول غضبها، فقط كان يجلس ويرفع رِجليه إلى طاولة الأكل بادئاً حكايات مملة عن الشغل، الذي لا

يخلص، تكلما دون انتباه إليَ، كنت أرتعش في ركن من الغرفة وأنا أخوض ألف حربٍ في خيالي كي أخرج من الجزيرة، كانت نجاتي الوحيدة خيانة للقرود، أن أتركهم في المحيط وأرجع، ولم يكن هذا سهلاً عليَ.

أن تكوني صغيرة عائشة في غرفة مستطيلة، مُقَسَّمة إلى غرفتين أصغر، وذلك كل بيتكِ، ترين الشمس قليلاً، وبلا أصحاب ولا إخوة، يعني أنه لن يكون سهلاً عليكِ الإفلات من الحكايات، أو أن الإفلات منها لن يكون سوى بحكاية جديدة، أحياناً كنتُ أنسى الطريقة، أظن أن البشر كلهم غالباً ما ينسونها، ينسون أنه بإمكانهم الإفلات، لو أن مزاج الحياة جيد ساعتها، فسوف تتفضل وتُذكّركِ بالطريقة، قبل أن تواصل الإفلات منكِ هي الأخرى، هذا ما حدث يومذاك، وأخلَى سبيلي من جزيرة القرود.

حين دخل بابا وماما إلى الفراش، قالا إنهما سينامان الآن. "وأنت كمان نامي". وأنا قلث: "حاضر"، رغم خوفي ومعرفتي من التجربة أن النوم لا يأتي والخوف حاضر، يجب أن يذهب الخوف أولاً، سكتُ وذهبتُ إلى الأريكة التي كانت سريري، رقدتُ تحت الغطاء، وانتظرتُ أن يقولا لي أي شيء: "تعالي نامي جنبنا"، أو"تعالي نامي بيننا"، أي شيء يُبدد الخوف.

تَمَدَّدتْ ماما أولاً على السرير، لم يكن بينها وبين الحائط سوى الوسادة الطويلة التي تُشبه الدودة، سمحت لبابا أن يتمدد خلفها، أصبحت محبوسة بينه

وبين الحائط، وقد جعلها هذا على ما بدا لي تضحك باستمرار، وبابا يضحك على ضحكها، قالت لي فقط: "نامي بقى". ولم تزِد. كان وجهها يلامس الحائط وبابا يضع أنفه في رقبتها، تلتصق بطنه بآخر ظهرها، ذراعه مُعَلَّقة في الفراغ، موصولة بثديها، قال شيئاً لم أسمعه، فضحكت ماما ضحكة لا تخصّها، وأنا اغتربت.

كُنا، نحن الثلاثة، نحاول الهرب من موجة عالية تتعقبنا لتضرب كلما ابتعدنا، كُنا سنغرق حين فتحتُ عيناي مرة واحدة على السقف القريب، نهضتُ عرقانة فوجدتُ أن باب الغُرفة مُغلق عليّ وحدي، بينما بابا وماما هناك في الخارج.

وكانت هذه أوقات استدعاء حكاية الأميرة التي في لعبة ماريو، أميرة صغيرة جداً، شعرها أصفر، ترتدي فستاناً أحمر وأبيض، بابا يقول إن الأميرة تتغير في كل مرحلة من اللعبة، لكننا لا نرى أميرة أخرى، ولا نحظى سوى بهذه الأميرة، حين أقول نحن، أعني أنا وبابا وماما ونحن نلعب متناوبين، كم راقبتُ تفاصيل الأميرة الافتراضية بوَلَه، وماريو يسقط كل مرة في النار، ينتصر عليه الوحش، يغتصب منه جائزته، بسبب خُمق لعبي الذي لا يتقدم.

حين يُطفأ التلفزيون، تفلت الأميرة من اللعبة، تدخل إلى ألعابي، يُترك ماريو في عتمة المتاهات وحيداً، لا يَرى الصباح وهو يطلع على كوكب الأرض، كما نراه.

طيّبة ولا يصدر عنها الكلام، لا تحزن ولا تغضب مني أبداً، كانت مرسومة على تعريجات خشب الباب الناتئ الذي يجرح مَنْ يمر بلا حساب، ومُحَرَمٌ على سواي أن يراها، واقفةً تميل وعيناها مُرتخيتان بحنان، أرى وجهها الشفاف من تحت الستارة الخفيفة تُغطي نصف جبينها، وأخجل من الذي سنفعله في الغرفة وحدنا، يجب أن نفعل كل شيء بسرعة، قبل أن يعود بابا وماما. تصغر الصورة وتكبر كما أشتهي، أضع شفتيَ على شفتيها، أقترب فأقول: "مكسوفة مني يا حبيبتي، أنا حبيبك وأبو بِنْتك، تعالي، تعالي"، أضمها فأحس بالقرود قد صحَوا من الموت يتنطنطون في صدري، أجفل وأحاول أن أضم الأميرة، كي أتحكم في الصورة، أضم وأضم، لا أريد أن أترك أي فراغ، هي الحب الذي يفهمني، ألاحقه ويُلاحقني، الحب الذي أنقذ القرود من الغرق وأعاد إليهم الجزيرة، أعاد الحكاية لزمنها الأول.

ماذا أفعل كي تهدأ النار؟ أجهل والأميرة ثابتة على الابتسامة نفسها، الحياء والستارة الخفيفة، خجولة وبعيدة، ثم تجعلها النار أبعد. لم أكن قد تعلمت حينذاك يا أروى كيف يُطفئ العُشاق نيرانهم، لهذا يأستُ وضربتُ رأسي في الخشب، جرحتُ به نفسي، ثم عدتُ إلى الأريكة، وبكيتُ إلى أن نمتُ دون أن أحس.

ماما أيضاً كان عندها حكايات، عاشت عالقة فيها، بلا أي صباحات، وحين تقرزُ روايتها، لا يعنيها أن يسمع أحد، كأنها تحكي للحياة نفسها، قالت لي إن الحكي هو

المُنقِذ الوحيد من الغمَ، لكنني عرفتُ أنه ليس المُنقِذ من الموت، ظلَت ماما تحكي حتى ماتت، وسأظل أسمع حكاياتها تتكرر إلى الأبد، مثلاً، خلَيني أحكي لكِ حكاية الصبي علي.

علي كان شقيق ماما، ولد بعد أربع بنات، يعني أصغر فرد في الأسرة. ماما هي البنت الثانية في الميلاد، الأولى في محبة علي على الدوام، وفي محبة جدي وجدتي. وُلِدَ علي بقوسين في ساقيه، كان يُحب اللهو كثيراً على ما كان يُسببه له من ألم، منذ حبلت جدَتي بطفلها الأول، وهي ترغب مثل جدَي في إنجاب صبيّ. لكن الصبي لم يأتِ إلا آخر العنقود، ثم إنه قد أتى عليلاً. قالا إنه سيعيش محزوناً وغاضباً من العالم، تمنيا أن يمنحناه حظهما من الصحة والأمل.

لا أحد يذوق الحلوى غير علي. لا أحد يَشمَ رائحة الحلوى غير علي. لا أحد مثل علي. البنات يحترقن بالاعتراض، يصمتن في البداية، ثم يُعلنَ الرفض، علي لن يستطيع أكل كيلو كامل من الحلوى وحده، هذا حرام وظلم. لكن ما حدث بالضبط هو الحرام والظلم. يرمي علي الحلوى التي تتبقى من الشباك دائماً وهو يضحك. يقول بفخر إن العصافير سوف تأتي وتأكل أكل علي، ثم تُغني باسمه أغنية، كما يفعل المسحراتي في رمضان.

ألصقت ماما ظهرها أكثر في الباب الخشبي المؤدي للسطح، ثم قالت لي وعيناها مُمتلئتان بالدمع، إن علي

كان يُمكن أن يكون مُغنياً، لأن أحلامه كانت تُشبه أحلام المُغنين.

بعد عشرة أيام من الحلوى اليومية. كره علي الحلوى، والمحل الذي في أول الشارع، وطبعاً ضَجِرَ من بابا وماما، صرخ في وجهه وهو يبكي ويُشير بكفيَّه الصغيرتين إلى رِجليه: "أنا بكرهكم". يومذاك انتحب بابا وماما حتى ظنّت البنت، التي كانت تقف خلف الباب تشاهد وتتعذب، أنهما سيفنيان من البكاء. وضعت يدها على فمها كي تكتم نَفَسها المُتقطع، فقط كي لا يُفتضح تلصصها، أحسَت أنها لا يجب أن تنسى هذه الصورة أبداً.

حتى صورتها وهي تقف وراء الستارة، شعرها مربوط إلى ضفيرة واحدة ترتعش، لم تستطع أن تنساها، وكذلك أنا أيضاً لم أنسَها.

أراد علي، مثلما أردتُ، حين كنتُ تحت السقف، أن يهرب من محبسه، كالعصافير التي كانت تطير وترجع إليه، بينما هو جالس جوار الشباك لا يستطيع حتى أن يسير مثل الناس، ليلتها روت ماما الحادثة لأخواتها البنات، ضحكن كثيراً على الصورة، وقُلن"أحسن"، قبل أن يأخذهن النوم إلى عوالمه الحرة، ويتركن ماما وحدها في الغرفة مع عجز علي.

نامت ماما على الفكرة تتنطط في رأسها، حتى إنها حين استيقظت في الصبح، رأتها تهبُ إلى السقف، أعني الفكرة.

ذهبت صدِّيقة إلى علي الذي يتابع أرجل الناس السائرين في الشارع ولا يتكلم، ثم قالت له: "تلعب معايا بالعرايس؟". لم يرد علي، كأنه لم يسمع. "هورَيك نلعب إزاي"، ودون أن تنتظره، أتت بقبيلة العرائس من الكارتونة في الغرفة، صنعت له عائلة وأولاد، تمتع علي باللعب، ولما بلغت مُتعته الذروة، أخذ يحطم العرائس كلها، وضعها أسفل قدميه وهرسها مرتاحاً خلال دقيقة واحدة.

ومع أنني لم أكن أعرف حينذاك ما الدقيقة، خمنت أنه زمن البوسة مثلاً. قلتُ لماما وأنا أتصور الحطام ماثلاً أمامي: "وبعدين؟". هي فقط التي بكت في الحكاية كلها، شعر بابا وماما بالفخر لأن علي يضحك، وقد تلوَّن وجهه بالسرور مجدداً.

سخرت البنات من ماما "الهبلة" التي سلمت ألعابها كلها لعلي "المُتخلف"، ثم نسين ما حدث، لم يُفكر أحد في تعويض الخسارة، لأن صدَيقة لم تطلب أي تعويض، صارت العرائس لعبة علي المُفضلة، يذهب إلى غرفة البنات في عرجة خفيفة، يصنع العائلات من عرائسهن المُخبأة أسفل الأسرَّة، ثم يقصف رقابهن ويخرج ضاحكاً كأي قائد فتوحات عظيم، صدَيقة لم تكن تعلم مَن الذي ارتكب الخطأ.

حين سألتني ماما وهي تحكي، أحسست أنني السبب، ولم أجب.

انتقل حزن علي إلى غرفة البنات، وتحرر علي، مَنْ يرونه كانوا يقولون له ما شاء الله! والبنات في الداخل لا يستطعن مُسامحة ماما لأنها فتحت الباب في وجه كل ذلك الدمار. بعد أعوام شُفي علي من تقوس رِجليه، سار وطار في الشوارع، اشترى بندقية وتعلم صيد العصافير والحمام، هربت البنات من البيت واحدة تلو الأخرى، ماما كانت أقصى مَنْ ابتعد، تزوجت في البلاد الغريبة وأنجبتني، وقالت إنها سوف ترتاح.

هل ارتاحت ماما؟ لا، طبعاً لم ترتح.

أنجبتني، أنا كنتُ أول خَلَفها، ثم حاولت كما قطعت الوعد لبابا، أن تُنجب الصبي، كان بابا يُريد صبياً اسمه علي، تَيَمُّناً باسم جدي، الصبي سيكون اسمه "علي محمد علي"، تخيّلي معي الاسم محفوراً على لوح رخامي فوق مكتبٍ للطب أو الهندسة، أما أنا، فلا أستطيع أن أرى الألواح الرخامية سوى فوق القبور، حين يأتي بابا على ذكرها، هكذا رأيتُها في السينما مرّة، لا أذكر في أي فيلم.

دخل بابا البيت وأنا أرتب العرائس في صفَ على هيئة طابور مدرسة، شَقَّ الصف بقدمه، فطارت واحدة منهن وسقطت على وجهها، حين رفعتُ رأسي إليه، كان وجهه أحمر وأنفه مَنفوشاً من الغضب، كأنه محبوس في وجهه، سامحته لأنه لا يعرف ما فعل، وخبأتُ بقية الصفَ في علبة الكارتون وأغلقتها عليهن، غرقن في العتمة، وأنا انسحبتُ إلى الركن.

دخل إلى غرفة النوم حيث ماما. أغلق الباب خلفه، ثم خرجا معاً، أصبح أنف ماما منفوشاً مثله ووجها تلوَن بلونه، بين الدخول والخروج زمن قضيته في الركن بجوار عرائسي، عيناي لا تتحولان عن الباب، زمن لم أكن أعرف حسابه.

كان بين يدي بابا مظروف أبيض، جواب من مصر، من جدي وجدتي. "هاتي التسجيل"، ذهبت ماما لتجلبه وفي رجوعها، سألتني فجأة: "أكلتي؟"، دققت رأسي في الهواء أن نعم دون تفكير، وانتظرت دون أن أعرف ما أنتظر.

في المظروف، كانت بكرتان من شريط التسجيل الخام ملفوفتان بعناية في منديل ناعم وخفيف. يستعين بابا بمفك صغير وعدة مسامير ليعيد تركيب البكرتين في شريط آخر، ويُسكنه جهاز التسجيل، كانت اللقطة المُسلية الوحيدة، يعقبها خروج صوت جدتي من السماعة المُكبرة، هذه المرة حَكَت حكاية العمة:

عَمتك زعلت انك خلَفت بنت. قلت لها أمر الله. لا يجوز نعترض عليه. بكرة ربنا يعوضه بصبي.

يا محمد. من حقك أن تتزوج ثاني وثالت ورابع. أبوك بعد شهر من الدُخلة حظ إيده على بطني وقال لي صبي. بعد تسع شهور بالتمام جه سليمان. عمتك زعلانة وتقول إننا صعايدة. لا بد تكون ذريتنا رجال. ربنا أمر بمريم صحيح ولا يجوز أن نعترض على أمر الله. بكرة ربنا يعوض

بصبي. عمتك تبعث لك السلام. وسألتني ليه اسم مريم يعني؟ كان المفروض يكون اسم البنت أم كلثوم. مش كفاية أنها بنت؟ قُلت لها صدِّيقة منها لله هي صاحبة تسمية مريم. بنتك شُفت صورتها شبه أمها. أبوك يبعث لك السلام. ويسألك إمتى ترجع؟ سبع سنين يا محمد! أبوك خائف أن يموت ولا يراك. مستنيينك. سلام.

طَق زر التسجيل ونحن نأكل على الأرض، كنتُ في أقرب نقطة من كارتونتي، أحمي العرائس بينما يمر وقت الأكل ببطء، كل ما أبلعه لا يعبر من حلقي، فأشرب الماء، وأوْجَل، لأن ماما لا تُحبني أن أشرب الماء أثناء الطعام. نأكل بصمت، لا التلفزيون مفتوح، ولا هُما يتكلمان. عاد وجه بابا إلى طبيعته، يفتح فكه كآخر حده، فيطقَ هو الآخر، ولا ينظر باتجاهي. ماما شفتاها بيضاء، ساهمة لا تصل يداها إلى الطبق.

خرج صوت بابا عادياً: "أنا لقيت لكِ شغل"، "شغل إيه ومريم؟"، تحسَ مريم بخوف أكبر على العرائس بلا سبب. "انتي لسة مش حامل، نشتغل علشان نعرف ننزل مصر". "ومريم؟"، أعادتها. شحب وجه ماما، وبابا شحب طبقه. الآن أقول، يا أروى، كانت صدِّيقة مفزوعة أكثر مني على عروستها. "ومريم؟"، "مريم كبرت، نقفل عليها الباب، نسيب لها الأكل، ومش هتغيبي كتير، أول بنت تكون لوحدها يعني؟ لو جه لها أخ، هتنشغلي عنها".

"لكن مريم سبع سنين بس حرام تتفزع". "أنا عندي كلمة من الأسبوع الجديد".

في ذلك اليوم، شرب بابا الشاي وحده في الغرفة، ثم نادى على ماما، أغلق الباب عليهما، وأنا نمتُ مع عرائسي داخل الغُلبة التي يحتجب عنها النور، حين أيقظتني ماما، كان لُعابي قد بلل شعر إحداهن، حزنتُ وقلتُ سأنتظر نهار الغد كي تجف.

ماما عيناها ذاهلتان في السقف، تخاطب نفسها أكثر مني: "متزعليش مني يا مريم"، وأنا أكلم العروسة المبلولة: "مريم متزعلش من ماما"، "مريم متعرفش تزعل من ماما، لكن تحكي للعروسة حدوتة؟". هذا هو العرض الوحيد الذي أعرفه حتى الآن يا أروى.

"عاوزة تسمعي أي حدوتة يا روح ماما؟ الأميرة النائمة؟ حاضر أحكي لك".

أخذتني ماما إلى صدرها، أسندت ظهرها إلى الباب الخشبي كأنها تستعد للطيران، وأنا أسندتُ ظهري إلى بطنها، أصبحت الحكاية تتحرك بيننا، سأقول لكِ الآن مثل كرة، كرة أتلقفها وأطوِّحها بالفطرة، سمعتُ الحكاية مرات عدة من ماما، لكن هذه كانت أنْعَم مرة على الإطلاق.

كانت هناك أميرة جميلة جداً، خصلات شعرها ذهبية، عيناها بلون المحيط، وبشرتها بيضاء، مثل بشرة أروى، وبشرتي، وبشرة ماما. كان للأميرة جَدَة تُربيها، لأن أم الأميرة ماتت منذ زمن، ماتت من الهم والغم، وطول

انتظار أشياء لا تتحقق، بعد الموت ذهبت الأميرة للعيش عند جدتها في الكوخ داخل الغابة.

لا تُحب الجدَةُ الأميرةَ كما كانت ماما تُحبها، في الواقع، لا أحد سيُحب الأميرة كما أحبتها ماما، لكن الجدة أحبَت حقاً أن تعيش الأميرة معها، كي تستولي على ذهب ماما وأوانيها التي أصبحت الآن إرث الأميرة.

طلبت الجدَة من البائع المتجول في الغابة أن يُحضر لها سُماً تقتل به الأميرة دون أن تحس، ولمَا كان البائع المتجول يُحب الأميرة، صعُب عليه أن يفعل، إذا ماتت الأميرة روحه تموت، اكتفى البائع المتجول بأن أحضر منوِّماً فحسب.

وفي يوم، كانت الأميرة جالسة على الشاطئ ورِجلاها تغمسهما في مياه الينبوع، يجري السمك إليهما ليُقبِّلهما، لما اقتربت الجدَة من الأميرة وقالت خُذي التفاحة كُلِيها، صدقت الأميرة وأكلت أحلى تفاحة قضمتها في حياتها، حين قَرَّت التفاحة في معدة الأميرة، خُضَّت رِجلاها في الماء وفزع السمك الذي لم يفهم ما جرى.

ظلت الأميرة مرميَّة لأيام على الشاطئ والبائع يحوم حول جثتها ويحس أنه سيموت من الحزن. كان يعرف أن ما أطعمه لها ليس سوى المخدر، ستفيق ذات يوم لكنه يجهل كيف سيحدث هذا، يجهل كيف يوقظها وكيف ينساها، وفي يوم، جاء إلى الغابة أمير وسيم

جداً، رشيق وله عينان بلون المحيط، كان يريد أن يصطاد.

لما اقترب من البحُيرة، رأى ما هو أجمل من كونه أميراً، أجمل من الصيد ومن السمك، كان شعر الأميرة مُسترسلاً على فخذيها، استطال في أيام النوم جداً وصار له طول الأمير نفسها، تَلَمَّسَه الأمير ثم انتبه إلى شفتيها، كانتا مفتوحتين وفي الوسط منهما تطل سمكة ميتة، أخرج الأمير السمكة من بين الشفتين، ثم قرر أن يغسل جسد الأميرة بماء البُحيرة العذب، خلع عنها ملابسها، لم يُرِد أن يؤخر لذته. بسبب الحب، انكسر السحر عن الأميرة، واستيقظت أخيراً.

فازت مريم ليلتها بأروع بوسة يُمكن أن تحدث لأحدٍ في المنام.

كانت أياماً عادية يا أروى، على الأقل هكذا بدت حينها. كنتُ أتلقى الخيبات كهدايا عيد الميلاد، أدعو الناس إليها فيأتون بلا تبرم، خيبات في العمل، الصداقة، الحُب لو كان بإمكانكِ أن تُسميه حُباً، الحياة صعودٌ للسلم، هبوط للسلم، عبور للشوارع المكتظة، سير في الشوارع الخالية، سير بلا صاحب ولا فكر ولا هدف، كان خيالي بليداً، لا أعرف التدوين بعدُ، لم تكن ولدت فيَ روحي كل هذه القصائد التي كتبتُها معكِ عنّا.

كُنتِ بعيدة عني. لو أنني رأيتُ مشهد وصولكِ إلى مطار القاهرة يومذاك، لكُنتُ امتنعتُ عنكِ يوم المترو، وما بدأت هذه القصة كُلها، ولا وجدتُ ما يستحق أن أشعر به، كُنتِ في أجمل أحوالكِ، تهبطين من الطائرة "اللوفتهنزا"، بجواز سفركِ الألماني، تعرفين أن عليكِ احتمال تحقيقهم معكِ لأنكِ أجنبية الهيئة والجنسيَة، لا تُبرري أسباب مجيئكِ إلى هنا بعد كل ذلك الوقت، تقفين في الصف القصير لمتابعة إجراءات الوصول مثل كل الناس يا أروى، لا تقولي الحقيقة حين يرتاب فيكِ الضابط ويسألكِ بحذر "حضرتك جاية ليه دلوقت؟". كبديل، تقولين بالإنكليزية التي يفهمها "work"، ثم بخفة تسحبين من تحت يده باسبوركِ، لا يجرؤ على الاعتراض وأنتِ تنظرين إلى السقف مُهددة: "سوف أطلب السفير"، جفنكِ في اللحظة الأخيرة ارتعش وأنتِ تُعطينه ظهركِ وتذهبين.

أنتِ قاسية حين تُحبين. كُنتِ تسحبين حقيبة من ذراعها، وتحملين أخرى أصغر على ظهركِ، في مطار واسع بلا أول ولا آخر، تسيرين بغُودِكِ الذي يُشبه الكرباج، مشدودة ومستعدة للصراخ إذا ما اقتربوا، رغم البرود البادي، البرود المُتعمَّد، لم يكن هذا ما في القلب، أنا أيضاً خُدعت أول مرَة. هل تأملَّتكِ القاهرة بعد الرجوع كما تأملتُكِ؟ هل فرحت بقميصكِ الأبيض، بالسترة السوداء من فوقه؟ تطير التنورة في الحركة، والبنطال المحظوظ يلتصق بكِ من تحت، لم تعرف القاهرة أن تستردكِ كما فعلتُ، كُنتِ تسيرين كأنكِ بجعة تريد أن تخرج من المسرح حالاً في الباليه الشهير، سرقتِ أنظار الكل، رجال المطار الذين ساروا ورائكِ كالمسحورين، تمنوا لو أنكِ تطلبين منهم المساعدة فقط، سائقو التاكسي الذين أخذوا يعوِجون ألسنتهم بالكلمة: "ليموزين"، دون أن يعرفوا هل يصحّ مكالمتكِ بالعربية؟ والضباط، الضباط الذين يراقبون مَنْ يأتي ومَنْ يخرج، أحدهم على الأقل تمنى من قلبه أن ينام معكِ.

تلك أيام الثورة.

كلهم نسوا ما كان يحدث في الثورة واشتهوكِ يا أروى، وهذا يرمي النار في روحي ويكويني، ثم أعود فأقول للغيرة، لو كُنتُ هناك يومذاك، لصرختُ فيهم بالفصحى: لكن أروى لا تُحبكم، يا رجال، يا ضباط، ويا خرطوش، ولضحكتُ حتى الموت. ألم تكن هذه قصيدة واحدة جيدة على الأقل؟ عبارة واحدة تختزلُ لحظاتكِ

الأولى في القاهرة بعد الانقطاع، أن يحفوا وراءكِ كجيش بينما تنظرين في تلفونكِ، تتذمرين لأنه لم يلتقط التوقيت المحلي بعد، تداعبين بيدكِ شعركِ القصير، بأظفاركِ فروة دماغكِ، كأن هذا سيجعلكِ تصبرين أطول؟ يا غُلامي الجميل، أنتِ لا تعرفين إلى أي حد لهفتِ أدمغة الرجال وأنتِ لا ترينهم أصلاً، تفكرين في هدف واحد، أن تصلي إلى شقة شارع شامبليون، تتركين حقيبة، ترتاحين ساعة كي تنزلي بالأخرى، تقصدين إلى الذين أتيتِ من أجلهم أصلاً، رفاقك في شارع محمد محمود، تخترقين صفوف الواقفين على الأطراف، مَنْ اكتفوا من الثورة مثلي بالرائحة، ترمقين عساكر "الأمن المركزي" عن بُعد والدبابات، تصلين إلى دائرة جاهزة، تقفين في المركز تسحبين الموسيقا من خلف ظهركِ، يصمت الرفاق أمام المباغتة وينظرون إليكِ وأنتِ تنفخين من قلبكِ، تُغمضين عينيكِ وهم يُحدقون، تستوي الصفوف في انتظار الأمل الآتي من بعيد، تُغنين فينزاح الضباب وترتج الدائرة، ترتج حتى تلمس الارتجاجة جلود أهل الدبابة المساكين، فتقشعر ويبكون دون أن يفهموا لمَ.

معنى مُناضل لم يتحقق منه سواي، أنا لم يكن في وسعي أن أغني سوى في نفسي، وأنتِ تذكرين كيف التقينا.

كنتُ في محطة مترو جامعة القاهرة، ساعتان ويبدأ حظر التجوال، أجلس على مقعد الانتظار مُنَكَّسة رأسي،

مُسَنَّدة إلى عمود الإنارة، يهزّني البرد مثل ورقة شجر بلا إرادة، أحاول أن ألعب مع النساء المارّات لعبة العينين التي اكتشفت لسعتها مع المرأة الغجرية، أحب هيئة واحدة، أتابعها، أناديها بلا صوت فتنتبه إلي، أخجل أولاً، ثم أعاود اللعب، أبصُ وأقول لها بالعين: بُصي لي. ينتبهنَ، كثيرات ينزعجن، قليلات يبقينَ، في النهاية، أتركهن يُفلتن جميعاً.

كنتُ ألاعب نفسي حين شُفتكِ، والله العظيم! انفتحت أبواب عربة المترو التي تصادف أن توقفت أمام نقطة جلوسي بالضبط، لا أذكر أي ازدحام وأنتِ هناك في الداخل مغروزةً مثل إشارة مرور، واقفة تولين العالم، الذي هو أنا، كل ظهركِ، تلصصتُ على فقراتكِ، تنبهتُ إلى حقيبة الموسيقا، ذكَّرتني بحكاية الأوبوا، زعلتُ ثم استدرتِ وبان وجهكِ لحظة الزعل، في الواقع، بنتِ كُلكِ، اختبأت خلفكِ الآلة، وبحرف عينها، صارت تنظر إلي، تهيّبتُ كأنكِ خرجتِ من أحلامي بجسد مفرود وألوان أبيض وأسود، بشعر بُني قصير وناعم، بأنف مضغوط وحاجبين خفيفين ووجه حزين يعرف ما لم أكن أعرفه، في الاستدارة، كانت النظرة إلى الأشياء من حولكِ تُشبه هذه التي طالعتني بها حقيبتكِ، نظرة مَنْ لا يرى، تقاطعت عينانا، فابتسمتُ وابتسمتِ، انسحبت ابتسامتي حين انسحبِت ابتسامتكِ، عُدتُ حين عُدتِ بالاعتذار نفسه وقلة الحيلة، ناديتكِ دون أن أريد، تابعتكِ حين هبطتِ من العربة، طلبتُ أن تأتي،

أنتِ توقفتِ مباشرة عند الهبوط بعد العتبة الفاصلة بين العربة وأرض المحطة، طلبتُ أن تبتعدي، سكنتِ بين الناس في الزحمة كأنكِ على وشك الضياع، أنا لم أفقدك، عدّلتِ وضع الحقيبة المعدّل أصلاً، فصارت الموسيقا كقرد يتعلق بكِ وحدكِ ويحدق فيَ، أنتِ أيضاً أجبرتِ على تأملي من المسافة، تعرفين كل شيء عني، ما كنتُ أفعله الآن وألعابي، تنهدتِ فعرفتُ أنكِ عامدة سثغيرين مساركِ إلى المقعد المجاور، بالكاد يلمس حذاؤكِ الأرض، رجوتُ أن تسيري إلي، اعتدلتُ في جلستي، لو اقتربتِ أكثر سأنهض، تمنيتُ أن أُخبئ نفسي في جيوب الأرض، تمنيتُ لو أن لها جيوباً، لن أفلح، وانتظرتُ، كنتُ أراكِ من زاوية خبيئة وأقنع نفسي أنكِ لا ترينني، بدأتُ أمثل أنني سأذهب، أن كل هذا لا يعنيني.

خلعتِ الحقيبة السوداء وجعلتِها بين رِجليكِ، حررتِ ظهركِ، تركتِ أنفاسك تتدفق بالسرعة التي سأحفظُ إيقاعها لاحقاً حين ستغفين فوق جسدي بعد الحُب، كأنكِ تهرولين أو أنكِ توقفتِ عن الهرولة تواً، تحرك المترو أمامنا خارجاً من المحطة، ظلت عيناي مُعلّقة به حتى نسيتُ نفسي، لم يكن بيدي أن أوقف فيضان الماضي، مثلما لم يكن بإمكاني التنبؤ بمواعيده، فقط أستسلم له حين يحلَ وأشاهد شريط حياتي كفيلم بالأبيض والأسود، كان يمكن أن أرحل حينذاك بلا خير

ولا شر، فما الذي تذكرته وجعلني أعود إلى الحقيبة السوداء التي وجدتها فجأة جنبي.

"تحبي تشوفي ده إيه؟"، صوتكِ أنعم مما تخيلتُ. "أوبوا تعرفيها؟"، آثار لجبال عتيقة ووديان، آثار أخذت منها الريح، اطمأننتُ بسبب السلب الجليل في صوتكِ وارتخى جسدي من اعتداله المصطنع، ثم استوعبتُ: "أوبوا؟"، كنتُ سأنهض وأقول لله الذي في السماء: الآن أنت تلعب بي. "أيوه تعرفيها؟". طبعاً عرَفتكِ نبرة صوتي مدى علاقتي بها، أعني الأوبوا، انهزمتُ هذه المرة، وانقلبت اللعبة إلى حقيقة. "ليه انسرقتِ كده؟". رغم ألفة الصوت، أعترف أن اللكنة كانت غريبة، ظلّت غرابتكِ تزيد في نظري كلما أحببتُك كلما عرفتُك، سكتُّ بلا إشارة واحدة، وأنتِ سحبتِ حقيبة الموسيقا إلى حِجركِ كأنها حيوان أليف يدفن رأسه عندكِ من تحت، حركتِ السحابات بسرعة فائقة، فقلتُ هاتان يدا عازفة، بعضلات جاهزة وأوتار، لو أنني صرتُ عازفة، لكانت يداي هكذا. "أنتِ عازفة؟". "أيوه". خرجت الأوبوا من الحقيبة الجلدية كلعبة أطفال جديدة وشهيّة، تمنيتُ أن ألمسها ومنعتُ نفسي، مددتِ إلي"جرَبي؟". بعد كل ذلك الزمن أراها الآن حيّة؟ الأوبوا أعظم من لمستي. "لا"، قلتُها بسرعة دامغة كي لا تسألي ثانية، طلبتُ منكِ أول طلب وأنا أفكر أنه سيكون الأخير"ممكن تعزفي أنتِ؟"، أن أختم اللقاء بما لن يحدث في الحياة مطلقاً، أن تسمع أذني صوتها يرَن دون وسيط، لا شاشات ولا أسطوانات،

ثم انتبهث إلى الناس والمترو فأجهضث نفسي بنفسي، "أنا آسفة مخدتش بالي". "تعتذري ليه؟ يجرى إيه لو نعزف؟".

"لكن الدنيا برد"، أحببث أن يستمر الكلام بلا سبب، أنتِ وضعتِ الريشة بين شفتيكِ وبدأتِ العزف، بدأتِه من نقطة عالية كأنكِ تواصلين شيئاً انقطع، تسحَّب الصوث على الليل، قطعة موسيقية قلتِ لاحقاً إنها لمؤلفة يونانية اسمها إيليني كارنيديرو، أطلقت الأوبوا رنينها في الهواء على البرد كالرصاص، كانت تشرب من رئتكِ كي تُغني وقد أجهدتكِ كما رأيث، مع ذلك دبَت فيكِ الحياة حارقة وخلتني أرى وجوهاً عدة تومض وتختفي، بجسدكِ كله كُنتِ تجارينها، أحسسث أنها تتمطى فيكِ، وتأكدث أنني لم أكن لأحتملها، هذه الأوبوا. كان أجمل عرض أشهده في حياتي، العرض الوحيد، وكان من المتوقع أن تجعلنا الموسيقا فُرجة لكن هذا لم يحدث، الحقيقة التي سطعت أننا لا نعني لأحدٍ من الناس، مَنْ غيرنا، يا أروى، كان سيهتم لأمر امرأتين تجلسان في عزّ البرد والثورة تعزفُ إحداهما على آلة نفخ غير شهيرة في القاهرة كالأوبوا؟ واحدة تبتسم في خُبث أبله، والأخرى تنفخ كأنها في أوبرا برلين. تسارعت وتيرة نبضي وأنا أتأملكِ دون خجل للمرة الأولى، حررني تحوَّلكِ عني إلى العزف، كان ظهركِ مفروداً دون استناد إلى شيء، كأنكِ تمسكين الأوبوا به

ولا تُمسكينها بذراعيكِ، حسدتُ الذراعين الواثقين، رأيتُ أنهما قد نجيا مما لم أنجُ منه أنا.

لا أعرف كم مكثتِ تعزفين من الوقت، لم أعدّ عربات المترو التي وصلت وغادرت، كما كنتُ أفعل قبل أن تأتي، تُهتُ مبكراً جداً، وليلتها قبل النوم قُلتُ لنفسي، مرّة نادرة، ألا أبحث عن الوقت وأنا في الشارع. كان لا بد أن يفوتني موعد حظر التجوال، وأن أعود إلى البيت وأنا أطارد خوفي والخوف يطاردني، أن يُطلقوا عليَ النار في أي لحظة، لكن ساعتذاك كل هذا كان ساقطاً مني. "عجبك؟"، كانت عيناكِ مرتخيتين أيضاً، وفي يدكِ رعشة خفيفة، "حلو العزف؟"، "جرّبي"، "لا"، "ليه؟"، كُنتُ خائفة أن يراني أحد ويُخبِّر جدتي. "أنتِ عازفة فين؟"، "في الشوارع وفي البارات، أوقات في حفلات وأوقات هنا"، "هنا، في المترو تقصدي؟"، "يمكن"، جرّبت أن تتفرّجي على المحطة للمرة الأولى، أن ترينها كمسرح، وأنا فرحتُ أنكِ أحببتِ الاقتراح، "لكن الناس؟"، قلتُ ثم حزنتُ لأنني أفسدتُ اقتراحي.

"لا يهمك، انسي الناس إحنا نعزف علشان الناس وعلشان نفسنا هيفرحوا". " لكن الضباط والعساكر لا". "ليه لا؟". "وحظر التجوال ممكن يرموكِ في السجن؟". "بجد؟". "أنتِ مش عارفة؟". "عارفة، لكن متخافيش ممكن نجري قبل ما يقبضوا علينا". "يمكن منلحقش أنتِ تحبي السجن؟". "لا طبعاً حد يحب السجن؟". "يقولوا إن الثوار يحبّوا السجن لكن أنا جبانة".

"محدش يحبّ السجن ولا حتى الثوار متخافيش".
"فعلاً؟". "أيوة أنا متأكدة". "تعرفي حد دخل السجن؟".
"أيوة". "مين؟". "ولا يهمّك أنا معايا جواز أجنبي هنا يخافوا من الجواز الأجنبي أكتر ما يخافوا من الحرب".
لو قبضوا عليكِ الأجانب هيساعدوكِ؟". "أيوة". "لكن هيقولوا عنِك خاينة". "خُنت مين؟".

لم أعرف إجابة عن سؤالي. أمام عينيكِ المتسعتين، بدت أشياء كثيرة كنتُ أظنها عظيمة بلا أي قيمة، ضحكتْ على سذاجتي وهي تتكشّف، حتى جعلتكِ تضحكين عليَ كمان. "لكن العزف عجبكِ؟"، "قوي"، "أنتِ ليكِ أصل من الشام؟"، "ليه؟"، "من اللهجة يمكن؟"، "من عشر سنين وأنا بعيد عن هنا"، "فين؟"، "مينشن أقصد ميونيخ ألمانيا، عاشرت مغاربة وشوام، يمكن لهجتي قديمة؟"، "لا حلوة"، "فعلاً عجبتك؟"، "أيوة". اتسع فمكِ كله بالابتسام وأنا غرقتُ في خجلي، تمنيتُ أن تقولي أي شيء يُغير السيرة فاستجبتِ. "بفكّر بالعربي، وبعيش بالألماني، أوقات أتدفا بأغنية أو جوابات قديمة بالمصري"، "ورجعتِ ليه دلوقت؟". أجفلتِ وبدأتِ تُدخلين الأوبوا في حقيبتها، خِفتُ أن تذهبي الآن، أردتُ أن أستبقيكِ بأي شكل. "أقصد علشان الثورة، حظر التجوال والضرب"، كان عليَ أن أكون واضحة، " الثورة هي رجّعتني، سألوني في المطار، مقدرتش أقول لهم الثورة، قُلت لهم شغل، عندي بيت هنا، لي حبايب".

حبايب؟ صفعتني كلمة حبايب، مَنْ يجاهر بالرجوع إلى حبايبه هنا؟ رأيث مترو آتياً ومترو راحلاً في اللحظة نفسها، هزّني الهواء الثائر بينهما، وهزّكِ أيضاً، لم أعرف أحداً يُشبهكِ، ليس ممكناً تقريبكِ إلى أي صورة مألوفة، لا في الأفلام، ولا في الماضي، كل هذا كان يُخيفني وأنتِ لا تعرفين، رأيتُكِ أولاً شبه الذئاب، ثم جعلني أنفكِ الصغير المائل أفكر في النسور. تذكرتُ حكايات ماما من زمان وأردتُ أن أهرب. "بيت فين؟"، "في شارع شامبليون، بيت قديم وسط الورش، لسة بالتراب، أنا وصلت الصبح ملحقتش أنفض التراب، أنتِ عايشة في وسط البلد؟"، "لا"، "هنا عند الجامعة؟"، "لا أنا بعيد"، "بعيد فين؟".

"في الرماية تعرفيها؟"، "مساكن الضباط؟"، "أيوة". سكتِ استدرتِ عني واعتدلتِ على المقعد، كأننا لم نلتقِ، كأنني لستُ هناك، رفعتِ الأوبوا إلى فخذيكِ تهدهدينها كطفلة، وأنا خجلتُ من يُتمي، استدرتُ، أنا الأخرى، قلتُ سألغي ذكر الغريبة التي لا أعرف اسمها من يومي، كان الناس يتناقصون على رصيف المحطة، والقطارات يصبح دخولها وخروجها خفيفاً، سيعود السائقون إلى بيوتهم، لم يحدث شيء اليوم، والركاب، لن يحدث شيء غداً، أحسستُ أن الحياة تنسحب إلى السرير، وفكرتُ في كل مزايا العودة إلى البيت، الغرفة وأنا أغلقها عليّ، الغطاء وهو يحجب وجهي عن النافذة، الوسائد التي سأسد بها أذنيَ عن صوت جدتي، وطبعاً

الأحلام، حاولث أن أوقف الأفكار قبل أن تبدأ نَغْزي، ثم نهضث كي أذهب.

لو أنكِ تركتيني للذهاب، ما كان حدث كل ما حدث، لا يومها ولا في الذي تلاه من أيام. انتفض جسدكِ من مكانه، ترك الأوبوا وحيدةً على المقعد وجاء إليَ. "أنتِ رايحة دلوقت؟"، "أيوة معاد الحظر خلاص ممكن ملحقش أرجع"، "أقصد مفيش ضرورة ترجعي دلوقت". اقترب جسدكِ جداً وصار يسدَ علي الطريق، أصبحت عيناه ثابتتين عليَ، أجبرتني على الانسحاب. "أنا بيتي قريب، تقدري تستريحي لبكرة، متخافيش من التراب". ثم ضحكتِ ورفعتِ كفاً تُخبئين ضحكتكِ، كأنكِ ضحكتِ كي تؤثري فيَ. "مقدرش، جدتي في البيت، لو عرفت إني في مكان متعرفوش هتغضب"، "خلّيها تغضب، البلد كله غضبان".

لم أكن أعرف ما أفعل. "كلّميها في التليفون ممكن نخرج ندوَّر على تليفون؟".سحبت يداكِ إلى كتفيَ، لمسة خفيفة وطارت. "أنا معايا تليفون لكن مش عاوزة أكلمها خلّيني أمشي"، "انتي زعلتي طيّب اقعدي نتكلم شوية ونمشي؟". "أنا مزعلتش". أصبحتِ تلهثين، فجأة انكسرَت الجرَة وانسكبتِ. "كُنت عايشة زمان في مساكن الضباط قضيت وقت كبير لما حصلت السيرة ارتبكت". كانت رصاصتكِ الأخيرة. "أنا آسفة". "أنا مزعلتش". "مش عاوزة أفتكر الوقت هحكيلك بعدين لو حبيتي لكن أرجوكي اقعدي".

كان لازم أمشي، يا أروى، هكذا مشيث، يومها طلبتِ طلبكِ الأول "نمشي سوا لحد الخروج؟"، ومشينا صامتتين. في رأسي، كان يرن صوت عربات المترو فقط لا غير، وعدتُ لا أرى الدرج ولا المحطة الخالية من الناس. صورتكِ أنتِ بهتت كمان، حاولتُ أن أستعيد أي شيء من مشهد الدقائق الفائتة، بلا فائدة، لماذا مشيتِ معي يا أروى؟

"تحبي تشوفيني تاني؟"، لم تكن عيناكِ تتوسلان، كانتا بلون الزرع البريء الأخضر فقط، ولم يكن له مثيل حولنا في محطة المترو كلها. "طبعاً"، وابتسمتُ، ثم محوتُ الفكرة تلقائياً. أنتِ تلفتُّ حولكِ على الرصيف كأنكِ تبحثين عن شيء ما، أو أحد ما ضائع. "عندكِ تليفون؟"، كُنتِ عارفة أن الإجابة نعم، وأنا أردتُ أن أتعاطف مع حزنكِ الذي طفا فجأة، أو نعاسكِ، لم أميِّز، "أيوة، أقول لك نمرتي؟".

"طيّب استني"، فتحتِ الحقيبة السوداء، لم يكن هناك سوى قطعة القماش القَطِيفَة الحمراء التي تنظفين بها الآلة، سرقتُ نظرة منها قلتُ إنها الأخيرة. "يا ريت يكون معاكِ قلم"، "سلام". "هتعرفي ترجعي لوحدك؟". درتُ حول نفسي، تركتُكِ على هذه الحالة من النعاس، ابتسمتِ ثانية، وأنا تثاوبتُ أثناء خروجي من المحطة. لمع سؤالكِ الأخير وأنا أكتب: "أنتِ اسمكِ إيه، أنا اسمي أروى". رددتُ وراءكِ: "أروى"، "أيوة أنا أروى وأنتِ؟"، "أنا مريم"، "أنا عاوزة أعرف أنتِ مين يا مريم؟". كان

سؤالكِ واسمكِ، كانت نبرتكِ، آخر ما استعدتُ قبل أن أدخل إلى النوم، دخلته بلا أسئلة ولا هويّة، كيف سأرد على سؤالكِ وأنا لا أعرف أن أجيبُ نفسي، حاولتُ كثيراً أن أعرف، كل مرّة اقتربتُ فيها ضللتُ، لكن الله يشهد أنني قد حاولت.

أنا لم أولد هنا، لكن هناك في البعيد، لم يكن لي إخوة ولا أصحاب، كان عندي بابا وماما فقط، حين أقول لكِ هذا أزعل من روحي، لأنني أنسى العرائس الجميلة التي كانت تعيش في كارتونة لا تدخلها الشمس من أجلي، وأنا كنت أعيش في غرفة لا تدخلها الشمس من أجل لا أحد. في البداية، عاشت ماما معي، حين يكون بابا في الشغل، إلى أن يأتي بابا في الليل، ويعيش معنا حتى الصباح. لكن في يوم، بابا رجع من الشُغل وجلس معنا على الأرض. كُنا نأكل، قال لماما إنها يجب أن تتركني في البيت، وتذهب أيضاً إلى الشغل، ماما وافقت وعوضتني بأن جلست مُسندة ظهرها إلى الباب كي تحكي لي حكاية الأميرة النائمة، كانت تظن أنني سأموت من الحزن حين تتركني وحدي في البيت.

لكنها حين ذهبت فعلًا، كنتُ قد تعلمتُ من الحكاية، ليس هذا فحسب، صرتُ أؤلف الحكايات لنفسي، البيت أصبح كله لي دون شريك، أخرجتُ عرائسي من الكارتونة المعتمة، وزعتهن على أرضية الغرفة، كل عروسة في ركن، أقربهنَ إليَ، صاحبة الشعَر الذهبي الذي طالما تلطخ بلعابي، أخذتها معي إلى السطوح، فتحتُ الباب الخشبي الثقيل بلا مساعدة من أحد، صعدتُ السلم المدقوق بالمسامير إلى السماء مباشرة، صرتُ أدور حول نفسي والعروسة تدور معي، ظللتُ هكذا حتى تخدرتُ وطاحت العروسة من يدي، لم أتوقف كي أستعيدها، كانت قد ذهبت فعلاً، قلتُ طارت

علَموني أن أكتب اسمي، مريم محمد علي، على الصفحة الأولى من الكتب التعليمية المُصوَّرة، بالبنات اللاتي يُشبهنني على الكشاكيل البيضاء والورق الذي يجب أن يتسع لإجاباتي، قالوا إن عليَ أن أكتبه ثلاثياً على الأقل اسمي، وبفخر، كي يعرفني الناس، قالوا إنني أنتمي شخصياً إلى الباشا الكبير الذي أسس مصر، ثم ضحكوا، لم أكن أعرفه، لكنني ضحكتُ معهم وحلمتُ أن يكون اسمي مريم فقط.

كان بابا يحلم بعليَ، يحدِّق فيَ وأنا آكل، فيقف الطعام في حلقي، وهو يعود إلى طعامه، أحياناً تكلَم، سأل ماما مثلاً، ماذا كان سيجري في العالم لو أن مريم هي علي، ماما أيضاً تأسفت وكان لأسفها أسباب أراها في عينيها حين كان بابا يحوِّل نظره عنا إلى التلفزيون. لا أدري متى صار علي هو كل الحياة، حين أفكر الآن، أقول ولد أخي قبل أن أولد.

كُنا نشتري الأكواب البلاستيكية المرسوم عليها حرف A، ملاءات السرير، وفوط مسح الوجه، كُنتُ أختار الألوان معهما، وفي البيت، تخَوِّشها ماما، في الجزَار الثقيل الذي يحتاج شخصين على الأقل كي يخرج من عتمته، حيث الذهب والأواني والأطباق الصينيَة. يزورنا الضيوف، فتكون لهم الأشياء الجديدة، حلاوة المولود علي، وهكذا يظنون أن ماما حُبلى، فيباركون ويدعون الله، نحن من جهتنا لم نكن نصحح لهم، أنا مثلاً، كثيراً

ما ارتديتُ وسادتي على بطني، وخرجتُ أقول إنني أيضاً حامل بعلي.

هذه هي الأيام التي ضحك بابا فيها حتى صعد ضحكه إلى السطح، وضحك الضيوف، علي سيلعب ويكسر الأكواب التي يشربون فيها الآن، من أجل علي حينذاك سنشتري أكواباً جديدة، علي سيتغطى بهناء في مهده المُكلّف، وحين يبكي سيمسي حتى البكاء عذباً، بكاؤه من النوع الذي لا يُثير غضب الآباء لأنه أقرب إلى أغنية عن البكاء من البكاء، علي الشقي كان يُجيد عمل كل شيء يا أروى، كان سميراً للجميع، الضيوف الذين هم بلا أبناء، الضيوف الذين تركوا أبناءهم في البيت، وطبعاً أولئك الذين فقدوا أولادهم منذ سنوات.

نذر بابا أنه متى ولد علي، فسوف يبني له على السطح غيّة حمام، كالتي كانت له في مصر قبل السفر، لا يهم أن السطح ليس لنا، لا يهمّ أن يدخل السجن، كانت السعادة ستُنجيه من كل شر.

اسم علي بالكامل هو علي محمد علي، ابناً باراً للباشا الكبير أكثر مني، انظري كم كان اسمه موسيقياً، ثم انظري إلى نتوء اسمي أنا، مريم، هذه حقيقة، لم تحزنني لأنها كانت حقيقة، وترتب عليها أن أتعلم اسم أخي. لم يجبرني أحد يا أروى، كنتُ أعيش في حفل كبير علي هو أميره، كنتُ سعيدة بقرابتي الخاصّة بصاحب الحفل، ما ينقصني كان أن أراه فقط.

لم أحكِ لماما، ولا تحدثث عن الأمر مع بابا، تصورث أنهم يرونه، ملابسه وحديثهم الموحَّد عنه يُثبت وجوده، لهذا بالضبط تعلَمث اسمه، لعلَّ الاسم يُجسِّده. كنث أتعلَم بصعوبة، أخجل حين أقول لكِ هذا، لكنني تعبث كثيراً كي أتمكن من الإمساك بالقلم وأن أكتب، قال الأستاذ عبد الله، وهو يدّعي الهدوء بينما لحيته ثائرة على وجهه "لا أمل في مريم". قال إن ذهنها متأخر على نحو غير طبيعي، وكرر "غير طبيعي" أولاً بغضب، وثانياً وهو يُسلِّم بالأمر، وفي الثالثة وهو حزين على ماما، لأنها كادت تبكي من كلمته، هو فقط مَنْ ظن أنها ستبكي، حاول أن يجد عذراً، قال ربما هو تأخر البدايات، ثم أزاح رأسه كي لا يُصيب حُكمه أحداً.

لم يعبأ بابا، قال لماما بعد أن روَّح الأستاذ عبد الله، بالفلوس كله يتحلَ في مصر. حين أتى الغد أعطت ماما للسيِّد عبد الله مالاً أكثر، قالت له اترك الأسماء الآن، علِّمها الحساب، أريدها أن تعدَّ على أصابعها مثل كل الأطفال، قلث له علِّمني اسم ماما قبل الحساب، شرع وأنا حاولث ثم فشل كلانا، صدِّيقة كانت صعبة عليَّ، رميث القلم ودخلث إلى الحساب، فتوالت الخيبات، رجوث الأستاذ علي ألَا يخبر ماما، ستموت من القهر، هكذا ظننث أيضاً.

ظلَ السيد علي يضحك من طلبي، وصارت ترتجف لحيته مثل علم مصر على شاشة القناة الفضائية مبكراً في الصباح. قال بصوت جعله خفيضاً ما استطاع إن

الذين هم في مثل سني يقرؤون الجرائد، ثم سألني ماذا سأفعل في الجامعة؟ لم يكن عندي إجابة ولا أعرف ما هي الجامعة أصلًا، هكذا دعوث الله ألا أدخلها، ثم عدت إلى كراستي، أحاول قراءة الأرقام وتصريفها، قبل أن يقاطعني ارتفاع ضحكات السيد عبد الله، وطلب استدعائه ماما للمرَة المليون، كي يخبرها بسرّي، دفعت ماما أموالاً أكبر، كي يُعلّمني اللغة الإنكليزية.

كنتُ أختنق تحت السقف يا أروى، كل شيء يحدث في هذه الغرفة، الواجب تحلّينه وحدكِ في الليل، تسهرين على الطاولة الواطئة نفسها، على نور الإضاءة الأصفر، تبقين هكذا حتى تنتهي، ثم أنتهي مع كل أخطاء العالم، فقط كي أنتهي، أنادي على ماما "تعالي امسكي إيدي هي ترتعش"، فيرَد بابا بكلام السيّد عبد الله، مَنْ هم في مثل سنكِ يقرؤون الجرائد كل يوم في الصباح، ثم يأخذ ماما معه إلى الغرفة، ويغلقان الباب.

مرَة فتحتُ الباب في الليل، كي أقول إنني أريد أن أبقى مُتأخرة مدى الحياة، بكيتُ حتى أضاعت الدموع خط السيّد عبد الله من كراستي، سيُعاقبني غداً، كفاية، حافظتُ على هيئتي المبتلة، خيط الدم الخفيف من أنفي، وجريتُ إلى ماما في الغرفة، لم أدق الباب، دخلتُ على طول، لم يسامحني بابا على عدم دق الباب، ماما سامحتني، مع أنها اضطرت أن تُمثِّل أمام بابا دور مَنْ لن تسامح أبداً، كانت أول غضبة كبيرة لبابا على مريم، آخر غضبة له قبل أن يموت، الدليل الوحيد أنه كان

يراني، صرخ في وجهي، وطرد نومي إلى الصالة، ستنامين هناك اليوم، وما يأتي من أيام. صَعُب عليَّ غضب بابا، فقبلتُ العقاب، وظللتُ أنام في الخارج كل الأيام.

ظننتهما يلعبان، أو يُقلِّدان لعبة في التلفزيون، أنا أيضاً كنتُ أفعل ذلك أحياناً، حين فتحتُ الباب، كانت ماما مُتمددة أسفل بابا، فخذاها منفرجان، وهو منتصب بينهما، كان يتعكز بزكبتيّه على السرير، يحاول أن يدخل بين رِجليها. في التلفزيون كان الرجل يتخذ الوضع نفسه كأنه يرى بابا ويُحاكي فعله، هُناك رأيتُ بوضوح الثقب الذي يريد أن ينفذ منه، كان يُشبه وردة يا أروى، وبينما كانت المرأة تتلوى وتصرخ دون أن تبتعد، كانت أمي صامتة، وجهها ملتهب، تحاول أن تحجب الأكسجين عن رئتيها ألا تتنفس، لم أستطع رؤية حاجبيها، كأنهما سقطا في المعركة. قاطعتهما بدخولي، لكن الشريكين في التلفزيون لم ينقطعا.

قال بابا إنني لم أتربَ، قفز من فوق السرير، وأعطاني ظهره، رأيتُ مؤخرته البيضاء جداً وهو يحاول أن يرتدي ملابسه، ضمَّت ماما فخذيها بصعوبة، وسحبت اللحاف تُغطي به كامل الجسد، كانت تهرب مني، حاولت أن تُهدِّئ بابا فسألتني وهي تُخفِض صوتها: "عاوزة إيه؟"، نسيتُ عاوزة إيه، تذكرتُ أميرات ماريو، فأثرن رغبتي في البكاء واحتضانهن، هل كان هذا هو ما سيطفي نيراني زمان؟ أريدُ أن أعرف ما كان يجب أن

أفعله بالضبط ولم أستطع، تطلعث إلى التلفزيون، تابعث الألم الذي لا يجد خلاصاً حتى الآن، كانت المرأة تتأوه، تضع إصبعها بين أسنانها وتغرزه فيها، انتظرتُ أن يفور الدم، ولم يفر، بقيت تنظر إلي، ولا نظرة واحدة منحتها للرجل الذي يرتجف بين رجليها، ثم بكث وواصلت الاهتزاز من تحته، ثم نسيت أنها تبكي، ثم نسيته تماماً وحَملَقَت فيَ، ثم عادت إلى التأوه وقررت أن تتقرَب، كانت تتقرَب كأنها ستلبسني، وأنا بدأث أخاف وأدوخ، وأحلم بالجلوس على طرف السرير، فقط أحلم ولا أعرف كيف أنزع نفسي منها، كيف أنزعها مني. كان الأمر جميلاً مثل كابوس تغتصبينني فيه، كان مُخيفاً كغيابنا لو وقع. يومذاك لم أقل لأحدٍ، ولا حتى لنفسي، أنني سمعتُها، تناديني هذه المرأة، من العينين كانت تُنادي، ومن الظَفُر الملون بالأحمر، أن نداءها ظل متواصلاً في أحلامي، وفي الكوابيس، مثل جرس مدرسة عطب فأخذ يعرص هكذا إلى الأبد، وكان هذا الأبد ممتداً حتى شقتنا في شارع شامبليون، هنالك انقطع ولم أحزن عليه.

فرغ بابا من ارتداء ملابسه، من مناولة ملابس ماما، وعاد إلي، رآني وأنا سارحة في الشاشة، فصنع بإصبعه حفرة على كتفي ثم لكزني بها في اتجاه الخروج. الآن أقول لكِ كانت المرأة آسيوية يا أروى، وكانت تسكن في شريط فيديو عادي، يشبه كل شرائط الفيديو، حمله بابا ذات يوم خارجاً من بيتنا، ولم أستطع أن أنقذه، حتى

ليلتها اضطررتُ إلى توديعها في غرفة نومها، وأن أنام وحدي على أرضية الصالة.

نعم، كل هؤلاء النساء كُنّ في حياتي من قبلكِ، ربما كتمهيد أو تمرين على الصبر، لا أدري، الآن أغمض وأتذكر وأنا أيضاً جالسة على السرير مُستعدة على الدوام للنهوض، أكيد أنني كنتُ حزينة ليلتها وأنا أتحرك هكذا مدفوعة بجبروت جسد بابا. لم يُطفئ أحد التلفزيون، لم يُخفض أحدُ عذابي، ومَنْ كان سيفعل؟ لم أرَ ماما ثانية ليلتها، خفتُ أن أفكر فيها، كانت الآسيوية قد استولت على عقلي، وأضرمت فيه النار.

تحسنت بعدها أحوالي في الدرس مع السيّد عبد الله، أولاً في الصباح التالي شطبتُ كلمة محمد علي من خانة اسمي بقلم الحبر الأحمر الذي يستخدمه الأستاذ في التصحيح، ثم عثرتُ على كتاب الإجابات مُخبئاً تحت الطاولة الواطئة في الصالة، وقد صارت الآن ملكي وحدي، في أيام العزل هذه، لم تكن ماما تخرج من الغرفة، بابا فقط كان يَعبُر ويعود، يغلق الباب خلفه وهو يعرف أنني لن أجرؤ هذه المرّة على الاقتراب، لم يعد هذا يعنيني، كنتُ أضع ورقتي فوق الإجابة المغشوشة وأرسم الظلال، فأحصل على الدرجات الكاملة من السيّد عبد الله، دون أن أرمي نظرة واحدة على باب الغرفة المغلقة. أضحى الرجل جاهزاً لامتداحي حين لم يعد هناك أحد ليسمع، سأل عن ماما،

قال لي وهو يرفع صوته كي تسمع، أريد أن أبشرَّها بمريم صاحبة الأمل الكبير.

أبلغتُ بابا أن السيّد عبد الله يريد مكالمته، فخرج له بالمال، أخذ عبد الله يُقسم أنه لا يريد أية زيادة، قال إن مريم سوف تصبح طبيبة حين تدخل الجامعة، ضحك ثم سأل عن ماما، لم يرَد بابا ولم يفرح، فقط وضع في جيب قميص عبد الله المظروف، اضطر أن يضغط ثديه بيده كي يُسكِّت عبد الله الذي يُصر على رفض المال.

كان يجب أن تنام ماما على ظهرها لأسابيع، حتى يثبت علي في حياته داخل الرحم، هذا هو الزمن الذي لم يكن فيه سوى نوم ماما، الزمن الذي خِفتُ فيه أن تنساني كما خشيتُ من نسيانها. كانت تأكل وتنام وتتعب فقط، تتعب ولا تعرف أن تنظر إلي، انقطَعت عن العمل وبابا قال طيّب، يعود في العصر كي يُحضِّر لنا الطعام، ثم لا يأكل، يقوم ليُسجِّل شرائط صوت طويلة لجدتي يُرسلها في البريد ليلاً بعد مواعيد العمل، يقول لها إنه يترقب، الانتظار صعب لم يُذِقه له أحد سوى علي، ومَنْ غيره يستحق؟ كان يسألها إذا ما كان ممكناً أن يراه في المنام قبل أن يولد، كان يسكت وقتاً، وينظر إلى الكاسيت. ربَما ترَد جدتي، ثم يتكلم حين لا ترَد. ماما لم تكن تسمع كل هذا أو تراه، قلقتُ ألا تعود أبداً، وقلقتُ أن تعود مع علي، علي سيعود بها، وأنا مع السيّد عبد الله، في ساعات الغيبوبة لم أكن أفكر في سواها، أسئلة كثيرة لم يكن لها إجابات أغشها، هل ستقول ماما

لعلي حين يصل، شُفتك في المنام قبل الميلاد كما قالت لي؟

في ليلة، نهضتُ من النوم على نداء بابا، لم أكن قد استيقظت بعد، دخلتُ إلى الغرفة، وقد كانا على السرير، ماما رِجلاها مفتوحتان، وهو جالس بينهما، كان يحاول أن يسدَّ بيديه الدم الفائر من الثقب القديم، ظلّ يبكي وهو يضغط وماما تجاهد كي لا تغيب، لم أكن أعرف قبل هذه الليلة أن بابا يستطيع أن يبكي، أمرني أن ألبس بسرعة، هرولنا إلى المستشفى في آخر الشارع، كنا نلوِّن بالأحمر كل أرضٍ ضربنا عليها من باب البيت حتى السرير المعدني المرتفع، الأسفلت الأسود، والأبواب، والحيطان التي استندت عليها ماما في الطريق الذي بدا ألا آخر له، تكرر المشهد يوم رأيتُ ذبائح العيد مُشردة في شوارع القاهرة، كم كُنّ يُشبهنّ ماما ليلتها، بتُّ في غرفة الممرضات، بسقفها البعيد، ولمباتها النيون الحارقة لعيون المواليد، ذكرَتني بماضٍ سرعان ما نسيتُه في حضن الممرضة الهنديّة الشابّة حين نوَّمتني في فراشها محاطة بذراعيها. لم أحلم بكل الذي حدث، لم أحلم بشيء، كان علي قد مات.

تسع سنين وأنت بعيد يا محمد. أبوك كفَّ بصره في البُكا عليك. ولا شافك. ولا شُفنا علي. مات علي. نقول أمر الله يموت علي. صدّيقة خلاص. لا عندها حيلة ولا قوة. كفاية عليها مريم. تعالى أنت يا محمد. تعالى وكفاية غُربة. تعيش هناك ليه؟

تجمع في فلوس ووَلدك يموت في بطن أمه؟ وأبوك يقول أمر الله ويبكي. تعالى وتزوج ست ست صدِّيقة. وصدِّيقة نخليها تراعي مريم ويبقى كتَر خيرك. في شرع الله أنت لك أربعة. واحدة منهم أكيد تحبل في علي. أبوك كفَ بصره يا محمد. كفَ بجد. انهاردة العصر كان البيت منوّر وهو مش لاقي دواه. الدوا كان قدامه. ناولته له وبكيت. وهو لسَة يبكي عليك. ويقول لي محمد ضلَ. حتى **القرآن**. اصبح يسمعه في الراديو. كأنه ينوَح. ويقول قلبي حاسس محمد ضلَ. يسمع سورة يوسف. وحزنه ربنا عارفه. ولا يهدا. يبكي والحسرة تأكل قلبه. أبوك عايش في جنازتك يا محمد. تعالى وكفاية غُربة. انَس علي يا محمد. تعالى في إيدك مريم بس. سلام يا محمد. سلام.

مكثت ماما لأسابيع في المستشفى، لا تُشفى حتى يعود إليها النزيف، على الأقل عادت لرؤيتي، راحت تشكو لي أن الإبر بَهْدَلَت بشرتها، أرتني تورم يديها من المحاليل التعويضية والمُسكنات، ومخثرات الدم، كل ما قالته الممرضات وحفظته، شحب وجه ماما ولم يعد لأي شيء أن يُغضبها، لا لعبي ولا صمتي، ولا عبثي بالأدوية، صارت تناديني كثيراً، تضغط يدي حتى تؤلمني ثم تدخل إلى البكاء، قدام بابا كانت تفعل وقدام الممرضات، كنتُ أقبِّل يدها أمامهم أيضاً، وأدخل معها إلى فجيعتها، مريم كانت أُنسها الوحيد آنذاك، أعود إلى

البيت ليلاً وقد تورَم وجهي من النحيب المستمر والنهنهة، فأقول مثل يد ماما، وأحب وجهي الأزرق، في البيت واصلث حراسة حزن ماما بإخلاص، دعوث الله أن تخفً من الدم، أن تعود إلي سالمة.

هذه أجمل ماما حظيث بها على الإطلاق، ردَتني إلى أيامنا الأولى معاً، ابتسامتها المُشفِقة والممرضات يُقدمنني إليها بعد الميلاد، قلث إنني لن أحب أحداً كما أحبها، حتى نفسي، في تلك الأيام، روت لي حكاية الدعوة والنذر لمريم، الكرسي في الغرفة الفارغة، وأول بوسة على رقبتي وأنا نائمة لا أعرف ما هو العالم، قالت عن رائحتي، فحاولت أيضاً أن أصف رائحتها، أجمل ريح في العالم يا ماما، مع المرض والعرق وسرير المستشفى المعدني، كان يمكن أن أقبض على الرائحة بيدي، مثل مَنْ يقبض على الطير. "أنتِ كمان كنتِ شبه الطير يا مريم، قلث لنفسي لما شُفتك يا صدًيقة ربنا رزقك طير قلبي يوشوشني إنك زي العصافير، سامحيني يا روحي". كيف كنت سأسامحك يا ماما وأنا أبداً لم أزعل منك خصوصاً في أيام المستشفى، وأنتِ بلا حول ولا قوة؟ أنا الأمل الوحيد، أيام حكاياتنا وإعاداتها ألف مرَة، سرَنا الذي لم يطَلع عليه أحد.

سوى أروى الآن، لم يطَلع عليه أحد. لساعات بقيث واقفة أتأمل ماما في نومتها، أتسكع على سطح مسامات المكشوف من جسدها، وأحلم بتقبيل كل نقطة ونقطة فيها، على ورق الإجابات في الكشاكيل، رسمث

شجرة تفرد أغصانها كي تحمل شجرة أصغر، وطبعا نسيث بابا على الباب، باب المستشفى، وباب البيت، في عمله، كنت أتخيّله واقفاً أيضاً على الباب، كأنه ينتظر خبراً يُفرِحه ويرد إليه بصره، لم يبكِ بابا منذ ليلة النزيف، كان يرى الناس، ولا يرانا، أحسستُ أنني بالذات لم يكن يريد أن يراني.

هكذا كنث أجري منه، وأتعلق بالشجرة أكثر، لكنه لم يفعل أي شيء، لم يطاردني، لم يلمْني، كان يسير بي آخر الليل عائدين إلى البيت دون كلمة واحدة، يصرُّ أن يقبض على يدي كي لا أضيع منه في الشارع، يضغطها ضغطات خفيفة وحين أتطلعُ إليه لا ينظر إليّ، لم أكن أنس بابا ولا أمله ولم أنتظر، استغربث أنه لم يتخلَ عن يدي قط، كان عليه أن يتخلى.

خرج بابا من غرفتنا في المستشفى ذات يوم، ولم يعد. في الصباح التالي، جاء السيد عبد الله، طرق بابنا ثم دخل، ابتسم حين رأى ماما، وأخذت ابتسامته تتسع حتى حسبته سيضمها، أعني ماما وتحسبتُ، قال إنه بحث عنا في كل الطوابق، الكذّاب لم يبحث سوى عن ماما، بابا مريض، وسيحلّ السيّد عبد الله محله، لا أدري كم دفع بابا مقابل هذا الدور، أنا لم أقبله حتى على مضض. أبعدني وجلس مكاني، صار يؤكّل ماما، قال للممرضات إنه أخوها ولم يتحقق أحد، يُسقيها الماء في فمها، ويبتسم لها كما كانت تبتسم لي قبل أن يظهر هو في صورتنا، ثم أهملتني ماما، وبدأت التعافي، كم مرّة

خانتني ماما يا أروى! لا أستطيع أن أعدّ، غدتُ إلى غرفة الممرضات، صادقتُ الشابة الهندية التي لم تكن تفهمني، لكنها تقول لي بعد أن تُقبِّلني "ماما هتكون كويس"، وتضحك، أردتُ أن أنسى ماما معها، لكن هذا لم يدم، في يوم، أتى بابا وصحبنا إلى البيت، حين أقول صحبنا أعني، أنا وهو وماما والسيّد عبد الله الذي ظلّ يبتسم لماما ويرتبك من ابتسامتها ونحن نصعد الدرج إلى غرفة النوم، كان يحمل حقيبتها بحرص في الطريق كأن الحقيبة هي ابنته منها.

ارتاحت ماما على السرير وجلس بابا بقربها، بينما انتظرنا عبد الله خارج الغرفة، حمداً لله لم يكن مسموحاً له أكثر. لمّا كان على بابا أن يقول شيئاً، أي شيء قبل الذهاب، فقد رماها: "حمد الله على السلامة"، دون أن ينظر، "إحنا لما تقومي بالسلامة هنرجع مصر"، ثم نهض قاصداً السيّد عبد الله وأنا على أثره، حاول أن يضع له المال في جيب القميص كالعادة، لكن عبد الله رفض هذه المرَة، أصرَ ألّا يتقاضى ريالاً واحداً، أردتُ أن أحرقه كما يحرقون الخبز في الأفران يا أروى، ثم ملَّ بابا من المحاولة فودَعه، ثم أخذ الكاسيت على رأسه، سيُسجِّل لستِّي، سحبتُ المال بسرعة من فوق الطاولة، هرولتُ خلف السيّد عبد الله على الدرج، مثَلتُ أنني أريد أن أشكره، ووضعتُ المال في جيب بنطاله الخلفي، دون أن يدري.

نعم، كانت يدي خفيفة جداً، طالما سرقتُ لعب الأطفال الصغيرة التي لم يشترها لي أبواي. أنا آسفة يا أروى، كانت مريم لصة في زمن ما. وأقفلتُ عائدة، صعدتُ الدرج الذي هبطته وأنا أنهج غاضبةً، دفعتُ الباب وصرختُ في بابا: "أنا بكرهه عبد الله ده معادش يعلمني تاني وإلا والله أموّت نفسي زي ما عمل علي"، لم يرد بابا. ظهر صوتي في شريط الكاسيت، وقف هناك وحيداً يحارب نفسه، ويتكرر إلى الأبد.

حين أفكر في كل هذا، أقول كان طبيعياً أن تقف الأوبوا في نهاية الطريق، نائحة تحملُ الشكوى عني وتُصدرها، قبلكِ لم أشته في حياتي كما اشتهيتُ الأوبوا، لم تتنغص علاقتنا كما حدث مع ماما، ظلَّ ما بيننا صافياً، لأنه لم يُمسَّ لم يُختبَر، حين التقينا، أنا وأنتِ، وحدستُ أنها الأوبوا، تلك التي في يدكِ، قررتُ أن أبتعد، لم أضع ريشتها على شفتي في قسم وحيد سأفي به، كيف وصلتُ إلى الأوبوا يا أروى؟ سأقول لكِ، كان هناك أمام بيتنا حديقة، يصغرُ حجمها كلما كبرتُ، لها أربعة أضلع، في كل ضلع بوابة، عندما عرفتُ القليل عن الهندسة كان بفضل رغبتي في تسميتها، أسميتُها الحديقة المستطيلة، تصبح خضراء لشهر واحد فقط في العام، صفراء وذابلة معظم العام، ليس هناك أحد يهتمُ بها، لا يُشذَّب الشجر، ولا يُمسَح غبار الصيف الثقيل عن الأغصان التي تميل وتقع على الأرض، فتذرها الريح الخفيفة في اليوم التالي، وتروح هكذا بلا دفن، حتى المطر كانت تراه مرّات قليلة في الدهر حين يحنُّ ويجيء، لم تكن الحديقة المستطيلة تعني شيئاً لأحد، سوى أطفال الهنود والبنغلاديش، الذين لا يملكون دفع انتقالات الذهاب إلى حديقة كبيرة وسط المدينة، وطبعاً كانت تعني لي.

أصعد إلى الزحليقة، وأرمي جسدي على جسدها المائل كثعبان، فأنزل إليهما، بابا وماما الواقفين بلا انتباه يحسبون مصاريف السفر والإياب والعودة. بضعة

صغار يصعدون معي، ويتزحلقون، الحوار بيننا ابتسامات وتنظيم أدوار بلا صراع، عن طريق الإشارات والإيماءات التي استخدمها الإنسان الأول قبل اختراع اللغة. كنث أتكلم لغة واحدة بالكاد، وهم لا يعرفونها، هكذا لم أتبادل أي كلمة معهم، مازلث أسمع أصواتهم تعلو على شجار بابا وماما على وعده أن يتزوج بأخرى، على قرار ماما هجر البيت هرباً مني ومنه. كانت السماء تتسع لأذرعنا الصغيرة في كل الأيام سوى أيام المطر، حين نهرول جميعاً واضعين أكفُنا على رؤوسنا، نترك الحديقة وحدها، حالمين بلحظة العودة مرة أخرى إلى الزحليقة.

مرَة انزلقث من فوق مُغمضة، فوصلث إلى صورة عازفة الأوبوا، انفتحَث عيناي، وكانت البداية.

شُفتها في الأيام الثلاثة التي قضيتها وحدي قبل أن يكتشف الناس أن للميتين ابنة محبوسة في بيت بلا مفتاح، شُفتها بالصدفة والمحطات الفضائية تقفز وراء بعضها بعضاً كي ثمرر لي الوقت، لم أكن خائفة غير ما ظنَّ المُنقِذون، لأنها ظهرت في اليوم الأول، وصحبتني في المدة المُتبقية، كانت أقوى من الآسيوية، ومن أميرات ماريو، كانت أجمل من ماما ومن كل النساء، كانت أنتِ، مبكرة جداً يا أروى، في البداية، كان العزف يصدرُ عن مجموعة البشر الذين يرتدون اللون الأسود، يحملون آلاتهم الموسيقية، ويجلسون في ترتيبٍ سماوي، لا يحفلون بحروب العالم ولا حوادث السير فيه، هُم هناك في مكان واسع لم أدخله قط، لن أدخله أبداً، أنتِ منه وهذا يكفيني، واحدة من بين كثيرات وكثيرين يعزفون في الدنيا، لا أدري لمَ جذبتني هي بالذات، حين استتبَت المحطة على الصورة، كان الآخرون قد سكتوا وأداروا وجوههم إليها، هذا المايسترو المجنون، أنا أيضاً انتبهت إلى ابتسامته، وإشارته ببدء العزف لها، وَضعت الريشة بين شفتيها، أغمضت ونسَت السيارة المقلوبة في عرض الطريق، نفخت وواصلت النفخ، ولم أكن أعرف شيئاً عن العزف أو السيمفونيات، ولا أستطيع الآن أن أدندن لكِ ما كانت تعزفه، ما ظلّت تعزفه في قلبي، أستطيع فقط أن أقول إن الصورة قد عادت إلى الوراء حتى ظننتُها ستخبطني، وأنا هكذا جالسة على الأرض بلا حول ولا قوة، كان

كاملُ الجسد في عيني، كل ارتعاشة تفتنني، كل آهة كتمها عازف قريب ينظر إليها ويود ألا ينسى آلته، كان مثلي يعرف أن النظر إليها يمحو النَفس فلم يُحب أن يقاوم، بيضاء كالحليب، في جسد مربوط حول نفسه بفستان أسود صافٍ، الأنبوب المُعلّق بشفتيها ينقل النغم، ليست عازفة أوبوا، بل كانت هي والأوبوا جسداً واحداً، يسمونها هكذا لأنهم لا يجدون اسماً آخر غير عازفة الأوبوا، فستانها الأسود جعل من ألم البياض ألمين، ورأس بالشعر البُني القصير، كانت ترمي نفسها هنا وهناك دون أن تتخلى عن الصوت، ولا أن ترى لتتلقى الأمر بالعزف، خَرجَت عن النص، عن المال عن القصور عن البيت وعن حلم العودة، حاولوا أن يوقفوها كي يقولوا ما أتوا ليقولوه، حرّكوا النظرات بينها وبين القائد، لكنهم لم يتعنتوا، تركوها على هواها، رأيت الصورة ترتبك وتتعثر، سقطت الكاميرا على الأرض أكثر من مرّة، ولم تتوقف عازفتي، ولا رفعت فمها والأنف الذي يميل قليلاً إلى أحد الجانبين عن الريشة، ثم نهضت مع الأوبوا، كأنها توجه العزف كله إلى السماء، كأنها تشتكي إلى الله من الجميع، بمَنْ في ذلك الناس الذين يسمعون بصمت، لا أذكر قصّة الشكوى، ولا تتمتها، أذكر تصفيق الجميع انتقاماً منها حين صمتت، تصفيقي وأنا على الأرض أمام التلفزيون، وحين آلمتني يداي من حرارة الضرب، وأبوي دعوث الله بحرارة ألا يعودا، أن أدخل إليها كانت إرادتي الوحيدة، أن أقبّل هذه الآلة

وأعرف أن اسمها الأوبوا، كي يتقدس اسمها، ومن بعد اسمكِ في روحي.

ثم استجاب الله لدعوتي، ولم يعد أبواي، وكما يحدث كل مرَة، ندمتُ على الدعوة، وافتقدتُهما. أدرتُ قرص التليفون بحثاً عن بابا في الشغل، من مكتبه كانوا ينقلون الأسئلة إلى مكاتب زملائه، ولم يعثر أحد، ولم يفزع مثلي أحد. في الليلة الأولى، أحسستُ أن شيئاً غير سارَ قد وقع ولن يكون سهلاً أن يمرَ، بثُ على سريرهما، أحس بالخزي يدخل ويخرج في جسدي قبل أن يرميني إلى الأوبوا، أردتُ أولاً أن أكونها هذه العازفة، وكلما تقدَم الليل بلا تفسير، كنتُ أحبها أن تكون لي، أن تنام معي على السرير وأنا وحدي في البيت. في الصباح التالي، قلتُ إن الأيام المقبلة ستمضي أيضاً دونهما، فارتفع سقف أحلامي، أن تقع العازفة في غرامي كما وقعتُ في غرامها، وأخذتُ مثل المجانين أدوِّر المحطات الفضائية كي أراها، على الوضع نفسه، في حفل آخر، أو في البيت، أو نائمة، وهي حيَة تتمرن على الأوبوا، وحشتني، وكانت الوحشة تزيد. كلمتُ السيد عبد الله، رويتُ له عن غيابهما، فقال إنه سيتصرَف، سألني عن الأكل والماء والعصير، ثم طلب مني ألا أقاطع الهاتف أبداً.

غاب ساعات مباركة ظهرت أثناءها للمرة الأولى ما سميته فقاعاتي الملونة، كرات هطلت عليَ من السقف بلا أي أثر جانبي ملموس، كنتُ في الرؤية وفي غياب

الرؤية أراها، أعابثها بيديَ كالمهرجين فتراوغني وتدفعني إلى الضحك، في غيابهما تسليْت بها عنهما مع العازفة، وجدث أن العالم يهبني نفسه ببذخ، كأنه يعوضني عما أخاف دائماً السؤال عنه، كنث أتمثلها في كل بقعة من بيتنا، احتملت قلقي الليليَ لأن أحداً تأخر، وعزفث على الأوبوا، نفخث بنغمات سالت على لساني وعلى كفي وعلى ثيابي، امتننث إلى الله، لأن تلك كانت إشارة على حلولها فيَ، ورَنَّ الهاتف يا أروى، فقلث "آلو"، وجاء صوت السيّد عبد الله: "عندك مفتاح للباب؟"، ولما أجبث نافية، غضب للمرة الأولى عليهما: "إزاي يسيبوكي من غير مفتاح، ولو قام حريق في البيت"، اقترح أن يكسر الباب فضحكث شمانة: "انت نسيت إن الباب حديد؟".

بحث الجميع عنهما، زملاء بابا في العمل والمُديرون وحتى الكفيل، استمر البحث يومين، تدخلت الشرطة خلالهما وجاءت إلى البيت، كلموني من وراء الباب، سيصهرون هذا الحديد، رفضث وقلث إنني بنت وإنني وحدي في البيت ولا أقبل، كنث خائفة من صوت الآلات وقد تخيّلث أنه لن يُحتمل، كما أنني لا أعرف إلى أين سأذهب بعد أن يُفتح الباب، أريد أن أعيش كأنني بخير، وكان عندي الصبر والتعزية، لم تهجرني العازفة لحظة واحدة، صارت تلعب معي بالفقاعات وقد أعانتنا على العزف، استمعت الشرطة لكلامي، ذهبوا وتركوا حارساً على الباب سيمكث حتى لحظة العثور عليهما، ثم تلَقوا

الخبر، وأودعوا الجثتين في مستشفى اليمامة، كما تذكرين، المستشفى التي ولدتُ فيها.

ماما ماتت.

أبلغني السيد عبد الله الخبر وهو يخبط رأسه في الحائط المقابل للباب، تقيأ على الدرج الذي ظل يتسلقه هبوطاً وصعوداً حيرانَ ماذا يفعل غير أن يبكي وينتحب. كل هذا رأيته بأذني وأنا محبوسة، كان حزيناً لا يفكر في تبرير الحزن، وكنت أعرف التبرير، مثل الكاميرا يوم الحفل، سرتُ في البيت أتعثَر بخطوتي وعلى وجهي، وأكثر من مرة سقطتُ. بعد كل الفرح، اختفت الفقاعات وتبخرت العازفة، شعرت أنني أختنق تحت السقف المنخفض، واللمبة الصفراء، وبدأتُ أصرخ وأضرب على الباب، عاوزة أتنفس، لم أصدق أن ماما قد رحلت نهائياً يا أروى.

نمتُ لأيام، ثم عاد بياض المستشفيات يحرق عينيَ، تنغص قلبي كل مرَة استيقظتُ فيها ولم أجدها بجواري، لم أجد أحداً سوى الممرضات اللواتي ينظرن إليَ بشفقة تجعلهن يمررن الإبر إلى ذراعي متخففين حتى من الأنامل، بكيتُ وأنا لا أعرف مع مَنْ سأذهب، وجاء السيد عبد الله، وأخذ يدي وقبَّلها، لأنني الرائحة الوحيدة المتبقية من ماما العزيزة، وقلتُ له: "متنسهاش أبداً"، دون أن أحضِّر الكلمة، فهَوَى رأسي من الحزن. كانت لحيته تهتز أمامي كورقة ضعيفة ضد هواء السطح، ثم حكى لي كيف وجدوا مفتاح الباب في

جيب بابا، وكيف كان قابضاً عليه في موته، كأنه يرشد عن مكاني لمَنْ سيعاين جثته. "بابا بيحبك قوي، يا مريم". كان ذلك هو رأي السيد عبد الله في غريمه، يا أروى.

كان يُمكن أن أذهب إلى المشرحة، أن أراهما للمرة الأخيرة، لكنني خِفتُ وخاف عبد الله عليَّ، اكتفينا بالجلوس على مقاعد العجز في الممر الأبيض وهو غششني ما سيحدث في المستقبل، قال إنه لن يتركني قبل أن أصل إلى مصر، وتتسلمني جدتي، قبل أن أغادر سيصرفون لي مبلغ الديّة وسيكون كبيراً حتى أنني لن أحتاج إلى إحسانٍ من أحد طوال حياتي. كانا يحلمان بهذه الفلوس يا أروى. سيزورانكِ في المنام خصوصاً ماما، كلما احتجتِ إليها، سيحبكِ الجميع في مصر، فأنتِ كل ما تبقى من أثرهما.

في المدرسة، تعلَمي جيداً، لا تنجحي بالغش، تذكَري أنكِ أيضاً ستموتين يوماً ما، هناك في العالم الآخر سوف تلتقينهما ثانية. "وأنتَ ألن تروَح معي إلى مصر يا عبد الله؟". "أنا لم تَحِنْ ساعتي بعدُ، خذي بالك من نفسك إلى أن يصل الحُب، فيأخذ باله منكِ، استني في الطيارة فوق السحاب، اطلبي من الله الحُب وسيُجيب". "أريد أن أبيت ليلة أخيرة في البيت؟"، "لن ينفع. ستُقلقين الأموات في موتهما. يلَا الطيَارة في انتظاركِ، وأنا سأتكفَل بكل شيء، يلَا لا تتأخري".

كنتُ خائفة من لحظة الإقلاع لكنني على عكس الأطفال من حولي أظهرتُ شجاعة نادرة ولم أبكِ، شربتُ عصيراً ونمتُ، أفقتُ على منظر السُحب المُبهر يسبح فيها جسدُ سفينة عملاقة بجناحين، واسمها طيّارة. صرختُ مع الصغار في المطبات الهوائية، وصفقتُ مع المُصفقين حين وطأنا الأرض، أرض مصر أخيراً، بلد محمد علي وبلدي، جاءت العائلة من الصعيد، وقفوا في استقبالي، وكانوا يرتدون الأسود كعلامة على الحداد الجديد، مظهر قرابتي بهم، دون أن يحملوا آلاتٍ موسيقية. ناحت النساء وبكى الرجال وهُم يتسلمون حقيبتي مني، ضمَتني جدتي، كانت تُشبه بابا بجرعات أكبر من البياض، ضمَتني وقالت يا ناري يا محمد، ثم خرجنا ورأيتُ السماء، فقلتُ هنا يجب أن أموت وأدفن، هذا هو العالم الجديد يا أروى، لم يكن فيه ما يُذكّرني بالقديم. الآن أقول ساعدني على النسيان، سوى الكوابيس وأشباحها أيام، سوى المرض وساعات منازعة الروح أيام، نسيتُهما فعلاً، هذا كل ما أتذكره منهما يا أروى، كل ما أتذكره عن نفسي، فهل تعرفين يا روحي، مَنْ أنا الآن؟

## الفصل الثاني

لم يكن عندي وقت كي أخاف من النبوءة، لَوَّحَت أروى قبل أن أعود إلى نفسي، فذهبتُ إليها على طول. كانت المرَة الأولى عند دار القضاء العالي، كلَمتني في ظهيرة يومٍ عادي ككل الأيام، أضاء هاتفي برقمٍ أوروبي غريب، لا شك أتى مُخطئاً، ستمضي دقائق في الاعتذار والتبرير، كنتُ في حاجة إلى أن تمضي، قلتُ "آلو"، فقالت واحدة أليف صوتها مرَة: "أنا أروى يا مريم آلو". أنت لا بد تذكر هذا معي، تذكر ريقي الذي بلعته فضلَ وكدتُ أموت. "أيوة أيوة"، يا مريم أنا عاوزة أقابلك، وكررتُها "أيوة" دون غيرها، وافقت مُبكراً على كل شيء، موافقة غير مشروطة بمكان ولا بتورة، ذهبتُ أُحضِّر نفسي منذ ساعة الظهيرة حتى المساء، ألفُّ أمام المرآة أتدرب على مداراة ابتسامتي، وأحاول تذكر ملامحها يوم المترو.

وحدك رأيتَ لهاثي المضطرب وأنا أركب العربة إلى ميدان عبد المنعم رياض، نبضي الذي ظلَّ يروح ويجيء مثل الساعة الكبيرة في الصالة وهي ترن مخبولة كلما فاتت ساعة، ماذا كنت أنتظر بالضبط من أروى؟ لا أدري، هبطتُ بين الناس، قلتُ حتى لو أخلَفَت موعدها، كان وعدها باللقاء سيكفيني، تعثرتُ في خطوتي وأنا أدور من رصيف إلى رصيف حتى أدخل شارع شامبليون، ويضطرب قلبي ثانية لأنها قالت إن

بيتها فيه لو أنني لم أنسَ، سرتُ بين بشر مساكين يخافون من لحظة تغدرُ بهم، إطلاق رصاص أو قبض عشوائي أو حتى متظاهرون هاربون يمكن أن يُسقطوهم على الأرض دون قصد، سرتُ هكذا ولم أتلفت، حاذيتُ المحلات المغلقة ويافطاتها الباهتة، صعدتُ وهبطتُ فوق قطع الحجر التي يستخدمها أحدٌ ما في شيء لا أعرفه، أخذتُ ألتقط الصور بعيني، وأدوِّن في رأسي كي لا أنسى أبداً، هكذا كان شامبليون يومها.

مددتُ يدي وأنا على بُعد خطوات منها، كانت تقف جوار عمود الإنارة الذي لم يستيقظ بعدُ، تنظر في اتجاه الشارع الآخر من حيث لا أجيء، كأنها لا تنتظرني. لما اقتربتُ، قلتُ بصوت جعلته مرتفعاً ما استطعت: "مساء الخير إزيك؟"، فاستدارت لي واتسعت ابتسامتها، بدت غريبة حتى عن لقاء المترو، تُشبِّك يديها حول صدرها، كأنها تُخبئ شيئاً ما، وكانت ترتدي الأسود كاملاً: قميصاً وبنطالاً وسابوه في قدميها مع أننا في عز البرد، ما جعلني أجفل ولا أفهم لمَ، كانت أروى أخرى كتفاها بارزان أكثر من عازفة، ربما كلاعبة تنس أو سكواش، هي طالما تبدلَت من الواقع إلى الخيال، ومن الواقع إلى الواقع. يبقى شيء ويطير شيء، قالت لي: "أهلاً مريم خفت أن تتأخري". "لا أنا وعدتك". "تصورت أنك لسه زعلانة".

ثم ضَحِكَتْ واضعةً كفَّها على فمها.

ساعتها أحسستُ أنّ كل هذا ابن رأسي، ألا شيء يحدث منه على الأرض، أخَذَت يدي من جانبي واستدارت بي داخل شارع شامبليون، لم أستطع أن أقبض على يدها كما تمنيتُ ولم أستردَ كفَي، فقط أحببتُ انقيادي خلفها إلى حيث أحدس ولا أعلم. "تحبِّي نوصل بيتي في شارع شامليون أم نلاقي مكان قريب؟". "أنا زهقانة من البيوت، لكن فين الأوبوا؟"، كانت تنظر إلي وتجعلني أنظر إليها وهي تتكلم، تتفادى العثرات بي، النقرات في الأسفلت، والموتوسيكلات القليلة التي تظهر من العدم وتمرَ فجأة كأن مَنْ يقودها أشباح الذين ماتوا هناك. أنتَ تعرف أنها كانت تضعني في الطرف الداخلي من الشارع، وأنها أبداً لم تضغط يدي. "كل شيء حدث بسرعة، أخذتُ قرار الزيارة في ساعات ونفَذتُه في ساعات". "تقصدي زيارة لمصر؟"، "أيوة أنا عندي الجنسيَة الألمانية تخلَيت عن المصرية". لم تحب أن تنظر إلي، ركَزت عينيها بين الحفرات على الأرض وآخر الشارع المظلم، كانت تشعر بالعار، تمنيتُ أن أمسكها من يدها الأخرى الحُرَة.

"فيه فرق؟". "الحقيقة أن كل شيء له فرق. تحبِّي ندور في الشوارع بدل البيوت والقهاوي؟". "ممكن". كنتُ أعرف أنني سأتعب بسرعة بسبب البرد، وكنتُ أخفي صدري أيضاً بجناحي السترة التي صغرت كثيراً عليَ. "لكن بلاش قرب المظاهرات". "مظاهرات بس؟ هناك الناس بتموت"، تصوَرت أنها تتحدث عن ميونيخ،

لكن هزّة رأسها سارت ناحية تمثال طلعت حرب، وفهمتُ أنها تقصد عند الجامعة الأمريكية.

ورش ميكانيكا معدودة في الشارع كانت تفتحُ أبوابها، أبواب مُشرعة لكنها جاهزة للإغلاق في أي وقت، كان الليل قد استكان في الدنيا الآن. "انتِ بتيجي هنا كتير؟"، "وسط البلد أيوة لكن شامبليون لا". "تحبّي ناكل كشري في أبو طارق؟". لم أستطع أن أمسك عن الضحك على الألمانية التي تأكل الكشري، وبقيتُ أضحك وهي تتعجب مني وتطيل النظر إلي دون أن تسألني عن سبب ضحكي، ثم لمعت عيناها ورفعت حاجبها كأنها تقول لي: إلى متى؟ خجلتُ من اللمعة، وتقدمتُ إلى هناك تلقائياً، كان المحل مُظلماً والنور الوحيد بسيط وساكن في الداخل.

"تعرفي إيه حصل وانتي تُكلميني في التليفون؟"، "إيه؟"، "كنت قاعدة على الأرض، أتفرج على التلفزيون مع جدي، جدي كفَّ بصره من زمان، لكنه قال إنه شاف البنت كما نحن شفنا البنت". "وكان يشوف أي بنت جدّك؟"، تركنا أبو طارق وواصلنا التقدم في الظلام. "البنت مَنْ عزُوها". "أنا سمعت عن الموضوع". "كويس". تجمدنا كي تمر السيارة الكبيرة. "إيه كويس؟"، "أقصد كويس أنك لم تشوفي". لم تكن تعنيها الإجابة الأخيرة. "عارفة فَكَّرت إزاي لما سمعت عن البنت، فكّرت أروح أعزف عريانة قدام عربيات الأمن المركزي".

سارت هذه المرّة دون التفات، سبقتني بخطوة وأنا تباطأتُ كي تنتبه، فعادت وأخذتني دون أن تنظر إلي، كنتُ في اليسار فلَفت رأسها إلى اليمين، وقالت: "أنا حِملي تقيل عليكِ يا مريم". فاجأني هذا الدخول السريع إلى الحكاية، هذا الإعلان عن الدخول في الحكاية، كنتُ أحب البدايات منذ أيام رحم ماما، ظننتُ أني لن أحب سواها، لكنني أحببت أيضاً التصريح، كان أول مُتعتي، ثم عدتُ إلى تأمل العبارة: "حِمل تقيل على مين؟". كانت أروى موتورة من شيء ما، شيء لم أعرفه بعد. "هنا بيتي"، وشَوَّرَت على مبني في آخر الناصية التي فيها مقهى التكعيبة كما غشَشتني لاحقاً، "في الدور الرابع، البناية القديمة قوي، لو أحببتِ في يوم تزوريني".

ثم قَررَتْ أن تُعيدني إلى ميدان عبد المنعم رياض دون كلمة واحدة. أوصلك حتى موقف الميكروباصات؟. وأنا اعترضتُ بعد أن نبت لي صوت مُجدداً أنني لا أريد أن أمشي. تواجهنا في الحاجز الأمني قبل العبور، عادت ابتسامتها، ابتعدت عني كي تُخبئها، كأن كل هذا التعذيب لم يحدث.

"مريم أنتِ عندك كم سنة؟"، "أربع وعشرين ربيعاً، أربع وعشرين صيفاً، أربع وعشرين خريفاً، أربع وعشرين شتاء". "أنتِ شاعرة كمان؟"، وعادت اليد من جديد تُخبئ الفم. "أنا عندي أربع وثلاثين خريفاً، أربع وثلاثين شتاء، أربع وثلاثين صيفاً، أنتِ تشبهي حبايبي، تشبهي

الريحة والضحكة، لكن أنتِ صغيرة". وتجرأتُ وصحتُ أنني أريد أن أسمع عن هؤلاء الحبايب، وأنني لا أريد أن أرجع، خطفتُ يدها ومشيتُ أجرُّها ناحية شارع شامبليون مرّة أخرى. "أنتِ هترجعي معايا وأنا مش همشي". تركتني أروى أسحبها، طفر امتنانها من العينين ومن الأسنان الصغيرة المتراصة في صفار، كأنها من البداية لم تُحب مني سوى هذا.

"انتِ عارفة جهنم يا مريم؟"، بلعت مريم ريقها، كنتُ سأقول إنني لا أحب هذه السيرة. "نعم يا أروى أعرفها". "ما هي جهنم يا مريم؟". لم أفكر، قُلت جهنم هي عكس الزمن الحالي. كأن الملاك قد هبط على رأسي وغششني كي أنجح في الامتحان. "طيّب يا مريوم أنا جهنم وجهنم فُرن وبرد وجري وعزف كتير منه نشاز، ترضي بجهنم؟". اسمعي يا أروى، أنتِ سبقتيني إلى الشِّعر الآن.

مازلت أوافق على الدخول إلى جهنم يا ملاك، لو أن أروى معي.

قررتُ أن أحثَّ السير حتى بيتها، كي لا أترك لها مجالاً للتراجع، كنتُ سأصعد إلى الطابق الرابع، وجهّزتُ نفسي كي أصرخ فيها: "يعني أنتِ هتمنعيني؟"، إذا ما امتَنَعَتْ عن إدخالي، لكن يدها فلَتَت من يدي في ثورتي، وارتمى حطبٌ أكبر في ناري، كنتُ سأجذبها من ذراعها، من بنطالها، لكنها كانت تضحك، هكذا حين درتُ حول نفسي بكل هذا الجبروت، رأيتُها أخيراً تضحك،

ولم أعد أرى نفسي في المشهد، كانت تندفع من ضحكة إلى أخرى، تبدؤها وتصل بها إلى أقصاها، ثم تنتهي، فتتأملني لثوانٍ قبل أن تبدأ ضحكة جديدة، لا أعرف كم بقيت أروى تضحك، كم بقيت تحرك يديها بين رُكبتيَها وهي تنثني، وبين صدرها، كأن الضحك سينسفها مثلاً.

"خَدَك بقى كله أحمر". لم أضحك في حياتي أحداً، كما أضحكتُ أروى، ولم أكن أريد لهذا العرض أن يخلَص. ثم عادت إلي سعيدة من غير ضحك. "أنتِ مجنونة يا مريوم"، وابتسمت ثم شيء جعل السعادة تختفي، ويعود الكَدر. "كلَميني، ارجعي البيت، فكّري وكلميني". البيت، أنا كنت نسيت البيت، وهذه الحياة القديمة، إزاي أرجع يعني إزاي؟. تمشت معي حتى لحظة عبور الشارع، وأنا قلبتُ شفتي أنني زعلت، وأخذت أنهب منها بعينيَ وهي لا تكاد تحس بي، كانت تتقدم ناحية تمثال عبد المنعم رياض وعليها مَسَحة لا أستطيع أن أفهمها. كل ما فكرتُ فيه أن ألمس يدها مرَة أخيرة، أن اللمسة ستُبدد بيتي، لكنني خفت ولم أمد إليها.

طبعاً أنتَ لم تكن ترُيد لكل هذا أن يحدث. تركتَني أعبر الشارع وحدي، أغتم لأنها لم تضمَني كما يضم الناس بعضهم بعضاً في القاهرة كل يوم بلا معنى. كان زعلي يُحتِّم عليّ فيما يشبه القانون ألا أستدير وأبحث عنها، أكانت لا تزال ترُاقبني وأنا أعبر مثل حيوان جائع يعرف ألا طعام هناك، أم أعطتني ظهرها ووصلت الآن

إلى بيتها في شامبليون؟ ماذا كان سيحْزنني أكثر، أنها لم ترافقني إلى بيتي أو أنها ضحكت معي كل هذا الضحك ثم هجرتني؟

حين مرَّ الميكروباص من الدوران نفسه في طريق الرجوع، استخْللث النظر إلى مكان الفراق وطبعاً لم تكن هناك، أسندث رأسي إلى اللوح البلاستيكي للنافذة منزوع المقابض ولم يعد يفتح لأحد، نظرث إلى سقف العربة وقلث لكِ طيّب، وقلث لها طيّب، اشتقث للنوم، ولباب بيتٍ يأخذُ مباشرة إلى غرفتي كي لا أرى جدتي. لم يكن من الممكن أن يتحقق خاطري. حين عدث كانت جالسة بين جاراتها في الصالة، تبكي ورأسها مربوط بالمنديل الأحمر ذي الوردة الصفراء الوحيدة، كُنَّ مُتحلقات حولها يحاولنَ التهوين عليها، ويقرأنَ **القرآن**، كان الفيلم إياه يُعيد بَث نفسه للمرة المليون، عرفث ألا سلام الليلة، ولا نوم في راحة، ستحضر الأشباح، وتطاردني حتى باب الأحلام.

كنث أغلق خلفي حين سمعتُها تقول إن "مريم كل ما بقي لي من محمد". أبكت عبارتها النساء وأنا لم أحس أنني مريم المقصودة حتى وهي تنظر باتجاهي، لم يكن سيتغير شيء لو أنني أحسست، كيف كانت ستعود أروى معي إلى البيت وأنتِ فيه؟ أردث أن أسألها ولم أحصل على فرصة، أتت واحدة منهن أدخلتني بين ثدييها وجعلتني أتشمم رائحة البصل المخلوطة بالبخور والعَرق. "يا مريم أنتِ كل ما بقي لستّك فلا تخرجي في

الشارع هذه الأيام"، وقلث طيّب وأنا أنزع نفسي من هناك، رجعث إلى وجه جدتي جائعة فسألث عن الأكل، جعل السؤال حاجبيها يرتفعان وعيناها تجحظان وتلفظ الكلام بعد ضغط من أسنانها: "عاملة سمك لكن الدود أكله". كانت مُصرَّة على مباشرة دورها في الفيلم، وكنث مُرهقة، فأعدث ثانية حواري كي تجد منه ثغرة: "الدود أكل السمك كُله؟". قالت إنه ترك لي سمكة واحدة على الفُرن، فابتسمث لأن الدود الكريم لم ينسني.

كنث أشبه قردة وأنا آكل على الفُرن، صح؟ أسعى إلى سرقة موزة من الغابة بينما قبيلتي حزينة على موت أبي منذ مئات السنين مع أنهم مَنْ قتلوه، لا أستحق أن تقع واحدة مثل أروى في حُبي، كيف يمكن للبشر أن يحبوا القرود؟ وصلث إلى الاعتراف أخيراً وللمرَة الأولى بينما آكل بيدي وأسناني والطعام يسقط من فمي، أصل إليه وأنا أتهيأ للمشهد التالي في فيلم جدتي، الصراخ والسقوط ثم التهدئة والنحيب، يجب أن أفعل كل شيء بسرعة، بما في ذلك التحسر على أروى، يكفي أن النهاية لا يُمكن منعها وستي تقف في البلكونة تنظر إلى الأرض وتصرخ مُعاتبتك: "ده كان ابني وحيدي"، حين سيفتح الجميع النوافذ، ويتفرَجون على المرأة التي جُنَت بعد أن مات ولدها في الغربة.

كانوا يصدقونها مع أنهم يعلمون أن محمد لم يكن ابنها الوحيد وأن أربعة رجال آخرين يقولون لها يا ماما في الصباح والمساء وهم يُصفِقون الباب خلفهم، كانوا

يتأسفون عليها وهم يفهمون أنها حقاً لم تُجن، كانت تُجيد فعل كل شيء حتى الموت حزناً بعينين جاحظتين وجفون لا تنام. أنت تعرف أنها تعني وهي تنظر إلى الأرض وتتكلم إليك، تُكلمك وتسخر منكَ وتتحداك ثم تستغفرك وتطلب العوض وأنت لن تعاقبها كأنها تراكَ هناك ولا أحد يراك سواها، كأن الفقد يُبرر الرؤية التي أعطيت إياها وحيدة من بين أهالي القاهرة. أنا ولا مرَة سألتها لمَ كانت تراك في الأسفل؟ ولا مرَة جاهرتُ بخاطري: المفروض أن الشياطين هم مَنْ يسكنون في الأرض وأنك وحدك صاحب السماء.

كيف كان يمكن أن تعود معي أروى إلى البيت؟

لم يكن هذا مُجدياً ولا حتى كفكرة، كانت ستظن أنني أشبه ستّي، أنا نفسي أظن أحياناً أنني أشبهها في أشياء لا أستطيع الإمساك بها، وأن هذا كفيل بأن تجري مني أروى، أن تجري ولا تعود إلى الأبد. قلتُ إن هذا كافٍ، فأخذتُ كوباً من الحليب الدافئ وعرجتُ إلى غرفة جدي، صرختُ كي أسمِعه أنني عدتُ، اعتذرتُ على التأخير حين همس به، أقسمتُ ألا أتأخر ثانية كي لا يحزن أكثر من حزنه، كنتُ صادقة لا أتوقع القادم من الأيام، ورجعتُ أغلق بابي، وأجلس على السرير ساحبةً الغطاء على هاتفي أدير عليه محطات الراديو، ما هو الحزن الذي تُخبئينه يا أروى؟ لماذا سقطتِ على أرضي إذا كانت نيّتكِ أن تتحوَّلي بهذه السرعة إلى تراب،

هنأث وأنا أدخل إلى النوم موقنة أنني لا بد سأنسى كما نسيث من قبل كل شيء.

لما وصلتني رسالتك قُلت إنك رديتي أسرع مما كان يجب أن ترَدي، إنك صغيرة وعاوزة تجرَبي عاوزة تعرفي، فكرت أتجاهل الحكاية كلها، بثُ في حيرة بين السرير والباب، وفي النهاية سألت نفسي إيه ممكن يحصل أكتر مما حصل؟ كلمتكِ وقلث لك تعالي، ضربوا الأعور على عينه، قولي لي أمازال يُقال المثل يا مريم؟ آه يا أروى، تخلصتِ من العبأ كله وبدأتِ تُفكرين في النكات الآن. نكات قديمة وصلت أوروبا متأخراً. لا أعرف ما يمكن أن يحدث، لا أعرف حتى ما حدث زمان، لكن إبعادك لي شيء آخر، شيء مُذِّل، أنا لسث صغيرة إلى هذا الحد. أنتِ أصغر مما تتصورين، بيني وبينك عشر سنين لو حسبناها بالأمثال أصير أكبر منك بسنين ضوئية، كمان أنا ممكن أسافر في أي وقت إنما أنتِ هتروحي فين؟

كتبث لكِ في الرسالة: "خُذيني إلى جهنم يا أروى"، فهل تتصورين أن هذا كله يهمني؟ بحثث عن رقمكِ الألماني ولم أعرف إذا كان رصيدي يسمح أن تصلكِ قصيدتي، كانت ضربة أخيرة من واحدة أعصابها فلتانة، فهل تريدين مني أن أترجاكِ؟ مريم متصدقيش يا مريم، أنا آسفة آسفة وحزينة، المعرفة مُرَة. وماذا فعل بكِ الاحتفاظ بالمعرفة يا أروى؟ قولي لي هل استرَدت منكِ الحزن؟ الحزن لا أحد يجرؤ على استرداده، تعلمنا أن

نعيش به. أنا أيضاً عندي حزن يا أروى، لا أتذكره الآن لكنه واللهِ موجود، ربما أنه يسمعني وأنا أتحدث معكِ، ربما يا أروى، أنتِ وسيلة لفَكَ أسره. مَنْ يعرف؟

أنتِ عاوزة إيه يحصل بيننا؟

كان اسمه تنصُّلاً ما تمارسينه ضدي يا أروى واللهِ. "أنا ماشية ومش عاوزة حاجة تحصل"، نهضت فتحت الباب، سأهبط الدرج ولن أعود إلى هذه البناية في حياتي، لن أمر جوارها، لن أتذكر أحداً على صورتكِ، ثم أحسست أن كلتا اليدين على كتفي، كانت اللمسة الخفيفة تأتي من الوراء وتنكسر في اتجاهين مزدوجين أنا مركزهما كما يحدث للنور مع المرايا. كُنا في الممر والوضع لن يسمح لأحدٍ بالمرور، لحظتها نظرتُ إلى ارتفاع البناية تحت رِجلي، إلى الجُحر الذي سأسقط فيه لأنني سأسقط ولن أمنع نفسي. "أنا عاوزاكي". دخلنا، أغلِق الباب علينا، وأحسست للمرة الأولى منذ سنوات أني أرغب في البكاء.

أولًا، بكيتُ حين سألني البواب عند مَنْ أنا صاعدة، وحين قُلت "أروى"، انقلبت شفتاه وسأل مُستنكراً "أروى مين؟ بنت سارة؟"، بكيتُ لأنني أجبتُ "أيوة" مع أنني لا أعرف مَنْ هي سارة هذه، مجرد سرَ من أسرارك صح؟ صح. أنتِ قابلة للإفلات وأنا لم يعد لديَ حق العودة من حيث أتيتُ. كل درجة كنتُ آخذها كي أصل إلى هنا، ما دفعته من ذهني كي أركز في الدور الرابع ولا أطرق باباً غير بابكِ ويخرج لي أحد سواكِ، مَنْ كُنتِ

تظنينني؟ أنا أتفه من هذا كله. ثم وجهكِ الذي أطل مع مواء الخشب المُتيبّس والاعتذار وأنا أجد نفسي أقدمه: "آسفة اني اتأخرت"، "لا يا مريم أبداً أبداً تفضلَي".

لم أفكر أن نهاية الموقف يُمكن أن تكون هكذا. أطرد نفسي ثم أعود فتبوسينني، دخلت إلى بيتكِ رغم العتمة التي لا تليق بالضيوف، فكرت أن أخلع حذائي أن أسير حافية، لكن على ماذا، حتى الأرضية كانت عارية، لم أحتَج لأكثر من دقيقة كي أفهم، أن كل شيء هنا محمي ضد الآخرين وأني مجرد أخرى. بقايا الصالون القديم، لونه الزيتي الباهت، تحوَّل في زمن سفرك ولم يعد أحد يعرف لونه الأول، فقط طمأنني المقعد الأحمر الكبير ووقع في قلبي كعرش لا يليق بالبلاط، ربما سيتغيَّر المكان من أجله، كان يُشبه سريراً صغيراً، من الذي ينيّمون عليه الأطفال في السينما، أو سرير مُحتمل للكبار إذا ما رمينا هذه الوسائد على الأرض، متى وصل إلى هُنا وأنتِ في القاهرة منذ أيام معدودة؟ الضيف الغريب مثلي، مع ذلك تجاهلته، جلست على أريكة الصالون، استمعت إلى أنتها وجسدي يرتاح عليها. تركت نفسي لمواجهتِك، وأنتِ تحملين كلاماً تتفادين إنزاله، تنظرين إلي، تعقدين يديكِ حول صدركِ ثم تشيحين، وأخيراً تسألين: "تشربي قهوة؟".

"أحب أشرب قهوة طبعاً". كان البيت على هيئة مثلث، قاعدته غرفتان، غرفة ما تشبه مرسماً مُضاءة في آخر الداخل، بشباكها المفتوح على حركة المقهى

وزبائنه، وهذه لا تبين لي بوضوح كما يجب، حتى اللحظة، وغرفة النوم المُعتمة بالكامل، مع بابها الذي يدعو للاكتشاف، ثم أنا في الصالون أجلس على قمة المثلث، وألوِّح للغائبين الذين مضوا بلا شك من هُنا. حين رجعتِ، كُنتِ رَتَّبتِ موقفكِ، ظهر في نبرة صوتكِ، في رعشة جفنكِ الخفيفة وأنتِ تقولين: "تفضلَي"، كأنها آخر تفضلي ستقولينها، وبدأتْ أشعر أن عينيَ تؤلماني بسبب العتمة، أن الصمت لم يعد يُريحني، نظرتكِ التي تسددَت ناحيتي، جعلتني أسمع، مَخْزِيةً، رسالتي تتردد في العالم: "خُذيني إلى جهنم يا أروى"، كدليل إدانة، وكُنت طبعاً خجلانة منكِ، من بلاهتي وأنا أسير إلى عذابي، بينما أنتِ تتذمرين، تتوقفين ثم تطلبين تفسيراً منطقياً لهذا المجيء.

لم أكن أريد أي تفسير، أنتِ فهمتيني غلط. لماذا بقيتُ أبتسم وأُلحَّ على أن تتكلمي في الابتسام؟ أقول لكِ ما أعرفه عن نفسي: أنا واصلتُ الابتسام كي أمنع نفسي من البكاء، فقط، لا أكثر لا أقل، كي لا تقولي شيئاً مؤذياً أكثر. لماذا خبئتِ عني أروى، يا أروى؟ فكرتُ أنني سأكون بخير في كل الأحوال، سأنساكِ، نظرتُ إلى الباب وقلتُ سأنهض، رأيتِ هذا في عينيَ، فتكلَمتِ وبدلاً من أن تقولي أي شيء، أي شيء في كلامكِ، عدتِ إلى السؤال: "أنتِ ليه كتبتِ لي؟"، كانت عيناكِ تستفهمان فعلاً، هذا لا يُطاق، مع ذلك طِقتُه.

أنا نهضتُ من النوم مفزوعة، ليس بسبب الكابوس، عادة أرى كوابيس، هذا لا يهمكِ، لا أعرف ما هي الأشياء المُهمة ولا أذكر هذا الكابوس بالتحديد، لم يكن له علاقة بكِ، على الأقل لم يكن له علاقة مباشرة بكِ، استيقظتُ مقطوعة الأنفاس، قرب الفجر، أو بعد الفجر بقليل، نهضتُ من السرير فتحتُ الشبّاك وحاولتُ أن أحدد الوقت، كانت السماء غامقة، تعرفين كيف يكون فكركِ حين تنهضين على هذه الحال، تكون الحاجة إلى إخبار أحدٍ أنكِ بخير، ربما أحد بعينه، وربما أي أحد، صدقيني لم يكن لدي وقت كي أفكر في الصياغة، كان النهار يُغالب كي يطلع، يُغالب ماذا؟ لا أعرف. وجدتُ نفسي أمسك التليفون وأقول بصوت مسموع: "خُذيني إلى جهنم يا أروى"، ربما هي آثار النوم، مجرد آثار النوم، ربما ليس لدي تفسير.

قُلتُ وأنا أُسرِع في الكلام كل شيء أعرفه، كي يصبح كلامي مُصدَّقاً، أريد أن أعرف أيضاً ما الذي جعلني أكتب هذا، كانت أروى تضعُ يداً على خدها ويداً على فخذها، كلما تكلَّمتُ، رفعت رأسها أكثر واهتزَّ جسدها هزَّة خفيفة وهي تُحدق في، لكنها لا تراني، ترى نومتي على السرير ليلتها، ترى فزعي وتختبر الصورة، اضطررتُ أن أعترف، يمكن أكون قد سمعتُ الجملة في المنام. ضاعت أروى مني لا بد كمَنْ تاه في شارع وهو يبحث عن شارع آخر، أماني الوحيد كان في استمرار

الضياع، إصراري على إيجاد ناصية واحدة لكل هذا الخَبَل.

"يعني أحببث فعلاً أن أرد على سؤالكِ، أنتِ قُلتِ لي أن أفكر وأكلمك، أنا فكرتُ وأنا نائمة، ربما وليس بالضبط، كنتُ واعية حين كتبتُ لكِ والله كُنت أعني. ما فائدة كل هذا؟ طيّب بلاش أنتِ كيف شعرتِ لمَا وصلتكِ رسالتي؟ شكراً على القهوة بالمناسبة شكراً جداً".

لما وصلتني رسالتك قُلت إنك رديتي أسرع مما كان يجب أن تردّي، إنك صغيرة وعاوزة تجرّبي عاوزة تعرفي، فكرت أتجاهل الحكاية كلها، بتُّ في حيرة بين السرير والباب، وفي النهاية سألت نفسي إيه ممكن يحصل أكتر مما حصل؟ كلمتكِ وقلتُ لك تعالي، ضربوا الأعور على عينه، قولي لي أمازال يُقال المثل يا مريم؟، آه يا أروى، تخلصتِ من العبء كله وبدأتِ تُفكرين في النكات الآن. نكات قديمة وصلت أوروبا متأخراً. لا أعرف ما يمكن أن يحصل، لا أعرف حتى ما حصل زمان، لكن إبعادك لي شيء آخر، شيء مُذِّل، أنا لستُ صغيرة إلى هذا الحد. أنتِ أصغر مما تتصوري بيني وبينك عشر سنين لو حسبناها بالأمثال أصير أكبر منك بسنين ضوئية أنا ممكن أسافر في أي وقت إنما أنتِ هتروحي فين؟

كتبتُ لكِ في الرسالة: "خُذيني إلى جهنم يا أروى"، فهل تتصورين أن هذا كله يهمني؟ بحثث عن رقمكِ

الألماني ولم أعرف إذا كان رصيدي يسمح أن تصلكِ قصيدتي، كانت ضربة أخيرة من واحدة أعصابها فلتانة، فهل تريدين مني أن أترجاكِ؟ مريم متصدقيش يا مريم، أنا آسفة آسفة وحزينة، المعرفة مُرَة. وماذا فعل بكِ الاحتفاظ بالمعرفة يا أروى؟ قولي لي هل استرَدت منكِ الحزن؟ الحزن لا أحد يجرؤ على استرداده تعلمنا أن نعيش به. أنا أيضاً يا أروى عندي حزن، لا أتذكره الآن لكنه واللهِ موجود، ربما أنه يسمعني وأنا أتحدث معكِ، ربما يا أروى أنتِ وسيلة لفَكّ أسره. مَنْ يعرف؟

أنتِ عاوزة إيه يحصل بيننا؟

كان اسمه تنصُلاً ما تمارسينه ضدي يا أروى واللهِ. "أنا ماشية ومش عاوزة حاجة تحصل"، نهضث فتحث الباب، سأهبط الدرج ولن أعود إلى هذه البناية في حياتي، لن أمر جوارها لن أتذكر أحداً على صورتكِ، ثم أحسسث أن كلتا اليديَن على كتفي، كانت اللمسة الخفيفة تأتي من الوراء وتنكسر في اتجاهين مزدوجين أنا مركزهما كما يحدث للنور مع المرايا، كُنا في الممر والوضع لن يسمح لأحدِ بالمرور، لحظتها نظرثُ إلى ارتفاع البناية تحت رِجلِيَ، إلى الجُحر الذي سأسقط فيه لأني سأسقط ولن أمنع نفسي. "أنا عاوزاكي". دخلنا أغلِق الباب علينا، وأحسسث للمرة الأولى منذ سنوات أني أرغب في البكاء.

لم يكن عندنا وقت للبكاء، أو أننا اخترنا أن نبكي على طريقتنا. أولاً دخلث من الباب، وفي استدارتي،

وجدتُ أنفي بين شفتيها، كنتُ الأبطأ فلم أحسبها جيداً، وكان جميلاً رغم أن الحركة قد خضّتني، خضّني فهم أنها تبوسني في أنفي الآن، خضّتني متابعة المشهد مُفصّلاً، أخذته أولاً بفمها، ثم حين ارتاحت إلى سكوني، أخرجت لسانها وبدأت تداعب منابت الشُعيرات مُتناهية الصغر على الجنبين، خدَرتني فلم أخف من التمادي، حاولت أن تدخلني من فجوتي التنفس، فأغمضتُ عينيَ وأسلمتُ لها في الظلام، ظلّت تروح وتجيء بين مدَ وجزر على جلدي، لا تتجاوز الحد ولا تستسلم، قبل أن تدّعي الضجر وتُجرِّب عضّة يمكن أن يتحملها رضيع، كأنها تُنذرني أن باستطاعتها أن تأخذ الأنف كله، وتواسيني بأنها لن تفعل.

تركتْني حين أحسَّت أنني لا أحتمل المزيد غصباً عني، لو بيدي، كنتُ نزعتُ الأنف ومنحتُها إياها كهدية، أو كنتُ خطتُه بلسانها كل الغمر وارتحتُ ألا فراق يقدر على الحيلولة بيننا بحُكم المادة قبل الحُب، لكنني احتجتُ إلى الأكسجين. شعرتُ بالخضّة تعود حين فتحتُ عينيَ وطالعتُ التهابها، أحمر وجهها، الأنف لم أبُسه والشفتان، وعيناها تورّد بياضهما، مثل الذئاب، ربما مثل الذئاب، كانت ثابتة عموماً سوى أن أنفاسها تتقطع في لهاث تكتمُ انفجاره، عيناها الخضراوان كانتا تُبرقان وترجوانني بما لا أعرفه بعدُ. سألتُها بعصبيَة: "مالِك؟"، وأنا أرفعُ يدي كي أخفي عيني، كأنها لطمتني ما باستني. حتى اللطمة المُتخيَّلة كانت حلوة منها.

قَبَضَت على سبابتي المرفوعة في الهواء، كمَنْ وجد الفكرة بعد الأرق، قبضت وابتسمت، ضغطت وبرقت لي أكثر، قالت بصوتٍ جديد على أذني ساعتها قديم في كل أوقات الحُب من بعد: "أنتِ قُلتِ إنك اخترتِ، لحقتي تندمي؟". لا لم أندم. "طيِّب اقعدي". أصبحتُ مطيعة، وفي الرِّدة إلى الجلوس، أحسستُ أنني أصير الكاميرا يوم حفل العازفة، أتقدم بالبصر أتراجع بالجسد قبل أن أسقط على الأرض، دُختُ وخفتُ أن أعلن الدوخة. كُنتُ مكسوفة من قلة خبرتي، ما هي الأعراض عندها بعد البوسة؟ ارتجافتها البسيطة جداً، أو هي مجرد صدى لارتجافتي، الاحمرار، ليس هو الوجه فقط الذي احمرّ، ولا الصدر، كان حتى المكشوف من ذراعيها وأصابعها، حين هبطتُ بعينيَ إلى الأرض كي أختبئ، رأيتُ قدميها الظاهرتين تحت السابوه، بدتا دون أي عمد إلى الشعر وردتين من الورد البلدي في محل أرستقراطي بربيع لم يمرّ مثله على القاهرة، كانت واقفة هناك بجوار الباب لاتزال، حيثُ البوسة والسؤال والرجاء، تحاول أن تُنظِّم ما جعله أنفي يختلُّ فيها، سألتني بعينيها: "إيه؟"، وجاوبتُ كأول ما خطر على بالي "أنتِ مش إنسانة"، جعلت بؤبؤ عينيها يقفز إلى سبابتي، وأنا أفردها كإشارة مرور دون أن أريد للمرّة العاشرة، كان لون أروى يزحف على بشرة يدي وهي بعيدة عني، بدأتُ أصيح وأنطر ما أظنه العدوى

بهياج"أنتِ عدوى يا أروى، مش إنسانة"، وهي طبعاً غرقت بسببي في الضحك.

أخذَت الضحكة مني كل ما يجب أن يؤخذ، أضحكتُها مرَة ومن بعدها مرَة، نحن نضحك وهذا يعني أننا لسنا سيئتين، قالت لي "ضروري تكوني عطشانة"، وانسحبَت إلى المطبخ. أنا رجعتُ إلى ظهر الأريكة أستند، اندلق أثري تحت ثيابي، لو تحركتُ بعنف سيصل إلى بنطالي، ومنه إلى هذا الصالون، لن تنجح أروى في تنظيفه وستتعب بلا جدوى، كانت أول مرة أسيلُ فيها هكذا منذ ولدت، أول مرَة تنفذ رائحتي إلى أنف العالم، إلى أنفي، فأعرف أن لي رائحة مثل كل البشر الذين لم أعرف كم كانت لهم رائحة.

في أمانكِ يا أروى. مع فضيحتي التي أطلَت فجأة من بين رِجليّ. كان عليّ أن أجد طريقة لتأخير إعلان الحقيقة حتى تجفَ لو على القليل، عارفةً أن لكِ بالاً طويلاً مع هذه الحاجات وكلها جديدة بالنسبة إلي. حين عدتِ وبيدكِ زجاجة الماء البلاستيك وباليد الأخرى كوب شفاف، قُلتُ إن لونكِ الذي لا يخفَ كان هو الآخر فضيحتكِ، أنتِ اختنبتِ مثلي في الداخل حتى تعود إليكِ طبيعتكِ، أنتِ ابتسمتِ هذه المرَة غير ابتساماتكِ في كل المرَات، لم أعد ضيفة، يا أروى، أخيراً، أضئتِ النور وتكلَمتِ طويلاً لكن ولا كلمة توجهت إلى فكري، هل تذكرين كيف جسلتِ على حرف المقعد؟ تصفين بذراعيكِ وأصابعكِ والأظفار كل عبارة، كل نغمة للكلمة،

كأنني صماء، وقعتُ مريضةً بكِ منذ هذه اللحظة بعد البوسة، أنتِ تكلّمي وأنا سيسقط مني الكلام، رأيتُ نفسي الأرنب الذي يُصفق للساحر وقد أخفاه في قبعته بالحرارة نفسها التي يُصفق بها الجمهور، تُبررين كل خطوة في موقفكِ مني قبل وصولي إلى هنا بالعقل، كيف يستوي معنا العقل يا أروى؟

كُنتِ خايفة عليّ، لم يكن لديكِ يقين أن هذه إرادتي الكاملة، لستِ لعبة في محل للأطفال، عندها كَزكَرتُ من الضحك، يمكن ضحك عتاب أو ضحك لوم أو ضحك هبل لا أعرف. تغيير الحياة بهذا "الشكل" ليس سهلاً خصوصاً هنا، سيجرّ الجحيم إلى مريم جراً. "يا شيخة أكتر من كدة جحيم؟ أنا بخاف أشوف التلفزيون فأموت من الفزع، أنا ممكن أموت مخنوقة في المترو بسبب الغازات المُسيلة للدموع لو رموها على المتظاهرين بالصدفة وأنا أمر من محطة السادات، أنتِ لا تدرين كم أنا ولا حاجة". "أنا آسفة يا مريم أنا آسفة". قطعتِ البؤس الذي أصف به حياتي في الكلام، ثم نظرتِ إلي جادّة ومُستفهمة: "لكن دلوقت خلاص كل ده ميهمكيش. صح؟"، وبدلاً من أن أطلب ما اكتشفتُ أنني قد سرتُ كل هذا السير من أجله، أخذتُ أهز جسدي مرّة تلو مرّة، هكذا من أوله إلى آخره كالمصروعين، أؤكد لكِ أن الإجابة هي صح. كان هذا هو الصح الوحيد في حياتي.

تعزفي لي؟

يوم المترو حرمتني أشياء عدة الاستماع لك، أنتِ على رأس القائمة، يا ريت أراكِ الآن كأول مرّة، لو أنه في هذا البيت القديم محطة مترو، ونجلس كما وقتها جلسنا فلا أندم لأن الوقت تغيَّر. "أعزف لك لكن تسأليني الأول؟". "أسأل إيه؟". "تسألي مَنْ أنا وأعرف من أنتِ؟". زفرتُ وانسحبتُ. "لازم نفس السيرة". "ليه متصورة إني أضايقك؟". عن مدرستي الابتدائية والإعدادية والثانوي، عن أصحابي وعدد إخوتي، ماذا يعمل بابا ماذا تفعل ماما في الحياة، كل إجابة هي صفر جديد تُضيفينه إلى العالم، لا أحداث كُبرى لا إنجازات، ولا حتى نضال وحيد يُشبه نضالكِ. ماذا كان يغري في حياتي يا أروى؟ لمسة واحدة على ذراعي النائمة على المُتَّكأ الخشبي خلَت الضيق من إفلاسي يروح لحاله، جعلتني أحاول أن أرد، كنتُ أتوه في الشوارع، لو اعتبرتِ أن التوهان إنجاز، كنتُ أركب عربات المترو حتى نهاية الخط، أتطلع في عيون الناس، ويتطلعون إليّ ثم يذهب كلُ منّا إلى حاله، كُنتُ أمثِّل أن لي حالاً مثلهم أعود إليه. عندي جدتي وجدي، عندي في البيت غرفة لي وحدي، وإرث عن بابا وماما سيكفيني في العيش حتى الموت، زميلات وزملاء جمعتهم من كل عام دراسي كنتُ أرسبه في الجامعة، فلا تطول عِشرتنا ولا تنقطع. عندي قصائد في الشِّعر منظومة من عبارة واحدة لأنني لا أعرف كيف أكملها، عندي ماضٍ واسع، وشهادات مَرضيَة مؤرخة ومُرتبة منذ كنت في العاشرة،

أنا رتبتُها من أجلي، وروشتات للدواء كثيرة، وفي خانة المريض مكتوب اسمي شائهاً.

لكن كل هذا لا شيء يا أروى أنا أعترف لكِ. مريم مجرد لا شيء. فهل ستطردينني الآن لأنني مثلاً أشحذ الحياة منكِ شحاذةً؟.

"وأنتِ تعتقدين أن أروى ملكة مثلاً؟ أنا أشحذ الحياة منكِ شحاذةً يا شاعرة، يا حفيدة الشعراء، ولمّا أحكي لك مش هتلاقي لي حياة أغنى منك يعني. هعزفلك لكن تحبِّي تسأليني الأول؟".

"لا تعزفي لي الأول".

أول مرّة أرى فيها الأوبوا داخل بيتكِ، مُقدِمة لأيام لم يأتِ أجمل منها في الدنيا. ساعتئذ بدت الآلة الموسيقية التي حلمتُ بها لسنوات عادية في يدكِ، وحتى أحافظ على قَسَمي دون أن ألمسها قُلتُ لكِ "كما تحبي"، في النهاية، كنتُ أعرف عن الموسيقا الكلاسيكية النغمات فقط لا الأسماء الكبيرة ولا التصنيفات. "أنا ألعب حاجات من تأليفي أوقات يمكن ما تحبيها"، "إلعبي ومش ضروري السُلّم الذي تختارينه سعيداً كان أو حزيناً، ولا يهم أن تُنشزِي لأن حتى نشازكِ سيكون حلواً، طالما لن نزعج البواب ولن يلعن الست سارة بسبب نواح الأوبوا وخِنِفَتها".

تحمضت الصورة في ذهني هكذا، تتلوى مشيتكِ إلى حيث المرسم الذي لم يكن مرسماً بالفعل، مجرد غرفة أخرى تؤدي إلى داخلكِ، منذ نهوضكِ الخفيف عن

المقعد وحتى دورانكِ في الفضاء تبحثين عن حقيبة الأوبوا وأنتِ تضعين يدكِ على جبينكِ كأن هذا سيُسرِّع إيجادها، إشارتكِ لي باتباعكِ ومن قبل إشارتكِ طاعتي على بياض، وضعتِ رجلاً على رِجل ثم هبطتِ على الأرض متخذةً وضع الكاتب المصري الشهير في المنحوتات الفرعونية، أذكر جيداً ألمكِ تحت جهد النفخ العنيف مع مسّ المفاتيح وهي تصرخ، ومقاومتكِ ثانية هذا الصراخ واحتمال غيبتكِ في العزف بمحاولة استبقائي قريبةً. هل هذا كله من تأليفِك، يا أروى؟ لم تُخبريني يوم المترو؟ يد واحدة أشارت لي بالجلوس على الأرض، وأنا حططت زعلانة لا أعرف لمَ.

غير أنكِ تحركتِ فألصقتِ كتفكِ في كتفي وأبديتِ التياعكِ صريحاً. وجدتُ نفسي اندلق إلى الخارج في إفراط غير عادي كمَنْ ألقى بنفسه من الشلال إلى النهر ولم يتلقاه النهر بعد. كيف سيتوقف هذا؟ تنهدتُ ساعتها لأنكِ كُنتِ ستعرفين، لا بد من الرائحة، لن يحتمل إعلان الحقيقة أي تأجيل. رفعتُ سبابتي مجدداً كي أقطع عزفك، وأنتِ رفعتِ حاجبكِ. وفي الهواء، أشرتُ إلى ما بين فخذيَ، لا أدري كيف أشرح، "أنا بغرق في روحي لما بتلمسيني يا أروى هل هذا طبيعي؟"، فرّت بلاد من الضحك فيكِ خلّتكِ ترمي الأوبوا على الأرض، خلّت وجهكِ يعود إلى الالتهاب، ثم عادت بكِ إلى رُشدكِ المصطنع، تُطبطبين على فخذي الأول أنه "الطبيعي الوحيد يا مريم".

كُنتِ تشفّين حتى العظم. منذ نهوضكِ وقد صار قلبي يهبط أكثر في صدري وأرتعد، وقفتِ أمام الشباك المفتوح على الليل وفهمتُ أن نيتكِ هي خلع قميصكِ. هذه هي اللحظة وأنا غير مُستعدة. غطيّتُ ذراعي بذراعيَ لأن إحساسي بالبرد زاد، وأنتِ تفكين الأزرار واحداً وراء واحد تجعلين الهواء الذي ينفخه الشارع يمر عبركِ ويصدمُ نفسه في حاملة صدركِ، حاولتُ أن أتكلم وفشلتُ لأن نظرتكِ ثابتة حتى وهي تتحرك بيني وبين القميص، كأنكِ نجمة خالدة في فيلم مثلتيه منذ زمن، قذفتِ بالقميص على الأرض البعيدة عني وكان من المنطقي أن أزحف إليه لكنني لم أفعل بسبب الخوف، بدأتُ أرتجف وأنا أعرف أن ما حدث سيتكرر مع كل قطعة فيكِ.

سوى حاملة الصدر الخفيفة لا شيء. فككتِ زر بنطالكِ الأسود بالبُطء نفسه وأنتِ تُجبرينني على النظر، وأنا أجبر نفسي على عدم الهرب. رنَت قطعة البلاستيك على الأرض بجوار القميص وضوت الساقان الطويلتان، كالمثلث وضلعاه ينفرجان عن نقطة الاشتراك، عليها قطعة قماش صفراء خفيفة، أنا لا أندلق الآن، أنا أفيض، أرجوكِ يا أروى كفاية. قومي يا مريم من مكانِك. اليد ممدودة وحتى الشباك يستحثّني، قمتُ دائخة وتمنيتُ أن أسقط وينتهي المشهد، لكن هذا لم يحدث، أغلقتُ على صدري، وأطعتكِ واقتربتُ. سأقول أول ما يخطر على بالي "انتِ جميلة قوي يا أروى". لم تضحكي حتى

على بلاهتي كما توقعتُ، "أنا مش جميلة يا مريم أنا بحبِك"، قُلتيها بنفاد صبر كأنها حقيقة كونيَة زهَقتِ من جهلي بها. أطعتكِ واقتربت لما قُلتِ: "المسيني واسأليني".

كما يرفع المتظاهرون أذرعهم في وجوه ضباط البوليس، رفعتِ ذراعيك إلى فوق،وبعدها هبطتِ ونزعتِ حاملة الصدر بحركة بهلوانية مُفاجئة، لا أعرف كيف أتوقع، وهذا يُربكني، يا أروى، يُربكني حتى أنني أريد أن أبكي وأغادر، استندتِ على كتفي بيدِ وخلعتِ بيد القطعة الأخرى، فبانت الشعرات الفاتحة متناثرة تحاول أن تُغطي النبع، لم يكن سيوقفِك أي أحد ساعتها صح؟ صح. "اسأليني يا مريم اسأليني؟"، "أنا خايفة. هاتي يدك واسأليني؟"، "أسأل إزاي يا أروى أسأل إزاي؟".

"عاوزة تعرفي أروى، قولي لي عاوزة تعرفي أروى؟"، "أيوة". أروى تبتدي من هنا. أول شيء ضربته الكهرباء يدي، يدي على القلب والخوف يبتعد وأنا ألمس قطعة اللحم الحمراء النابضة مباشرة، كُنتِ ساكتةً حتى وصلني الإحساس فبدأتِ تلاوتكِ: "من هنا خرجت من مصر، ومن هنا رجعت"، "ومن هنا كان المفروض تتولدي أنتي أو أتولد أنا"، أي بطن يا أروى أي بطن كانت بطنكِ؟ "وهنا متخافيش يا مريم، من هنا أقدر أشيلك جوة رحمي وأجري بكِ ولا إنسان يقدر يوصلِ لك"، على لحمي المسنون أقدر أجري ألمانيا كلها ومصر كلها وأنا

مُلتهبة فتأكل ناري الكوكب كله. "لونك الأحمر"، "أيوة ومن هنا بُست نساء وآلات موسيقية وبُستك، ومن هنا اشتممتكِ أول مرة خفتِ أن تقولي، واشتممتك يوم محطة المترو"، "كنتِ عارفة من زمان؟"، "من قبل ما انتي تعرفي حتى ومن هنا أشوفك كما خلقك ربنا"، "أنا خايفة يا أروى"، "وهنا كان شعري لازم يكون قصير علشان أعرف أجري براحتي وأحب براحتي علشان أقدر أخفَ"، "كفاية يا أروى"، "ومن هنا لازم أنتي كمان تسمعي العزف وتصدقيه كل مرَة كأنها أول مرَة". كُنتُ أول مَنْ هوى، أول منْ أعلن الاستسلام في حروب العالم، كُنتُ أول مَنْ صدَّق يا أروى.

"قومي يا مريم، قومي وخلَيني أشوفك كُلك". "مش قادرة". "طيّب خلينا على الأرض وخلَيني أشوفك، بردانة من الشبّاك أقفله". "أنا مش عاوزة أبطل أبكي". "مش مهم خلَيني أشوفك يا مريم". كُنتِ تمسحين على وجهي، فقلتُ تلقائياً: "كان المفروض تبقي أنتِ مريم مش أنا"، "أنتِ مريم والله أنتِ اللي مريم".

تعرَّيتُ بيديها، لم أستطع أن أوقف البكاء إلا حين دخلته هي، فقلتُ على طول: "أنا مش جميلة زيك يا أروى"، تمددتُ على الأرض بين ثيابي وكان البرد مثلها يضمَنا إلى صدره، قالت لي: "أنتِ أجمل ست في الدنيا يا مريم"، ظلت تُرددها على كل قطعة تذوقها من جسدي حتى حفظتُ نغمتها ونبرة صوتها وجريان

اسمي على لسانها، أنفقتُ ليلي كله في الحُب، وكان لي أخيراً حق إنفاقه.

## الفصل الثالث

لم يكن للأمر علاقة بالسياسة قط، كان شيئاً في الروح، كُلياً في الروح، مازلتُ أعرف وأؤمن وأصدق دون أن يقول لي أحد، لم أشارك في شيء، لا مظاهرات النوبة الأولى ولا ما تلاها من مظاهرات، وربما لن أشارك طوال حياتي، بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يبيتون في الميدان ويقابلون برد يناير بجاكيت خفيف مهما ثقل، بالنسبة إلى هؤلاء، أنا خائنة. وعندهم حق. لكنكِ تعرفين أن هذا ليس حقيقياً. شاركتُ في أشياء أعمق، كأن سرتُ في شوارع مظلمة وطويلة لا تقود إلى هدف، سرتُ وحدي، في السير انزلقتُ على الأرض مرات وكانت أحياناً مبتلة بالمطر، نهضتُ وهربتُ من رصاصات البوليس الطائشة ومن خرطوش القناصين وكثيراً كثيراً من تحرشات البلطجية، هربتُ كي أحارب أفضل فيما بعد، كان حضوري خفيفاً مثل حضوركِ وربما هذا ما جلبكِ، كنتُ أصيح كلما رأيت بناية تابعة للدولة، أصرخ بحُرقة أعوام عُزلتي الألف في وجه كل علمٍ لمصر صادفته بينما الناس يجتمعون لحمايته، سحبتُ من رصيدي النافد أصلاً في الحياة من أجل لحظة كانت تتكرر في كل مكان أطأه، لا أستطيع أن أكذب، كنتُ أحب هذه المتاهة.

كُنا نتقدم مثلاً من كوبري قصر النيل في اتجاه الكعكة الحجرية، نستدير من باب اللوق كي نصل إلى

جهامة شارع محمد محمود، ونعترض على وجه الجامعة الأمريكية، لم أكن ضئيلة ساعتئذ، على العكس كبرث كثيراً، حتى أنني رأيث آدميتي تطير كبالون بعيداً عني فودعتها بسعادة. في لحظات نادرة، اقتربث من الأولياء الذين يظهرون في كل الأماكن رغم أنهم موتى. أبالغ وأقول في أحيانٍ شحيحة أحسستُ أنني قد اقتربث من طبيعة الله، مرّة رفعتُ رأسي إلى السماء ولم أحس بالبرد ولا أخافتني الهليكوبتر والمتظاهرون يقولون إنها ستبيدنا حالاً، كُنا عديدين ومنفردين في الوقت نفسه، ثم غدروا بنا، ألقوا علينا قنابل، وضباط شرطة ملثمين يشبهون الفئران أخذوا ينتشرون في كل مكان وأنا خفث فجأة أن يصلوا إلى الداخل، خفث وبكيث، فعدث على الفور بلا أي ألوهية، رغم انتهاء المشهد، لم أفقد الأمل، أحسستُ بالبرد ومقتُ المتاهة التي تجعل السماء في النهار مثل الليل غامقة تتخلى عنّا أو كأنها توصل إلينا رسالة مفادها التخلي، اشتد خوفي ودفعني إلى النكوص، فنكصث في الحال راجعةً إلى مكاني الأول تحت السقف أجلس بهدوء عجوزٍ سنها مئة عام، وأتغطى بشالٍ أخادع به فكرة البرد. كنث أعرف أنني من الداخل لن أدفأ أبداً، أنا حفيدة مطيعة لها أهل وناس، لها جد كفيف يتابع بأذنيه الأصوات المتصاعدة من التلفزيون، كأنها عيناه. أنا أكثر حظاً منه لأنني على الأقل أستطيع أن أرى الأيدي وهي ترتفع من الشاشة، أستطيع أن أرى حركة الشفاه في الهتاف بينما

ثكمم الأفواه، أن أرى وألا أفعل شيئاً، أن أقرأ البيانات الرئاسية المتتالية مع مذيع التلفزيون، والعبارات الطويلة على سبورة سوداء ترفضُ ما يدور وتعترف به، ثم لا شيء يتغير، كانوا يشبهون جدتي، يا أروى.

في حياتي، لم أصدق جدتي قط، لم أصدق أم كلثوم. ليس لأن ماما حذرتني منها، ثم ماتت بعد ذلك بتدبير منها، فقد كنت سأكرهها في كل الأحوال. أعرفُ أن بابا لم يحب في حياته أحداً كما أحبَ أم كلثوم، أسمعه في الموت يقولها لي صريحة وهو هناك لا يستطيع أن يكذب. كان يجب أن تُحب مريم أكثر، يا بابا، حتى أقدر أنا على محبة أم كلثوم. لا أصدق أنه كان سيُحب أخي أكثر من أم كلثوم، ربما كان سيُنيمه على كتفه في الشهور الأولى، يُنيمه ويُغني له حانياً كما رأيث الآباء يفعلون مع أولادهم في التلفزيون، ثم ماذا؟ كان بالتأكيد سيتركه لماما، ينساه عندها بضمير مرتاح، ويجري وراء تحقيق أمنيات جديدة لأم كلثوم، أحب محمد علي أم كلثوم كأنها ابنته.

حُبه الخالد لها أطال عُمرها على حساب عُمر ماما، على حساب عُمره شخصياً. فهمتُ هذه الحقيقة منذ دُستُ أول مرة أرض مطار القاهرة، وساعة خرجتُ إلى السحاب الكثيف في البلد الجديد، ندمتُ لأنني لم أعرفها في وقت أبكر. كانت تقفُ جوار البوابة الزجاجية في ركن وحدها، تنظر إلى السقف فاتحة ذراعيها كأنها تُصلي لإله تراه، عرفتُها من تطابق وجهها الغريب مع

وجه بابا، فاتت أيام قليلة على وداعه لي، على وداع بيتنا في الرياض، لم يكن معي صورة واحدة له، بضع صور فقط لماما عثر عليها عبد الله وهو يبحث بين أشيائها الخاصة، واقتسمناها سوياً، خبأتُها في بطن حقيبة الثياب المتوسطة التي سأحملها إلى الطائرة كي لا يجدها أي أحد سواي، لأن البطن أكثر الأماكن أماناً في العالم كما قال، نسيتُها أيضاً لسنوات هناك، جَرَرْتُ الحقيبة، ضَمَمْتُها إلى حقائب العائلة التي تبَنَّتني أثناء السفر، واستعدتُها من خط وصول الحقائب وحدي، كما خضعتُ لتفتيشها وحدي. رأيتُ الآخرين مشغولين بأوراقهم وأولادهم، لم أودع أحداً، ولم أحس بالذنب، انفصلتُ بعد التفتيش سائرة مع الناس الواصلين إلى أرض الوطن، ومثلهم قلَبتُ عينيَ بحثاً عمَن لا أعرفهم، حين اصطدمتُ بها واقفة هناك، أم كلثوم كانت صورة مؤنثة من بابا، صورة مُتطابقة، كان لها ذقنه، جفنه الناعس، جبينه البليد وحتى طريقته المتكبرة في الابتسام، أحسستُ بافتقاده حاداً حين وقعت عيناي عليها.

صار لي كيان مستقل، ذلك هو مكسب الخسارة الأعظم، كيان مستقل لم تكن قد تحددت هويته بعد، لكنه على الأقل حصل على الاعتراف بوجوده كفرد أحدٍ، وبفضل كلمة الموت، ولدت مريم التي تخُبينها يا أروى. كان على الضابط أن يتأمل صورتي ويذكر اسمي بلسانه قبل أن يتركني أمُرّ، كان عليَ أن أؤكد أولاً: "أيوة أنا

مريم"، أن أوّقع بخَطي استمارات كي أنتقل من نقطة إلى أخرى في المطار الشاسع. استقبلتني نساء ورجال كانوا جميعاً يرتدون الأسود، انتظروني لساعات، تناولوا مني حقيبتي كي أسير خفيفة أكثر وأنا أواجه القاهرة عزلاء لأول مرة هكذا في العمر، تلهَوا في السؤال عن التابوت الذي لم يحضر بعد على طائرتي، أخبرتُهم قرار السيد عبد الله دفنهما معاً هناك في المدافن الخيرية في الرياض، وتلقيتُ توبيخهم لي على موافقتي. كل هذا يعني أنني قد أصبحتُ أنا.

في ذلك الزمن، تكلَمتُ على الأماكن لأول مرة وأنا أشير إلى أسماء لا بد أن يعرفها الناس، فالرياض هي الرياض لا بيتنا، والقاهرة هي القاهرة وليست بيت جدي، على الناس وأنا أحدد صلة قرابة مفهومة بهم، خصوصاً الأعمام وأولاد الأعمام والعمات. تصوري من واحدة معزولة أُجبرت على التحول سريعاً إلى تلميذة نجيبة للحضارة، كأن أقول مثلاً إن هؤلاء المرابطين في المطار بجلابيبهم الفضفاضة، وقد أخافتني من رائحتها، هُم أهلي بلا شك، كأن أفهم كلمة "أهلي" كابتعاد تام عن وجهي بابا وماما ووجهي كما كنتُ أتخيله. لهذا فقدتُ صورتي لأعوام تالية وتهتُ باحثة عنها في وجوه الآخرين، أن أربط الغائبين ابتداء من الآن بالموت كابتعاد عن الابتعاد، كذلك كأن أفهم كلمة ستي التي طالما سمعتُها على لسان أبويَ في أحاديث كانت عنوانَ نسيانهم لي، أن أفهمها أخيراً كجسد حيَ لا مجرد صوت

في شريط كاسيت، لا كتمثال. لما انتبهتْ إلي أم كلثوم، جمدت في مكانها، فَكَّرَت ماذا تُحب أن تفعل أولاً، ورأيتُ السؤال في عينيها: مَنْ أنا؟ وممَ خُلقت؟ كانت نظرتها تمسحني وتقيسني بالشِبْرِ، انتظرَت ولم تأتِ بأيَ ردَ فعل، بينما انجذبتُ إليها دون إرادة، حتى قَرَّرَت أخيراً احتضاني.

في أول بيت لي في القاهرة، لم أستطع أن أنظر حولي وأدقق، مع أن أم كلثوم قالت إن هذا بيتي وحدي بعد عُمرٍ طويل تتقاسمه مع جدي، جلستُ حين طلبوا مني أن أجلس، رفعتُ وجهي إليهم حين سألوني أن أرفعه، لم يكن عندي ما أحكيه عن نفسي لما زارنا الضيوف أول يوم وأمروني أن أتكلم. رقدتُ مثل كلب أليف جوار محمد علي وهو تحسس رأسي وأخذ يتلو الفاتحة والمعوذتين وآية الكرسي، كان يحاول أن يَحميني ضد الشرّ المرئي والشر المُختَجِب، صار يحزن باستمرار لأنه لا يقدر على فعل ذلك كما يجب بعد أن فقد بصره، أما أعمامي، فهُم أولئك الذين تعرَفتُ إليهم بطول بقائهم في بيتنا مقابل رحيل الآخرين الذين يأتون ويذهبون على طول الأيام، أنا الآن يتيمة، وعلى الجميع أن يعطف علي، هذه نصيحة الجيران لأهلي، واسمي الجديد، في الأيام الأولى لي هنا، بالكاد سمعتُ كلمة "مريم" على ألسنة الناس، كان الغرض الحقيقي من وراء اقتران ذكري باليُتم غرضاً نبيلاً، تعويضي

الحرمان الأبدي من أبي وأمي، ذلك الذي لم أكن قد عاينته بالكامل بعد.

ما تعرفينه الآن ببساطة هو ما كُنتَ أعرفه بالتقسيط كلما خطوتُ إلى قلب هذه الحياة الثانية، تيَتمتُ مبكراً جداً، ففقدتُ أبويَ تقريباً منذ لحظة مولدي، وأصلاً ذكرياتي عن طفولتي هي ذكريات للمواجهات الوحيدة. خِفتُ من الطريق الطويل الذي سارته السيارة من المطار في البلد وحتى ولجت الصحراء الثابتة التي جرَدت حياتي: "مساكن الضباط". كانت اللافتة واسم الحيَ الأول الذي سأسكنه حتى ألتقيكِ فترَوين لي مأساتكِ معه، وأقول أنتِ أيضاً يا أروى؟ والسيارة تتسحب في الظلام سمعتُ صوت شليمان، مَنْ هو عمي الأكبر، يخبرني أنهم قد اشتروا بأموال بابا بيتاً هادئاً ومعزولاً عن الزحام، يصح لي أن أكبر فيه وأن أتعلم، كي أنبغ وأصبح طبيبة، لأن هذا يعوض الميت في قبره، أن أكون طبيبة يعني إنقاذ الناس من الموت. كان شليمان يَدِبّ بعصاه على أرض العربة المتوترة ويُجبرني على النظر إليه وهو يُقرر مستقبلي. ظننتُ أن هذا الطريق لا ينتهي، وتذكرتُ رواية عبد الله عن ميتتهما بسبب حادثة على طريق مثله، فأحسستُ بالغثيان، عجزتُ عن نوم الهرب الذي طالما أحبني وأحببته، استسلمتُ ليد ستّي وهي تدلك رقبتي برفق وتأخذني إلى صدرها.

لم أتشمم شيئاً، وعندما انشغل الرجال في كلامهم باللهجة الصعيدية التي لم أحبها قط، كنتُ أسمعهم بوضوح دون فهم، وأحس بالمزيد من الخوف. تمنيتُ لو لم تتدخل الشرطة السعودية بأن هدمت الباب الحديدي، تمنيتُ لو نمتُ هناك ببساطة حتى نهاية الطريق، تنفستُ بصعوبة على ثدي جدتي، أحسستُ بها تضغط يدي ضغطات متتالية ومحسوبة كعقارب الساعة، كانت تهمس لي وسط كل ذلك الخراب: "متخافيش"، وقد أردتُ بصدقٍ يا أروى أن أصدقها.

لكن تصديق أم كلثوم كان فوق قدرتي البسيطة ومازال، لأنها في الليلة الأولى قررت أن تنام إلى جواري، ما تمنيته مع ماما وحُرمت إياه تحقق لي هنا. جهزَتني بأغطية وزنها أثقل من وزن جسدي النحيل فتعرقتُ بمجرد أن رفعت يديها عني، احتضنتني ثانية طالبة مني أن أهدأ وأنام بلا قلق. أذكر حكايتها جيداً، غصباً عني، كان صوت الإذاعة المصرية يُعلن بث حفلة جديدة لأم كلثوم المُطربة، كُنا قبل منتصف الليل بساعة واحدة إلا خمس دقائق حين رأت أم كلثوم جدتي أن تُطمئنني بتحرير قصتها مع أم كلثوم المطربة الشهيرة في مصر منذ عشرات السنين.

أغمضتُ عينيَ فرأيتُهن قد الْتمَوا حولي، قررت كل واحدة منهن أن تحكي للأخرى حكايتها، اشتبكت الأصوات وتهتْ بينها، ثم خفق قلبي حين هبطت

الفقاعات الملونة علي، تُعلمني أنني لستُ وحيدة مجدداً.

كان نِفسي يكون لي بِت يا مريم. كانت تبقى البِت سرَي وجدك قال لي بنت واحدة من صُلبي تخليكِ طالق يمين تلاتة. قعدت في الأرض أبكي لربنا وأقول له لو جت بِت واحدة أنا أتشرد في الشوارع وأنت يرضيك الظلم. زمان شردوني في الشوارع بسبب أني بِت وأن أبويا سمَاني أم كلثوم. سلَام الله يرحمه كان كيفه بالساعات يغني للحبيب. لا كان يشبه حد ولا كان يشبهه حد. كنت وسط عشر رجال في البيت الكبير وأمي جنبي. بِت وحيدة وهي تقول لي الرجال رجال والبِت بِت. وسلَام لما أبكي يضمني لحِضنه ويقول لي لا يمكن أحب حد زي ما حبيت أم كلثوم. كان يقصد دِكها صوتها يجلجل في البيت كله وفي البيوت حوالينا. نهار أشوفه يبكي وهو يسمع صوتها. ونهار أشوفه يضحك ويضحك لحد ما روحه تروح عليه ويسقط على الأرض من الخمى.

في المنام لم تكن أم كلثوم تُشبه نفسها بل تُشبه شادية الممثلة. ليست مغرورة كما رأيتُها لاحقاً في الحفلات والحوارات المُسجلة، جاءت وجلست إلى جواري وبدأت تُناولني حكاية سلَام الذي أحبَها كما لم يُحب أحداً. الحُب هو شيء لا يمكن اختياره يا مريم، لا المُحب يختار ولا المحبوب، الناس في القرية يعرفون

وبإمكانهم أن يقسموا لكِ، أن سلَام حسب الغُرف كان مجنوناً منذ زمن، يعني أنه كان مهيّئاً للحُب منذ زمن، معركتكم مع الله فاذهبوا إليه لحلها. اسألي جدتكِ عن أم سلَام التي ظلت تُخبئ كفنه أربعين عاماً بعدما ولدته حتى مات وأراحها من الحِمل، اسألي الفلاحين متى دَبّ سلَام يده معهم في الأرض؟ ثم اسألي أم كلثوم كيف كان لأمها أن تحمل عشرة رجال في ثلاثة أعوام فقط من زواجها؟ الحُب عمل الله يا مريم.

لم يكن لأم كلثوم الصغيرة ذنب في هذا كله، مثلما لم يكن لي أنا أيضاً ذنب. كان يمكن أن نصير أصدقاء في زمن آخر، نلعب معاً، نذهب معاً كي نتعرف إلى أروى. أم كلثوم طفلة عندها أربعة أعوام فقط، تغسل وتمسح في البيت الكبير. قبل أن تُولد كان يُسمع أبوها في الليل يدعو الله أن يرزقه ببنت واحدة كي يمنحها اسم حبيبته، فيقترن اسمه باسمها في الحياة والممات. أم كلثوم سلَام. تكون هي بهجته الوحيدة. ليس حباً لمطربة فقط، ليس حباً لغناء، هل تفهمين يا أروى؟ كان سلَام يُحب أم كلثوم كما أحببتكِ أنا يا روحي.

وهمسة ستي في أذني وأنا أرتجف: "حبيني أنتِ يا مريم".

لأن أحوالي ساءت كثيراً مع الأيام، بات جدي في غرفتي على الأرض كي يقاتل من أجلي الجن الطائر الذي كان يتخفى في هيئة الفقاعات الملونة ويُسبب لي المرض، المرض غير المفهوم الذي لا معنى له. "حبيني

أنتِ يا مريم". كلمة كانت تُنفث في جسدي فترفع درجة حرارتي ولا تقدر أم ملدم، سيّدة الإبراء من الحُمى، أن تهزمها أبداً مهما طالبها جدي، ومهما حاولتْ أن أمتثل. حبيني أنتِ يا مريم. لأن سلّام لم يُحبني، لأنه لم يُحب في حياته كما أحب أم كلثوم، لأنه كان يظنها تستطيع أن تُحبه أكثر مما سحبه ابنته، خطأ، لن تُحبه أم كلثوم أكثر مما تُحب نفسها. بعد أن شبّ الرجال متنصلين من أبيهم بعد ما أعلنوها له صراحة، لم يعد لسلّام من سيرة في البلد غير سيرة أم كلثوم. كانت قد نزلت إلى القاهرة، تُحقق خطوة خطوة نبوءته لها بأن تُصبح أكبر مطربة في مصر على طول كل الأزمان، حتى من قبل أن يشبّ أولاده، كانت سيرتها على لسانه مقترنة بالحزن، لكن لما وصلت أم كلثوم الصغيرة إلى حياته فيما يُشبه المعجزة، وهو الشيخ الكبير الذي لم يعد يرى كف يده، أحس أن الله أخيراً أحبه، رأى معنى لكل هذا العذاب، ستتعاطف الصغيرة معه حقاً، لا بد أن الله حكى لها عنه قبل أن يخلقها. يُحس أنه سيلقاه قريباً، فلم يعد يتنبه إلى موضع كلامه، صار يُوجِهه كله إلى الصغيرة، أراد أن يُحملَها ذكرياته القليلة مع حبيبته كي يموت مرتاحاً.

إذاً، كان عليَّ كما ترين أن أحمل ذلك كله منذ الآن وإلى الأبد، ساعتذاك كان ظهري شبه مستقيم، ثم لمستني جدتي فأحنيثه وشيلث. لأيام لم أفق من الغيبوبة، وحدث تالياً ما حدث من قبل، فقدث العالم

الحقيقي كله، ونُقلت إلى المستشفى، أجهدتُ الممرضات معي من غرفة إلى غرفة ومن دواء إلى دواء، تحوَل جسدي إلى قِربة بالية من كثرة الثقب، حتى أوردتي هربت من جسدي، ومع ذلك لم تعتقتني أم كلثوم. نادتني دائماً بأمل حياتي، فقد صرنا أقرب بعد أن كشفت لي السر. كانت تجلس تحت سريري الحديد في مستشفى السكة الحديد، وتروي لي بالتفصيل كيف عذبها الجميع، أبي وأبوها، وأمي وأمها.

ثم بدأ النساء يدخلن، يتحلَقن حول جثماني، وأحاطت بي الأجنحة.

جاراتنا على السرائر، المرأة الآسيوية العريانة وبيدها أميرات ماريو الساكنات والملونات بلا حضوره، ثم طبعاً العازفة، ظلَ للعازفة مكان مخصوص بينهن جميعاً، إذ تقفُ بشموخ يُشبه أبو الهول في الصور القديمة جداً، قبل الحملة الفرنسية، قبل كسر أنفه على يد نابليون، أغمض فأذكرها تحمل الأوبوا على يدها كرضيع أو كوردة، العازفة كانت وردة النساء في حياتي، أشم عطرها في ابتسامتها المتواطئة مع كل أفعالي مقدماً وعلى بياض، الأخريات كُنَ ينضممن مع الوقت إلينا، خرجن من الأحلام ومن الخيال ومن الواقع، الواقع الذي هو أسرَة المرضى حولي، أمهاتهن وأخواتهن وزوجاتهن، تكوَن لي عالم كامل بلا رجال.

في العالم الحقيقي، انفصل اسمي عني، تواثب وحيداً من صفٍّ دراسي إلى آخر، حصلت على الدرجات

المتوسطة بفضل ما دُفع من إرثي الكبير لأنجح، وأكبُر، بينما أنا ممددة على ظهري فوق الملاءة. لم أخسر عاماً واحداً من أعوام الناس، وفي الوقت نفسه، حظيتُ بسجن انفرادي مع الألم. آلام متنوعة كنتُ أكتشفها من ساعة إلى ساعة، تلتف حول نفسها كحيّة وتضربني، تسرح على عظامي وحول أصابع كفي ورِجلي، أحس بها تتحرك وتلحس أعصابي، أرتعش، أحكي للممرضات فلا يُصدقنني، كنتُ أقول إن بيت الحيّة في بطني، ولم تقدر صور الأشعة على إظهارها. مع الوقت تدربتُ على معرفة مواعيد الوجع، وبالتقادم لم تعد تُفزعني، أمست الفقاعات الملونة قطعة من كل مشهد أمر به. في هذا العذاب الرحب، رأيتُ قرابتي الحقيقية بسلَام.

كان سلَام يُحبها بحق، أعني أم كلثوم، قِبلة هذا الحُب. إذا ما طلب مثلاً شربة ماء، فمن يدها بالذات، تُكلم نفسها بصوتٍ عالٍ أنه هذه المرة لن يفعلها، وتناوله مُتهيّبة، تستعيد نفسها من قربه بسرعة قبل أن يتخذ أي فعل، لا تعي أنه يُخبئ لها الكرباج، أنها حين تستدير خارجة من الغرفة، سثلسع على ظهرها بينما صوته يقول بخشوع: "يا ثومة"، تصرخ من بعده مُرددة: "يا ثومة"، كأن المحبوبة شيطان يركب سلَام. ساءت أحواله مع الأيام، في الأيام الأخيرة خصوصاً، وكانت الطفلة أم كلثوم تمتثل، ماذا كان البديل؟ أمها لا تعترف بوجودها في البيت، لا بلعبها تعترف ولا بجوعها، قالت إنها اكتفت من العيال منذ زمن، كان عند الصغيرة عامان

فقط، وتؤكل نفسها بنفسها، بالساقط من طعام إخوتها الكبار، من الحشرات أحياناً، تخرج إلى الغيطان التي لا أول لها ولا آخر، وتأكل كل ما تمتد يدها إليه، تأكل لو لم تكن جائعة، فهي حتماً ستجوع متأخراً في الليل وساعتذاك لن يكون هناك أي طعام، هكذا كانت تحكي أم كلثوم.

"أنا شفت قهر ولا مخلوق شافه".

لا يسأل عنها أحد ولو غابت بالساعات، ولو اِلتَهَمَها السَبع، ترجع إلى فراشها البسيط تحت أرجل إخوتها الرجال لأنها فقط تخاف من إحساس أن تصير مأكولة بين أسنان الحيوانات في الخارج. "لو مِتُّ، كانت أمي ترتاح"، ثم يظهر سلَام لاعناً أهل البيت جميعاً ويأخذها إلى غرفته، إلى حكايته الكلثومية، تعالي يا حبيبتي، وهي من جهتها تنحني له كي يفعل ما يريد.

في ذلك العالم الذي يُشبه غابة، خلعن النساء ثيابهن أمامي دون إذن، ثم بادلنني نظراً بنظر، عُبِّئت الجدران بصور أرجلهن منفرجة، وصدورهن نافرة، كُنَّ على وضع التلوي يتلمسن أجسادهن وينمن على بطونهن، كأنهن في جهنم، وكانت النار تغويني.

ككوكب الشمس كانت، منيرة ودافئة تثير الأمل ويسبح حولها السحاب، انجذب إلى الحرارة هو البردان على الأرض، إلى صياحهم أولئك الذين يدورون حولها، وهي تمدح النبي كأنها تراه وتميل برأسها مبتسمة، مغازلة، لم تزرها الأغنيات العاطفية بعد، ولا غنّت "أمل

حياتي"، اقترب منها واحترق، بملء إرادته احترق. غاص قلبه في الأرض، أحس أن أصوات الكون كله تتآمر كي تُفسد متعته، العصافير على الشجر، والبقر حول السواقي في ريف بلاد العالم المُشَتَّت، حتى ميونيخ سمع صوت نهرها، حاول ألا يعطيهم أذنه وأن يظل هنا، بكل ما أوتي من قدرة أن يظل هنا، خطوات معدودة على قرب من أم كلثوم.

أبداً لم يفكر في طريق تصله بها.

منذ البداية عرف أنها كوكب حقيقي سيدور حوله كل العمر، وسيبقى بالنسبة إليه مجرد إنسان بسيط مرّ به، كما مرّ بالناس. بعد أعوام طويلة، بعد أن شاخ على ذِكر اسمها وفم الملاك يلمس أذنه كل ساعة: "أم كلثوم أم كلثوم"، على عتاب الأهل الذي تحوّل مع السنين إلى ازدراء ونبذ ثم نسيان تام لشيء اسمه سلّام، وسلّام يمضي في الحياة خاسراً كل شيء، فيما هي تصير مَنْ هي. أم كلثوم. المرسوم اسمها على رأس الصالة العريقة وفي مانشيتات الجرائد اليومية ككوكب للشرق، يتبعها مذيع الراديو خطوة خطوة على الهواء، يُشرِّح فصوص العقد حول رقبتها ويخجل من النزول أكثر، بعد أعوام طويلة هو سلّام يشتري مثل الناس تذكرة لحضور حفلها في القاهرة مطلع شهر مارس بدايات الربيع، يدخل إلى مسرحها خائفاً ومشتاقاً، سنين من الانقطاع والوصل يا ثومة، ولا يعرف أحد ما أعرفه، كان يعرف مسبقاً أنها لن تُميزه، كل ما سيَنُوبه منها نظرة طويلة

مستسلمة لا تأتي من هذه الديار ولا تعرف هي أنها تأتي، نظرة واحدة إليه من بين ملايين النظرات توجهها في ساعة واحدة، سرعان ما تنكسر وتصعد إلى السقف فتكمل الغناء للسقف، كأنها السماء، كأنها ترى الله، وتنساه، كان يعرف أنها ستنساه وأنه سوف يبكي بعد كل هذا العُمر كما لم يبكِ من قبل، سيحزن جداً ويفرح جداً فيجتذب قلبه الموت ذلك اليوم كأمنية عزيزة تناله أخيراً بالتحقق، كان يعرف وقد سعى واعياً إليه، رحل وثومة الصغيرة تلعب على الأرض، لم تسمع الملاك عزرائيل وهو يسأله: "خلاص؟". أصر سلَام أن يضع آخر لقمة من العيش في جوفه، سمعته فقط وهو يجيب الملاك: "أيوة خلاص"، ثم رأت رأسه يسقط على الطبلية الواطئة أمامهما كأن هناك مَنْ كان يحملها فوق ثم أفلتها، اندفعت اللقمة من فمه ومات.

أصبح على أم كلثوم أن ترتاح في شقائها الأبدي، الآن وقد صار مؤكداً، وعلى الأخرى أن تتجاهل الدماء وتواصل ارتقاءها في السماء.

لأن ابنها محمد، الوحيد الذي كان يشبه بنتاً لها بين أربعة رجال في نعومته وطاعتها طاعةً عمياء، سوف يكبر ويحتاج إلى امرأة، وتكون هذه المرأة صدِّيقة، غريمتها المريرة، أمي. ولأن علياً لما رآه إخوتها الكبار تلاميذ الأزهر تنبؤوا لها: "هتتجوزيه وتخلَفي منه باشا مصر الكبير" وضحكوا، حين دق باب الدار في ظهيرة يوم قائظ من الصيف بعد ميتة سلَام الكبيرة بعشرة

أعوام بالعدد، أخذها فور أن لقاها فوق العتبة، قبل أن تغتسل من العرق أو تُزيل من جسدها الشَعَر الزائد مثل كل البنات، لم تتحضر أم كلثوم لعُرسها المُشتهَى منذ ولدث، جرجرها خلفه ثم تركها ومشى وهي في ركبه تحاول اللحاق، في طرقات طويلة ومتعرجة وغريبة لم تكشفها لها الحياة من قبل، تاهت ونسيت سيرتها الأولى وسلَام والبيت الكبير لكنها لم تنسَ أنها الزوجة الثانية، بعد حبيبة أولى وأخيرة، طلّقها علي لأنها لن تُنجب له مَا كان يريد من البنين.

تعرفي جدك في عزّه كان ينام معايا إزاي؟ كان يطلب مني أنحني. ويدخلني من ورا. وهو يصرخ باسمها الستَ الأولى. ثريا. يوجعني ولا أقدر أقول له لا. ولا أقدر أبعد. ولما يخمد على السرير جنبي وينعس يناجيها في الأحلام وأسمع صوت الاتنين مجموع على صوت واحد يقول أنت عمري ويرمي عليا زي كرباج. لو كان عندي بِت واحدة أشتكي لها. كنت أخفَ. لكن بِت واحدة إزاي لازم أولد خمس رجال. إحنا صعايدة. يروح منهم واحد في الغربة وأعيش شاربة ناره طول عمري. وحكمة ربنا بعد الزمن لما فات يبعت لي من السما بِت تشيل عني. وتحبني أكتر ما حبيتِ صدِّيقة. يبعت لي مريم.

قالت إن أمي صدِّيقة كانت تسحب الشِبشِب من تحت قدمي بابا وهُم يتفرجون على التلفزيون، وتهبط

به فجأة على رأس أم كلثوم فلا تعرف أن تحتاط ولا يتدخل أحد ويحوش عنها، ذلك في أيام زواجها الأولى بمحمد، حتى تخاف جدتي ويخلو لماما وبابا الجو فيناما معاً براحة، لأن أمي قالت لأم كلثوم بعد دُخلتها مباشرة: "محمد من الليلة دي جوزي وابني رضَعته من صدري ولا صدركِ أنت"، ثم أخرجت ثديها الأيسر من الجلباب كي تراه أم كلثوم.

كل المشاهد مثلتها لي ستي يا أروى، فكيف كان يمكن أن أصدقها؟

كان ذلك فوق قدرتي البسيطة على التصديق، وهي من جهتها لم تهتم، دامت ترتب الحكايات يومياً سواء أصدقتُ أم لم أصدق، لم تسألني، ولا تفقدت عيني مرّة وهي تروي، كأنها تحكي لحائط، لا يعنيها سوى أن تحكي، لا تعرف لها في العالم شهوة سوى أن تحكي بعد الغسل والكي والطحن والشتم. ظلت تحكي حتى يوم غادرتُ البيت نازلة إلى لقائكِ، ويوم أعود إليها ستستأنف من البداية، كأنني لم أسمع من قبل، كأنني لا أعرف، ولم أخلق إلا كي أسمع، في كل فاصلة وبين البداية والنهاية، كانت تنشر الهدوم على حبال الغسيل وهي تناكف الجارات، تشتم هذه أو ترمي دعوة طيّبة لتلك، حسب المزاج تدعو الله أن يبيد بائع الطماطم الفاسدة، أو أن يبدل بضاعته بالذهب في يوم آخر، تغسل بلكونتنا بالماء والصابون، تبلل نفسها في عز أيام

البرد، فقط كي تغيظ جارتنا في الطابق السُفلي، تُوسِخ البذلات الميري لأبنائها ضباط الجيش.

لو اعترض أحد على أفعالها، لو جرؤ على الاعتراض، لاستحضرت عفريتها القديم ذاك، فصرخت وولولت وشقت جلبابها مُشهدة العالم على نخاسته بغربَها، تصب غضبها على السماء ولا تخجل حتى من شتم الله. كانوا يخافونها جميعاً، تتجرأ على الله جهارة، فما الذي يمكن أن تفعله بهم، هم البشر الضعاف؟ تُغيِّر نبرة صوتها وتستدعي نبرة الجدات اللواتي مِتن منذ مئات السنين ومازلن عائشات في حنجرتها بأحبال مُتربة. خديجة بنت آمنة بنت صبيحة بنت ستَ أبوها. شجرة عائلة لا نهائية وليس فيها سوى النساء، تستدعي قواهن لتبدأ وصلتها الثانية، ترتاح وقتاً بعد النداء ثم تصل إلى محمد علي، أبي، الآن يرحل الجن ليتركها تسترد صوتها الأول، ترثي ولدها بسخاء على صيغة الموت في الغربة تحت عجلات السيارات مدهوساً، وتأتي على سيرة أموال الدية الوفيرة، ولن ترد إليها جسده ولا ريحه، تتذكر عائلتها الكُلية من الأموات فترثي بالمثل سلَام، وأعمامها وأخوالها، لا تنسى أمها فتلعنها، تلتفت إلى الداخل فترى جدي ولا يراها فتشير إلى عينيَه لما كفكفهما الحزن على محمد، وإلى محمد مجدداً تعود بكاء ونهنهة، هنا تُقدِّر أنه يجب أن تحصل على التعاطف، يغلق الناس عليهم الشبابيك ويذرونها وحيدة، لكنها تواصل، تُعاير الله بظلمه، ثم تطلب منه ضحيةً كي

تُحبه، تبكي وتدعو على شكان الشارع، وسكان العمارة، ومن بعد شكان البلد، كانت تريد من الله شيئاً يُثبت ألوهيته، ويُحقق به رغبتها العارمة في إشاعة الخراب.

مرة سَألَت الله أن يُقيم قيامته، بعدها بأعوام قامت الثورة.

كانت أياماً عادية، أتلقى فيها الخيبات كهدايا عيد الميلاد، خيبات في العمل، الصداقة، الحُب، صعود السُلَّم، هبوط السُلَّم، عبور الشوارع المُكتظَّة، السير في الشوارع الخالية، كان خيالي بليداً لا يعرف التدوين بعد، أزم شفتيَ، وأثبت عينيَ في السقف، فيأتي النوم، أنام ست عشرة ساعة دون حلم واحد، دون أن أبدل وضعي، أستقبل العالم وأودعه على ظهري، أنظر كثيراً في وجوه سائقي عربات نقل الركاب، وأحرك شفتيَ دون أن يخرج صوتي "تحرير"، أتجاهل انعكاسي في النافذة البلاستيكية للميكروباص، يصبح إيقاعي هشاً ونحن نقترب من ميدان عبد المنعم رياض، أصغي إلى صوت العجلات على الأسفلت، صرخات الباعة الجائلين، لا أهدأ إلا حين تصلني معرفة ألا مُظاهرة تمر من هُنا، وجوه الناس بلا فزع، لا رائحة للدم، مع ذلك، حين كان ينبغي لأي سبب أن أقطع سيراً إلى مُحيط المتحف، كان سمعي يتهيأ لصوتٍ قادمٍ من حيث لا ترى بصيرتي، بعد الانحناءة الحادَة للرصيف، بعد مشهد عساكر الأمن المركزي، تتكرر كلمة واحدة "يسقط"، ثم لا يعود بإمكاني أن أعرف الهلوسة من الحقيقة، طلقات رصاص، أناس يهرولون باتجاهي صائحين "خرطوش"، كان يمكن أن أسقط بطلقة طائشة، كان يُمكن أن يُشتبَه في أسباب دخولي المنطقة الملعونة، فأموت في المُعتقل، بدا الموت إجبارياً وعتيداً، شاهدتُ ضُباطاً يغتصبون مُتظاهرِات، وخيولاً مُدرَّبة على التحرش بالفتيات

اللواتي يدخلن الدائرة مثلي بالصُدفة، ولا مرّة نجحتْ في تفريق الخوف عن الحقيقة، فقط كنتُ أستمرُ في المسير، أغالب حاجتي إلى الترنح كي لا يُظن بي السُكر، كانت أياماً طويلة وعادية، لا أميز منها إلا مجيئها الواثق إليّ، عبرَتِ الشارع وعينها مُثَبَّتة على وجهي، لم تتربص من السيارات المسعورة، لا أعرف كيف اشتقَّتْ خوفي من العبور إلى الجانب الآخر، لا أعرف كيف عَرَفَتني، وجهها بيضاوي، وشعرها هائش يُشير إلى كل الاحتمالات في وقت واحد، قميص أبيض وبنطلون جينز، قدمان تتحركان بُسرعة كأنها ستنقذ رضيعاً والرضيع يقفُ في الناحية الأخرى من الشارع، ينتظر، ويشاهد العالم بالإيقاع البطيء للأحلام، كانت قد وصلت إلى كتفي، غرق أنفي في الرائحة، عرق وعطر وشيء يخص الجسد جداً، كنتُ أتفرج على عينيها، كلما اقتَرَبَتْ، تُصبح الصورة أصفى، أَخَذَتْ كفي إلى كفها، واستدرات بي، راقصتا باليه في قفزة سحرية أثناء الكواليس، لم يرنا أحد ونحن نعبر، فنَى صوت العالم، بدت اللحظة آبدة، اشتهيتُ النوم على جنبي وأنا أبتسم، سلَمتني للناحية الآمنة، اِلتفَتتْ مرّة أخيرة، زاغت عيناها على فمي الأخرس، اِبْتَعَدَتْ بعد أن قَبَّلَتني على خدي، عاد صوتُ العالم وظهرها يتحركُ إلى مُحيط المتحف، إلى حيث لا يُمكنني رؤيتها، كانت أياماً عادية، أتلقى فيها الخيبات كهدايا عيد الميلاد، خيبات في العمل، الصداقة، الحُب، صعود السلم، هبوط السلم، عبور

الشوارع المكتظة، السير في الشوارع الخالية، هذه أيامي قبل أن ألقاكِ، يا أروى.

كل شيء يتكرر كي يوصل إليك رسالة لا تريدين أن تتلقيها، كل شيء يتكرر منذ كنتِ مجرد قلب صغير ينبض في رحم أملِ. كان طبيعياً أن تأتي هذه الصفعة من حيث لا تنتظرين، كان الطبيعي أن تأتي من الطريق، من شارع شامبليون نفسه، أكثر أماكن العالم ألفةً، لأنه أكثرها تركِكِ وشأنكِ، من حيث مررتِ متوجهة إلى شارع محمود بسيوني قبل أن تتخذي قراراً بالعبور، متجاهلة الفضاء بدباباته وبنادقه، متجاهلة الضباط وهم يحملون المولوتوف خارجين من شوارع لا تعرفين أسماءها. كنتِ هناك ولم تكوني، ورقة شجر على سطح النهر، تفوت العالم وتسبح إلى موقف الميكروباصات الصغيرة، ولماذا؟ كي أعود إلى البيت فقط، كي أعود إلى البيت. البيت الذي يساوي الغزلة ومحاولات كتابة قصائد أضع فيها كل ضجري ومرضي. إلى الفشلِ والبدء من جديد والفشل والبدء من جديد. انقضت حياتي في المحاولة، بجد أردتُ أن أكون شاعرة، أن أكتب ديواناً كاملاً عن المرأة الغجرية، أن أحاول مع قصيدة واحدة عن عازفة الأوبوا، أنقش فيها ما كنتُ أعرفه منذ زمن ونسيته، قبل أن يتم نسياني ولا يعود هناك ما أحكيه عن تاريخها في الواقع، ما كان تاريخها معي، بعد كل هذا الوقت اتضح أنني لا أفهم شيئاً، بعد كل هذا الوقت، لا ينفع وصفي سوى بالساذجة، ثم ظهرتِ أنتِ كأن

الفيلم الذي دوّخني طويلاً بالسعي وراء إعلاناته، الفيلم السحري الذي يَحِلّ العذاب ويُطلق الطيور سوف يعرضونه عندكِ في البيت، سعيتُ أن أصل وأن أرى يا أروى، كان فيكِ شيء من السينما، وشيء من قصائدي، شيء لم أكتبه بعد، لكن هذا لا يعني أنني فهمت، أبداً يا أروى لم يكن يعني.

مثل كل البلد قلتُ إن العالم خلاص تغير وكل ما عليّ فعله الآن هو أن أعود إلى البيت، لأنه لا شيء آخر يُفعَل، بعد سبعة آلاف سنة من بناء الأهرامات، كيف كنتِ ستعرفين أن الحل لم يرِد أصلاً من قبل، أن الحل مازال مجهولاً؟ مَنْ الذي كان سيُغششنا الإجابة الصحيحة وقد غاب الملاك مُتعمداً يومها عن موعد الامتحان، فجأة عرفنا أن الملائكة لا تتدخل في الحياة، وكم آذتنا المعرفة، أنتِ متروكة للتجربة، ستتعلمين الدرس بطريقة وحيدة هي الرسوب، مثل كل البلد لا بد من خيبة لا تُحتمل، وكان لا بد أن تحتملي، أن تتقزّحي بهذا الاحتمال إلى أجلٍ لا تعرفينه، يكون هو العُمر كله. مهما بررتُ لكِ أو بررتُ لها، كانت الحقيقة الوحيدة هي وقوفي عارية قدام عينيكِ تحت السقف بعجز مصب واحد لكل أنهار العالم، مصب يُمرر دون إرادة ولا قُدرة. لدي أعذار لن تصدقينها إذا جربتُ أن أسردها عليكِ يا أروى. يومها، بالنسبة إلي كانت كافيةً عيناك كي أعتبر نفسي صرتُ امرأة كاملة، أن أنط كي أعيد عليّ ملابسي وأغادر منتشية بالانتصار الكبير السهل، لكن بالنسبة

إليكِ لا، سترين أنكِ أضعتِ معي الوقت الذي كان يجب أن تقضينه هناك في الميدان تحت السماء الغامقة، معكِ الأوبوا وجاكيت أسود ثقيل من ألمانيا، تَهدئي قليلاً كي تُغني كي تُسليهم وتخبري عن الألم الذي سوف يمر، والموت الذي سوف يمر، زمن الثورة هنا سوف يخلد بنبرتكِ في القطع والأمل التي وصلتِ بها حالاً من جبال الألب الملونة. من المفهوم أنني صورة بالأبيض والأسود، لن أكون امرأتكِ، ومن قبلها لم أكن من هذا الجانب في الحياة. بالفعل تحجرتُ طويلاً جوار جدي، استسلمتُ لمسرحيات جدتي بالصمت والاعتذار المُقدَم عن خطايا العالم أجمع وقد كنتُ سأفعل المثل مع الشرطة لو أنها حبستني بالخطأ أو بالصواب، لا فرق، كنتُ أستجدي الطعام والمال وسقفاً لا يسقط في الشتاء، حياتي ليست مهمة، وأنا إضافة إلى بلادتي بلا صوت للمُطالبة بأي حب، أنا كُلي لستُ شيئاً.

الصورتان المتباينتان لي كانتا تُبكيان الطفلة الصغيرة التي صعدت إلى طائرة عظيمة في يوم وظنت أنها لن تصل إلى الأرض ثانية لأن السحاب كبحر خارج النافذة لا أول له ولا آخر له، صورة الفتاة المُجنحة الشهيرة بالموت ألف مرة في الميدان دون أن تموت فعلاً، وصورة مُصغرة من أمي عاجزة تبتهل إلى الله كي يرزقها الصبي الذي سيُرضي زوجها، مجرد صبي لن تُرزق به. ظلت الطفلة الصغيرة تبكي، عادت إلى مصر وعاشت حياة ثانية لا تختلف عن القديمة في شيء

لكنها ثمعن في التجاهل. تجاهلتني الحياة وعلَمتني أن أتجاهل نفسي. الآن يمكنني على الأقل أن أذهب. تأكدث من وضعي الأول في العالم وأنا مستريحة جداً لفكرة أنكِ ستغْلقين الباب ورائي بالترباس الهلكان وستنامين في راحة وفي ظلام تام هنا أو في غرفة النوم المواربة، لا أحد يعتدي على خصوصيتكِ، لا خوف لأن النور يأتي من الداخل ولأنكِ متعَبة وعندكِ في الغد يوم شاق من النفخ في الثورة. لماذا لم أفهم وأنتِ ثعيدينني أول مرة إلى ميدان عبد المنعم رياض أنكِ رأيتِ ما رأيثه في نفسي حين ألقاني الطبيب بإهمال لحظة ولدث جوار مئة طفل آخرين؟ عرفتِ آخر الحكاية وقررتِ أن الوقت أثمن من أن تحاولي مع واحدة مثلي. خائبة لن تحصدي معها سوى المزيد من الخيبات. لا أظنكِ تعرفين هذا الطعم، ولا أريدكِ أن تعرفيه. لمَ انهرث؟ لا أدري. قنعث واستسلمث وقلث الحقيقة الأسهل بلا خوف: "أنا عاوزة أمشي" كما تقول طفلة لأمها ببساطة وهي تحتضر.

قلث "أنا عاوزة أمشي" ونحن على الأرض المفروشة بقطعة سجاد قديمة كُحلية اللون بلا أي زخارف، قلث وانتبهث فجأة إلى صفاء اللون فتحسرث، وإلى الشباك المفتوح على الليل يطلّ على طريق يُشبه الذي كنت أجري إليه في أحلامي قبل أن أستيقظ جوار جدي الكفيف. وأنتِ تردت عيناكِ إلى الداخل، ازدادتا صفاءً وبهت لون شفتيكِ الذي اشتعل قبل زمن قصير بسببي،

تصوَري كل الأشياء التي أضعتُها بسبب كلمة، تصوري كيف فجرتُ نفسي من أجل لا أحد. ثم إنكِ ابتعدتِ، تلقيتِ الكلمة بوقفة على رُكبتيكِ مثل ماوكلي الذي تَرَبَّى في الغابة وكانت حيوانات العالم أهله، بالعزَة نفسها وبالحزن وبالحسم. لم تسأليني، يا أروى، لم تجادليني، وقد زادني ذلك من العذاب ومازال يزيدني كلما تذكرتُ، رجعتِ إلى الخلف وأنتِ على الوضع المُهاجم لا أدري أم المدافع، أحسستُ أن رجوعكِ قد وقع فجأة وبالإيقاع البطيء.

أرحتِ الركبتين المُتشنجتين، أملتِ رأسكِ إلى الوراء. أنا أعدتُ إليكِ كل هذا السوء يا روحي. كُنتِ تبكين بصمت، دون نهنهة ولا شكوى كما أفعل أنا في الزعل، تأملتُ ثم قلتُ لنفسي ألا سبب لهذا البكاء، ومجدداً صرختُ في صورتي طفلةً على متن طائرة: أنا لستُ مهمة إلى هذا الحد. ولأول مرة أعياني أن أصدق. لا يمكن أن تتذكر واحدة منّا كم مرَ من الوقت، كم مرَ مهدراً من الليل؟ "ميصحش تمشي دلوقت ابقي للصبح أوضة النوم جوة دفا"، وأضفتِ ما آلمني أكثر شيء: "والبسي هدومك"، تذكرتُ أنني عارية، حاولتُ أن أدراي جسدي بيديَ وقد اغتربتا عني، حَرَّمَتْ كلمتك عليَ ملابسي، حرَمت عليَ كل شكل للجلوس أو النهوض أو السير أو الهرولة، لقد تمنيتُ أن أتجمد يا أروى.

هي أروى. نحيفة بيضاء خفيفة الوطأ على الأرض، تسير في أبهة كريشة في محبرة، ترتدي أحياناً تنورة قصيرة يُطيِّرها الهواء كيف يشاء فتؤكد الصورة دون وعي، صبي صغير في جسد امرأة، شاب لم يخلق الله بمثل جماله يتخفى في جسد أروى، تترك فراغاً كبيراً بين رجليها إذا تحركت، تُثير ساقاها لوعة مَنْ لا يستطيع أن ينام بينهما، أحترقُ بهذا الفراغ حين تجري مني في شقة شارع شامبليون عارية وتُعلمني أن أجري وراءها، أن أحب، ظهرها مشدود جداً تنتظر عضلاته لمسة واحدة كي تصيح، جعلتني أروى أعرف كيف رتب الله الكون.

في صورة جلوسها مُسنَدة إلى الحائط، بينما كان المفترض أنني أغادر، رأيتُ شعيراتها الشقراء موزعة على خطيّ فخذيها، رأيتها ظاهرة ورأيتُ المسام التي تحملها مفتوحة من على بُعد، رفعتُ أصابعي في الهواء وهي تبكي وأخذتُ أتحسس ما بدا لي كمفاتيح للأوبوا دون أن ترى. ساعتها قررتُ أن أبقى، ألا أغادر أبداً، تبنيتُ كامل الحزن الذي نحت الجسد في أوروبا ثم أعاده إليّ. عرفتُ نعمة وجودها وهي تراني ممتنعة ولا تُجبرني، كنتُ في بيتها ليلاً وفي الثورة، لعبتُ معها ثم اكتفيتُ من اللعب، هي التي عاشت في ألمانيا مالت على الأرض، تسحبت إلى الأوبوا النائمة في وداعة بيننا لا تفهمُ كيف أؤذي صاحبتها، سأعيشُ على صورتها وهي في عنفوان بياضها مائلة تنسكب وتنسكب تبكي

وهي تلتقط الأوبوا كأنها تقول للعالم كله لا لي فحسب: كِفَايَة!

لستُ غاية هذا الحزن يا أروى، لكنني أريد أن أصير نهايته. الآن أعلم أنني انجذبتُ إليكِ انجذاب الشبيه إلى الشبيه. لم يكن لي أن أوقف بكاء لم أبدأه، لكنني بكيتُ معكِ ببساطة لأن البكاء كان كل ما بإمكاننا فعله وسوف يبقى على الدوام. ألف صورة تحفظها عيني لكِ في دورانها الواحد حول نفسها، رأيتُ لحظتنا غدنا مستقبلنا حين سنفترق، رأيتُ كيف سأموت من اللوعة وقد سرتُ بخفة على الشرارة كي أعتذر. هي أروى. صوتها ناعم مثل مشيتها وبشرتها وخصلات شعرها، مفرود كأن مكواة دافئة قد مرّت على حرير، فتركت بقصد الذكرى الحرف الكالح على الصفاء. صوتها يُشبه الشال وهي تتكلم في الصيف أو الشتاء، يعرف كيف يرقص في الشكوى وفي الخب، في الحب خاصة حين يتشقلب كي يُفرح ويُمتع. بكت أروى بطريقة لم أكن أعرف عن وجودها في العالم، جعلتني أحصي كل الذين رأيتُهم يبكون في حياتي في التلفزيون في السينما وفي الشعر، لم يبكِ أحد كأنه يُمطر مثلكِ، حتى عضلات صدركِ كانت تورق وتتنبّه معكِ. لهذا كله، تشجعت، راقبتُ اللحظة الحقيقية. نسيتني أروى، لم تُصغ إلى بكائي، انفصلت عني وكدتُ أراها تطير أمامي عبر الشباك وتختفي في الظلام على غُربها دون أن يهمها البرد، كان أكبر احتمال خسارة في حياتي، قد حطمني،

لم أحتمله حتى كاحتمال، لا أقول الآن إن عقلي عَمِلَ كي يكتب لي خطة بديلة أنفذها في الحال، أقول إن حزنها عمل وإن حزني عمل، وإن جسدينا العاريين كانا خير شفيعين لنا في النار.

قبل أن تبدأ أروى العزف نهضث مترنحة، طقطقت عظامي، فتمنيث أن تنفرط أمامها لتسامحني. استندث على الحوائط وجعلتها تشاهد ظهري وأنا أبتعد، لم يكن متناسقاً مثلها لكنه فعل كل ما عنده كي يحميني من السقوط. وكمسافرة على متن مركب في البحر، كنث أهتز، لم أخرج إلى الصالة سوى كي أميل، دفعث باب غرفة النوم وولجث الظلام، في ميلتي، قابلني دفء السرير فأحسسث من الفور أن هناك آخرين لا أعرفهم في المكان، أشباح بالتأكيد لأنني لا أرهم، عَرَقهم الغزير كانت تعلو رائحته، أو كأنهم بشر تنفسوا بحُرقة ثم اختبؤوا ولم يعد هناك أحد. هذه هي الأسباب التي تُعيّشكِ في الظلام يا أروى. صح؟ لم أجادل أحداً، لم أبحث عن النور، أعشيث على الضوء القليل الواصل من غرفة الأوبوا حتى لمسث المرتبة الكبيرة الهابطة، استعرث بساقيَ بطانية ثقيلة تكفي لشخصين كانت تفوح رائحتهما، غلفث نفسي بينهما، وفي التو ارتفع صوت الأوبوا من الغرفة الأخرى يصرخ بأغنية سأعرف لاحقاً أنها لمؤلفة يونانية. أروى تُحبها. نغمة قاسمة وموبخة لكل مَنْ تخلى. لهثث من الخوف وضغطث على أذنيَ راغبة أن أفقد السمع، كدث كالعيال أبلل

الملاءة وصورتها في ذهني تُشير إليَ بأمر لا يُرد: "البسي هدومك".

"تعالي يا أروى". ترجيث بكل ما لي من حياة، كررتُها بانتقام كما يُكررون إطلاق الرصاص على بُعد قريبٍ من البيت، زاد خوفي فتولى رفع صوتي فوق صوت الأوبوا. لا تستسلم أروى ولا أستسلم. "أرجوكي يا أروى تعالي".

"تعالي يا أروى".

كنث قد بدأث أسقط في الخمى، تلفثُ حولي فرأيث رجلاً أسمر بشعر طويل وامرأة بيضاء جداً يتضامان وأنا في الوسط بينهما، فهمث أنهما العزيزان لديها، فطلبث بسرعة أن يتشفعَا لي وهما استجابا وغششاني ما نويث أن أموت عليه الآن.

"يا أروى يا أروى يا أروى".

سكتت الأوبوا أخيراً، أحسسث بها تنزلق إلى الأرض وتنام، كم كنث أغار منها، انقطع الخوف حين تشممث رائحة عرق أليفة تهبّ، كم سأغار منها، عرفثُ أنها ابنة لرائحة مَنْ تنفسوا في الغرفة، تمسَك جسدي بها، ظل يتشممها ويلحسها كالكلاب.

هي أروى. بعد ضمَة المسامحة الأولى طلبث منها أن تفتح النور، أطاعتني بلا تفكير، هَبَطَث عن جسدي فندمث، سرث معها حتى الزر على الحائط. لم أكن أؤجل لكنني أردثُ أن أرى، هناك قالت لي ثانية: "اقلعي". لم أسأل عمَا أجهله كي لا أرتكب الخطأ مرتين،

لم أقل لها إننا عاريتان فعلاً، فهمث أنها تعنيها، أسلمث، لم أنظر إلى أي جهة كي أتأكد من خلو الغرفة حين كانت تنقل عينيها بين جسدي وبين الفضاء، حين أضيئت العتمة عاد السرير بسيطاً مِلكاً لامرأة مهاجرة، خطرت أسئلة وتدفقت إجابات ونحن نخطو إلى برودة الغطاء، وهمستُ له أن سوف تتدفأ بنا الآن. لفتني أروى كما يلفون المواليد الجدد، الفرق الوحيد أنها قبلتني كثيراً وهي تفعل، أنها تأملتني كثيراً وهي تفعل، تأملتني كأنها تلمسني موضع النظر، أحببث لمسات العفو وهي تعدل وضعي على السرير وتغطيني فكنث أترك بشرتي لها أكثر، أبداً لم أخبئ نفسي، ثم إنها اطمأنت إليّ فدلفت إليّ من تحت الغطاء، تلقائياً فتحث رِجليَ، فمرّت برجليها وسكنث لمَا ارتفَعَت كما أرادت، كانت كقبة لهرم أو تاج على جسدي، لم نتجاور إلا أخيراً لما ظهر الصباح وسكتت أصوات إطلاق النار في الشارع، تضاممنا مثل الرجل والمرأة اللذين رأيتهما في البداية لكن على طريقتنا، كانا نائمين بينما نحن يقظتان للزمن أكثر.

"مش هتعرفي تهربي المرة دي".

أتأملكِ يا أروى وأرى الحياة لونها أصفر وأحمر وأخضر، كأننا نعيش في خيمة في صحراء ليس فيها سوانا. أرى وجهكِ نوراً بارقاً وأخفي عينيَ في رقبتكِ لسطوعه، تدهمني الرائحة العرقانة لجسدكِ، تدهسني كالدبابات في الشوارع، فأقول أي كلام: "انتي قفلتي

الشباك هناك؟". تصرخين وعيناكِ تُبرقان: "أنتِ بتحبيني؟". مددتُ يدي اليُسري في مسافة كفين لأن عينيكِ كانتا في طور استعادة البهجة ونسيان البكاء، تقرَبتُ أكثر فمَسَت أنفها بأنفي مُلاعبة، لمستُ بسبابتي أنفها وشفتيها ثم دُرتُ حول كامل الوجه، كما يفعل الناس مع القُدس. كنت أريد أن أصدق أن أروى حقيقة حارَة وحيَة. أروى حقيقة حارَة وحيَة يا مريم. كان بياض عينيها قد صار وردياً من رغبتها فيَ، الحدقة الخضراء تضرب نفسها في الألوان كلها من الرمادي إلى العسلي والأزرق ثم تعود إلى الاخضرار كأن لها إرادة خاصة خارج قانون الطبيعة، ما حدث مع كل قُبلة خاطت شفاهنا معاً، أنا أيضاً كان يتغير طعم لُعابي، وقد تغيَر بعد القبلة الأولى إلى الأبد. تجعلني أروى أرد كمَنْ يغرق في بحر ويبحث عن نجاة: "أيوة بحبِك". انتظرتُ عتابها كالغزل وأنفاسها على رقبتي: "ولو جريتِ تاني؟".

"لو جريت تاني يا أروى عندك حق تقتليني".

ولو أن فكرة قتلكِ لي تُثيرني. تحوَلتُ معكِ إلى واحدة غير التي دخلت بيتكِ، غير مَنْ صعدت الدرج وقالت لكِ: "لا". انحرافة حادة من حياتي إلى حياتي كما تمنيتُها دون أن أدري. هي أروى التي ألمسها، عظامها وجلدها، تحت أصابعي، أحس الذراعين ريشتين، شبكة الأوردة والشرايين الموصولة بالصدر بالبطن بكل ما يدوخني فيكِ ولا أستطيع أن أسميه. ولمَ أسميه؟ تُجنني حاسة اللمس وأنا أكتشف أملَها كما

اكتشفها الإنسان الأول على الأرض مع أول شريك. ازرقت يدي وأنا أبعدها عن وجهها ثم أعود، أنا فتاة ميتة أو على وشك أن تموت، وكان هيكلها يُغطيني وأنا أغلقُ رِجلي تحتها ثم أفتحهما تلقائياً، وهي أيضاً تجر نفسها عليَ وتمسخ نفسها فيَ. أولاً خلَت رأسها بين نهديَ. خلعتِ القميص عنكِ في الغرفة وأنا انخطفتُ حين لاح نهداكِ، ليس لأنني لم أتصور وجودهما، رأيتُهما أجمل من معرفتي، انفتحتْ على اشتهائي لكِ بلا تدرج، ففاجأتْ ذاتي، لم أكن أعرف عن الشهوة لامرأة من قبل، لم أكن أعرف عن الشهوة أصلاً. نهدان صغيران استدارتهما خفيفة تكاد لا تبين من بعيد، كما قلت لكِ صبي في جسد امرأة، وحلمتان بلون لسانكِ، لون اللحم الداخلي، إبرتان تشيران إليَ وتهدداني بجرحٍ شهي، ظللتُ مدهوشة لحظتها، تمنيتُ أن أختبرهما بأظفاري وأسناني وأنفي ولساني، ماذا أيضاً أستطيع أن أفعل؟ أضاعني الفكر فخجلتُ وقررتُ الاختباء. لم أحصل على وقت كافٍ لتحقيق مرادي، أوهمتيني أنكِ ستنامين فوق جسدي، أحسستُ بهما ينغزان قفصي الصدري ويصل النغز إلى رئتيَ، اختلَ تنفُسي.

هي أروى. جعلتني أتذكر معنى أن نكون عاريتين كل هذا الوقت، في الغناء وفي العتاب، في الرصاص حين يزداد صوته في الجوار جداً، في وقت آخر، كنت قد قتلتُ نفسي من الخوف ومن البرد، أنا يا أروى طالما ارتجفتُ من الفكرة فقط. في البداية، حرَكني الحزن

وأنتِ تفتحين لي الباب وتُدخلينني إلى ظلامكِ، حركني في اتجاهات لا أعرف أين هي. لكن أنتِ قبضتِ عليَ. الآن لكل ما عندي قيمة عُظمى. رأسها المتآمر لم ينم، بدأ لسانها يداعب نقطة تعرفها منذ قديم وسط صدري، إن هنا الروح، شحبث وتهاويث وهي تواصل تنقيبها في جذوري، عَضتني برقة فتمنيث أن تعنف، كانت تحاول أن تستخرجني، أضأل مقاومة تُخلف رئة عملاقة في شبكة أوردتي يا أروى، تقبضُ أروى بأسنانها على النقطة فأسمع دمي في أذني يفور ويطيح كبحر من بلد إلى بلد داخل رأسي، أتحطم أكثر، أقاوم ولا أستسلم، أتخبط وأبحث عن عينيها كي أهدأ، أصرخ عليها: "بصي لي"، لم يملِ أحد عليَ ما أفعل ولم أخف من خيبة، لأول مرة أتلوى وأجري إلى الغابة.

"بصي لي يا أروى".

يرجف قلبي ورأس أروى تصعد إجابة إلى طلبي، ليست هاتان عيناها، كبيرتان جداً كالشمس في رسومات طفولتي، كبيرتان جداً ومُخيفتان حتى أنني أردث التخفَي فيهما عني وعن أروى نفسها، ولم تكن تُمهلني، عادت الشمس صغيرة وصادت بمفردها صدري، أخذ قلبي يدق مخلوعاً، لم أقدر على الحركة ولا الرؤية، أغمضث وتركث نفسي أذهب، واصلث الذهاب في زمن واسع، لا حد له ولا بداية، كم كانت حياتي قصيرة، كم ستكون قصيرة بلا معنى سوى هذه اللحظة.

"بِزَك".

تحوَّل جسدي إلى قلب، قلب بحجم إنسان مهول يدق على وقع الكلمة من لسانها، تلويث بينما كانت جهنم تطقطق متفتحة من العمق فيَ، لا أقول في جسدي فقط، لو أن هذا الكيان شيء أكبر من الجسد، فأقسم أن هذا الشيء الكبير يحترق، يحترق ويحترق طالباً أكثر. نار أخرى في عينيها حين فتحث عينيَ لها، نار بحطب وملائكة عاملين على اللهب، أقسم أنني قد شفث، في اللحظات القليلة التي قدرتُ فيها على أن أرى.

"بِزَك يا مريم".

لذتها الخفيفة من الكلمة. علَمتني أروى أن أستخف باللذة وألا أكتفي منها، أنا بين رجائي لها بإطفاء النار ورجائها بالمواصلة، كنتُ أتلقى شيئاً جديداً عن العطاء اسمه الإفراط. "خليني أرضع من بزِّك يا مريم. أنتِ أمي". كان ثديي عندها فعلاً. يعني لا ينقصها الإذن، لكن في الذي منحته ساعتها، كان يرقد تاريخاً منفرجاً من حياتي، لا اسم آخر له في الدنيا سوى الثورة. قلتُ لها: "أنا بحبك يا روحي ارضعي مني". أحطتُ وجهها كله بكفيَ وقرَبتُها. مع اللفظ كنتِ تستعيدين مصريتكِ من العالم يا أروى. صح؟ صح. مصرية منسيَة ومكشوفة الوجه بلا برقع ولا حياء. صح؟ بالتأكيد. تأكلين من رحمي وتتوجعين. "أنا بحبك". كم مرَة استمعت هذه الغرفة لكلمة أنا بحبِك؟ كم عاشت ناس وماتت دون أن تسمعها هكذا صريحة ومُريحة وغير قابلة للاحتيال.

على ناصية في ممر جانبي من شارع شامبليون، تقف هذه العمارة منذ أنشئت أول مرة مُتبرئة من قسوة وسط البلد، تاريخها الأعور، هنا حيث بالقرب مَنْ يموت جائعاً، كي لا يموت برصاصة، ومَنْ يموتون برصاصة كي لا يموتوا من البرد، وحيث مِت أنا، ومِت أنتِ، في أعداد لا نهائية من البشر الآخرين الذين لم نكونهما لخسن الحظ ولسوئه، وصلنا هنا معاً. كُلي يا روحي. أحس أن طعامكِ يخرج من بطني يا أروى وتطلع روحي، سأنعي بحزن كل الموتى بلا حُب في العالم.

"ادخليني يا أروى".

لأن ما بيننا سوف يخلد، لتحمله الحياة بين ذراعيها كطفلٍ بلا أشقاء لن تكف عن تدليله. بينما سمعنا صرخة أحدٍ ما في الخارج، أحد وحيد، توقف بعد جري بدا أنه طويل وآتٍ من شارع بعيد، ربما يكون هو محمد محمود نفسه، أو ميدان التحرير وربما من عند دار القضاء العالي حيث التقينا أول مرة بتدبير مُسبق، جعلنا السمع نرى كيف قاسى في الطريق، اختبأ في مدخل عِمارتنا بشامليون، كان خائفاً من آخرين يتتبعونه منذ سنين، ثم ظهروا وكانوا كثيرين، ومثله خِفنا، وصلوا وتلفتوا حولهم حائرين أين يكون، خُرس لا يطلع لهم سوى صوت دبّة بياداتهم العسكرية على أرض بلاط الحوش. يُفزعِون العصافير في ميونيخ. رأينا العِناد والجبروت والإحساس أنهم فوق البشر، لم نرَ من أين اكتسبوه، فقط خِفنا، كشفوه، التفوا حوله وأسقطوه

بأرجلهم، فعلوها ببساطة كأنهم يكسرون لاعباً في فريق الأهلي كي يستعيدوا منه الكرة، رأينا توهانه بين جدران السجن الذي أسسوه بأجسادهم، خبَّط برأسه على عظامهم هنا وهناك، وطبعاً لم يُفتح له، رأى الشماتة في أفواههم تنزل مع اللهاث، رأيتهم ككلاب حراسة مصروعة، عرف أن ما أرادوه له سوف يتم، فقاوم المقاومة الأخيرة، مقاومة الشرف، لم يستطع أن ينجو وقد فعل كل ما بوسعه منذ آلاف السنين.

"ادخليني يا أروى، لا تخرجي مني ولا تُخرجيني إلى العالم".

لو كُنا فتحنا شباك الخشب المغلق منذ عشرة أعوام، لشهدناه وهم يصفعونه بالتناوب، وهو يتكبر على الصراخ، لا يُحرر منه سوى خضّة جسده وشهقته مع كل لحظة تَصَوَّر أنهم سيكونون أقل سوءاً من أن يهينونه هكذا، لشهدنا واحدهم يُخرج سلاحه الميري، يلصقه في مكان حميم من جسد الأسير، ثم يطلق ست رصاصات متتالية، مع أنه سقط من الرصاصة الأولى، سقط من اليأس لا الموت. لم تخف أروى مثلي، شاهدت قبح الحياة هذا مرة من قبل ولم يعد هناك ما يُفاجئها، احتميث بها. اليد إياها تتبعت الجسد في سقوطه، انحنت عليه أرضاً وواصلت التصويب بأمانٍ، مع أنه مات. كان فعلاً قد مات. على زُقادي تحتها، على قلة حيلتي، سألت مستفهمة: "مات؟"، وهُم جرّوه إلى أكياس الزبالة على الناصية الأخرى من البيت، اجتمعت

الأرجل تتحرك مهزولة كقطيع كلاب أجهدت كي تنتصر على فأر، جزّوه هؤلاء الذين قتلوه إلى بعيد عن شباكنا دون حتى أن نطلب منهم. أين هو العالم يا أروى؟ ما حدث لم يُخف أحداً سواي، كان الأسهل أن أكذِّب نفسي فكذبتها، كما أن أروى لم تُمهلني، استعرَ جنونها فصارت تبوسني مهتاجة وتلحسني وجسدها يرتعد مُلتمعاً بعرقه الغزير، خِفت عليها حين انتصب عودها على السرير، مثل سهمٍ أعادت هيئته البيضاء وتقاسيمه الدافئة محبتي لذاتي، خفت عليها فناديتُ ثانية: "يا أروى؟"، رأيتها خالصة كساعة وُلدَت بالتمام، عليها احمرارها الأول وفيها نفور العروق ذاك، كانت عالية جداً حتى خلتُ أن رأسَها ستخترق السقف، من هناك ببطء، هبطت إلي، حتى استوت على رُكبتيها، كانت تنهج وهي تباعد بأصابعها بين رِجلي، وبالمثل ساوت بيننا، ففتحت رِجليها وألصَقت موضع قُدسها بموضعي، داخت وشهقت من أول لمسة، أبعدت عيناها عني وأنا أغمضتُ، وأخذت تهرس حبة نارها الصغيرة بحبة ناري. "مش هقدر أتحمل يا أروى"، قلتُ لها فأجابت بأن اهتزَت على جسدي بقوة كانت تكبر وتكبر. "قولي لي بحبك يا أروى"، "بحبك يا مريم"، كانت تدقني كما يدقون القمح في الأرياف بالشدة نفسها والأمل، تألم وآلم، نحن لم نفتح عيوننا ولم نرَ.

# أنا أروى يا مريم

كُنتِ على رصيف المحطة. رابطة شعرك ذيل حصان معووج تتأملين في الأفق وتبتسمين لنفسك. لا تعرفين أنكِ تبتسمي لنفسكِ ولا حد قاعد قربكِ يوصف لك ملامحك. ساعتها عرفت أنه ليس لكِ أم، ليس لكِ حبيب ولا أصحاب. أنك معتوهة ولا تعرفي لِسَه كم أنك جميلة في هذا العَتَه. جميلة وفي العالم مفيش منك اتنين. تصدقيني لو قُلت لكِ؟ حلفت أنه ضروري يكون معاكِ آلة موسيقية تعزفي عليها وتشيليها في كيس محجوب عن الناس أو فرشاة ألوان تعملي لوحات. لما وصلت لي عيناكِ، بقيت عندي للحظة من غير خوف. لاعبتني بشقاوة قُمت أنا خُفت وتَوَلَّد من خوفي ابتسامة لم تستأذن قبل ما تطلع على وجهي. كان فيكِ شيء يلمع ولا يعرف ملمس نفسه. خلَى جهلكِ به لمعانه مضاعفاً، وأنا اشتعلت من الجهل ومن الشقاوة. هبطت من عربة المترو ناسية ما جرى مع العسكر كأنه ما جرى، رجعت فجأة بلذة أكتشف أني في مصر. مصر قديمة جداً لاقيتها لزمن قصير في حياتي واندثرت ويمكن حتى لقاها مجرد تهيؤات. بددث شبابي وأنا أبحث عنها. كان عندك مصر تانية أشتهيها بلا وعي. فجأة افتكرت إن مصر غير ميونيخ لا تنفع فيها الشِحاذة بالموسيقا وأنتِ لو كان عليكِ كنتِ عاوزة تكملي لعب للصبح. مجرد لعب وتجري. قادت أعصابي نار ومشيت إليكِ. أنا

عمري ما عرفت واحدة مصرية. حسيت بالرعب من نفسي ومع الرعب حتى ما قدرت أنزل عينيَ من عليكِ. أنا قبلك حبيت. أعرف يعني إيه حُب؟ أعرف إزاي أحبَ؟ وأعرف أحسن منك إيه معناه في مصر؟ لكن أنتِ زي وردة بيضا هتتفتح في الربيع الجاي. عنِدك الوعد بالحياة وأنا أخاف عليكِ مني. كُنت أخاف عليكِ مني. وكلما نطَ في بالي الخوف، نطَيتِ أنتِ قدامي تهتفي في مظاهرة إننا ممكن نعيد شريط الحياة من الأول لأنك تعرفي الطريقة. سألتيني عن الأوبوا وجاوبت. كان يصحَ أفتح لك الباب وأدعيكِ تخلَيني أبطل بيات في الشوارع. لما قلت لك: تشبهي حبايبي، اخترت أقاوح الحقيقة أني شُفتك هنا في البيت. عريانة وملفوفة بجسمي. نار قادت فيَ وتلَهوجَت أنفاسي. زي الأوبوا كلما نفخت ارتفع الصوت. انجرفت يا مريم انجرفت وهويت.

يا مريم، بيت شارع شامبليون هو بيت كان مُفترض أن أولد فيه أيام سجلوا في الصحف الأولى اسمي الصح أروى ميشيل. لا أروى صلاح. وبعدين خلق الله الناس وغيّروا الأقدار. خلق الأديان والظلم وخلق مصر وعمل لها جهاز الداخلية وبنى صلاح العدل وأهل أمي جعلهم مسلمين. الحل الوحيد لهدم المعادلة المخالفة للطبيعة كان أن تنتحر سارة وهي حامل فيّ. أما القدر المخصوص لعقم ميشيل، فمِن قبيل فساد الذمم. تصوَري لو كُنا مِتنا كلنا بنفس الطريقة! نطلع إلى سطوح العِمارة ننادي على البواب الجبان نضحك له بعدين نطير بسرعة صاروخ. جائز تُفزِعه جثثنا المُتكوِمة على الأرض وسايحة في دمها. جائز كان يحس بالذنب. الحكاية التقليدية يا مريم. سارة وردة البنات في الجامعة. مَملوكة ولا يهمها من العالم شيء. تمشي في الصيف بتنورة على اللحم من تحت وقميص بلا أكمام لونه أصفر أو أخضر أو أحمر. تمشي غير مقصودة بالدلع. غير مقصودة بالناس. أحياناً تفتح صفحة من ديوان الشعر وتمده قدامها كأنها ماشية على سطور القصائد مِش على تراب الشوارع. يفوتها أن تلاحظ الناس وهم فاتحين أفواههم على ريحها مُتعجبين. يصدقوا أي شيء إلا إنه في القاهرة ستّ ممكن تمشي بالبساطة. ويقولوا عنها كما يقولوا عني أكيد مش مصرية. وعندهم حق. يحكوا إنه لما نابليون وصل مصر مع عساكره واحد منهم هَرِب. عَشِقَ واحدة

من جداتي تعلَّم عربي وتنكَّر. صار اسمه مُسلم. شاب حليوة يموت بدري ولا يترك منه ذكرى سوى عينيه الخضرا زي دمغة على ذريته وجسده الفرنسي. كان لسارة نصيب كبير من الإرث وأخذت أروى من بعدها القليل. الحُب. لما ميشيل علّمها الحُب. بس سارة أجمل من أروى يا مريم وتشهد ستّنا مريم في الصورة على كلامي. سارة لم تخرج من مصر، لم تهرب كما عملت أنا، حتى وهي ترى مصيرها الأخير يناديها كل يوم بشوق أكبر. كانت تقرا لبروست وكوليت وآخر اليوم تحكي لزملائها عن فيلم صوَّره جودار وانبهرت به. تتكلم من أنفها عن الفيلم. أن تعيش حياتها. ويصرخوا لما يشوفوا صورة البطلة وشعرها القصير زي سارة. ويقولوا لنفسهم. سارة أحلى من النجمة. يتلصصوا في الصور على جسدها يلمسوه كما لو ممكن يلمسوا سارة. يستمنوا بالخيال على مَنْ هي رهيبة في غُربها وقتلتها رصاصة طايشة وجبانة كما سيحصل مع سارة.

في الصيف، تربط شعرها بفيونكة وردي أو لبني. تحميه من تراب المصانع ودخان السجاير والضباب. تختار ألوانها بتلقائية مهما حلفت بها لن يسامحها الناس. في الجامعة سارة ست البنات تقف تحت الشمس من غير مظلّة. تقف وتضحك وسط زميلاتها للكاميرا. وهي في الحقيقة لا ترى الكاميرا ولا ترى الزميلات. يقولوا عنها في الغياب مغرورة. تُخفي كسوفها الذي تمارسه بترفع من أنفها ويأخذ رأسها ميلة

كأنها على وشك أن تبتسم ولا تبتسم. تترجينها أن تفعل كي تطلق المحبوس في دمِك. أقصد المحبوس في دمها. أعرف عنها لأني كنت أعمل مثلها. مازلت أعمل زيها كل مرَة أجد أني محبوسة جوة نفسي وأتكبَّر على الصراخ. كما فعلتِ يوم المترو كما عذبتيني. كما عزفتْ في المترو وسط الناس كما عذبت العساكر. شوفي الصور! الحقيقة أن سارة تحس بالملل من فكرة المحاضرات. كان يمكن لها أن تكتفي بالقراءة في البيت وحيدة. كي لا يُوجَه إليها أحد أسئلة لا تريد أن تعرف إجاباتها، سؤال عن العصور الأدبية أو عن الأصل من كلمة أو قاعدة نحوية. سارة كانت تعرف كل شيء بالإحساس واللسان لا يمكن أن يترجمه.

يوم نامت في القاعة المُعتمِة بعد ما غادر الأستاذ والتلامذة. لم يكتشف أحد البنت المنسيَة ولا التليفونات كانت تقدر توصل لها كما وصلت لكِ أمس. سَها عامل النظافة البسيط عن جسدها المرمي بين الصفوف. "حلمت إني في بحر عميق ومش قادرة أغرق"، فتَّحت سارة مفزوعة على الضلمة والحبسة وعلى عينين سودة تبص لها وتبحلق. "قُلت له أنت مين؟ ملك الموت؟ وهو انخضَّ مني: لا والله أنا ميشيل. أول مرَة شُفته شخص مسكين وأبداً مش ملَك". نظرت سارة لميشيل نظرة فهمها هو كاستحقار فقرر يعطيها محاضرة مثيرة أكتر من محاضرات الجامعة: "بنت الحسَب والنسَب كان ممكن تموت

مخنوقة هنا لولا ميشيل النجّار وأنتي تزدريه دلوقت". فتح لها باباً كان مقفولاً من قبل. يودي للجنينة. في حيلة سحرية من الخشب المتربس، وأعطاها ظهره. تركها بعد ما اندلقت شمس العصر كلها دُفعة واحدة على توبها الشفاف. حرقت جهنم عينين سارة بنت الذوات كأنها عُمرها ما شافت شمس.

نادت عليه. يا نجّار. طلبت أنه يرجع. بَس حتى تقدر تواجه القرص المولَع لوحدها. حتى تصدق إنها رغم الحلم تعرف تغرق زي كل الخلق. كان هزيلاً جداً وأسمر وشعره طويل مربوط خلف رقبته. "كان عنده حَدَبة نادر إن حد غيري لاحظها وعرجة خفيفة، كان عنده رِجل من خشب يا أروى". ماشي في ابتعاده عنها يَزُك ويَزُك لا يستند إلى عصاية ولا ولد. "كان في سننا يا أروى لكن أكبر بكتير، كان أقدم شخص في الحضارة". واحد من بُناة الأهرام الغلابة. المأمور بتركهم للموت لما يسقطوا تعبانين عن السقالات العملاقة. ويُصر فرعون على المواصلة. "كان مشيه على الأرض أعجوبة وأنا روحت وراه". لما وصَلت للنور كان هو اختفى وسارة سار عندها دليل وحيد اسمه وحرفته. ميشيل النجّار. عرفت أنه طالب هنا في الجامعة لكن طريقته الغريبة في فك السحر أفهمتها معنى ميشيل النجّار. ميشيل النجار لا يشبه أحد تعرفيه لا في العيلة ولا في أفلام السينما الفرنسية. كائن قادر يجبرِك على فتح ديوان بودلير الكبير تقري عن القمر عن الكراهية عن الحقد

وتحلمي. وهي تتذكر أنه من قبل ميشيل لم تكن تحلم يا مريم. سارة تقرا وهي نايمة على بطنها وتحس فجأة أن ميشيل هو مَنْ كتب الكلام في كل الكُتب. أنتَ خَدَعْتني. صاعقة. تظَهر بشخصيتين وتخايلني. أحياناً ظهر بتلاتة. مرّة تخفّى في وجه الصبي وهو نازل إلى المدرسة الصبح وعلى كتفه شنطة خيش خالية من الكتب وهي رأته فارتبكت ونطّ الصداع إلى سقف راسها. أحست أن العالم لن يرجع إلى ما قبل لقاء النجّار وأنها محتاجة أن تغرق. فجأة تتذكرين كل ميراثك القديم عن الحُب. عن السلالم الرخام وكلام أهلك الوسواس في صدرك: "سارة هتكون مُدرسة لغة فرنسية في أغلى المدارس ويخطب وِدَها الضباط". فجأة تبان لك المسافة بين ما تعلمتيه وما جرّبتيه. فجوة سودة تتمني أن تبلعك. وميشيل لما يظهر في الصور العتيقة كحارس للآثار المنهوبة. على طوابع البريد كان يشبه أبوالهول. طبعاً بعد كسر أنفه. فجأة انقلبت الحياة لوجه الجربوع ده! لو ماما شافته ضروري تسميه جربوع وقلبي يوجعني. وجع القلب هو النتيجة المباشرة لأنك تصدقي الشعر يا مريم. ضروري وضروري في الدنيا كلها ولا حاجة بلاش!

تسأل عنه في الجامعة. أيام دايرة على أيام كأن الأرض انشقت وابتلعته لم يبق منه رِمش. يصح يكون مجرد عفريت ولن تعودي تشوفيه. يصحّ أنها حركة مسرح أنه ممثل مسرح. جايز يكون مجرد حلم؟ اسمه

ميشيل النجّار. وتسأل عنه في الجامعة. ميشيل النجّار طالب نُصراني في صف الفلسفة واسم في سجل أمن الدولة. متراقب يا سارة ابعدي عنه. عيّل فاهم نفسه ثورجي وهيغيّر الكون. تافه تعوز إيه منه واحدة زيك؟ وَقَفَ قدام ضابط الأمن في المظاهرة وقال له: واللهِ إننا لو نُورث ولن نُستعبد بعد اليوم! فجرجروه قدام العيال من قميصه وسابوه يرَّجع على الأرض والناس تضحك عليه. حادثة مشهورة وأنا حتى الكلام عنه صار يغويني. تقف سارة قدام المرايا في كل مكان. لبسي بسيط قوي جايز ينفره مني. جسمي رفيع قوي الذوق الفرنسي ده ميعجبش المصريين! وثقافتِك المصرية أمية. تعرفي إيه مثلاً عن الشاعر أحمد شوقي؟ اشمعنى أحمد شوقي؟ تعرفي إيه عن أم كلثوم؟ عُمري ما حبيت أم كلثوم. كله فرنسي فرنسي! "ولو شُفته تاني أقول له إيه!". على الأقل كنتِ شكرتِ له يا سارة. لولاه كنتِ تحوَّلتِ إلى تمثال شمع من الحبسة وكتر النوم. "شكرته ذهبت حتى باب قسم الفسلفة وطلبت أعزمه على السينما". كُنت أرتعش يا أروى. يلتقيها ميشيل كأنه لم يلتقيها من قبل كأنه مُصاب بالزهايمر أو بالخرف المبكر. "مبحبش السينما" ويرفع صدره في وشها ويعقد حواليه ذراعيه. سارة ترتبك فتبتسم. لما ولا كلمة تيجي على بالها تحس بالإحراج فتبتسم. وتلاقي الكلمة وهو يلفّ علشان يمشي. أنا آسفة. وأنا كمان آسف. ثم جري من قدامها وفي نيته ألا يعود مهما حصل.

هو عند كلمته. لن يعود مهما حصل. ويواصل ابتعاده على رِجلٍ من لحم ورِجلٍ عرجاء. سارة هي مُخلفِة الوعد. دخلت شارع الورِش المَلآن بالرجال الفحول والزعيق والضجيج الشعبي. ميشيل يعيش هنا. مشيت حسب الوصف من عساكر أمن الجامعة والعنوان من سِجِلَ الطالب المشاغب. ورشتهم في شارع يكاد يكون حارة. ورشة خشب للأب والإخوة. مساحتها قد أصغر حمام في بيتكم القصر. وفي قلب الورشة لوحة هادية للسيدة العذراء تحضن ابنها وجنبها يوسف النجار مُفتَنَ. ضروري تعرفي مكان الورشة من صوت نَجر الخشب. على بُعد. صوت مَفصل الركبة وهو يكافح الأرض. زي نهر إيسار تنجذبي لصوت خريره. زي إيسار لما أروى قضت العمر حواليه ثم رجعت. يقول الصوت إن الشخص مهتم بالنحت. عمره ممكن أن يفوت في النحت. إنه النحت يا مريم كان قد إيه يشبه العزف؟ تمشي سارة مُرتجفة. كانت الدنيا صيف في الشارع. كانت جهنم في الحارة. أحسَت أنها ممكن تسيح لما توصل الورشة. خرجت من البيت دون أن تقرر ما تقوله له. تركت المشهد يكتب نفسه بنفسه. يعني هيجرى إيه أكتر من اللي جرى؟ ولِبسها هو اللبس. التنورة البيضا والقميص الأزرق بلا أكمام وعليه شال حرير أسود يسقط من فوق أكتافك وأنتِ داخلة تهلّي عليه كنجمات سينما. تعرفي لأول مرّة أن شارع شامبليون ليس له علاقة بالفرنسيين. سوى مكتب يوسف شاهين في آخر

الشارع. كان له علاقة بالسينما. تعجبِك ريحة الكُشري وتقرري فجأة أنك تعزميه لما تلاقيه. وتعتذري يا سارة. يخطر على بالك ضرورة أن تعتذري له. وطبعاً مع الوقت هتعرفي تعتذري على إيه. صح؟

سوق الدنيا كان كشري أبو طارق يومها. بدا في عينيَ سارة كسوق للدنيا. تسمع عنه في الأفلام. في أحاديث الناس. لكنها ممنوعة منه. حُكم الطبقة. بحُكم أنها ستّ. وبحكم جمالها. أصوات الأكواب المعدن وهي تدور بين الطاولات وتتخبط. الدَّقة المحفوظة في قناني يلمسها كُل مَنْ يدفع. يلمسها الكل مَنْ غسل يده ومَنْ لم يغسل. والملاعق في سيمفونية الحرب. حرب يومية تخوضها البشرية وتجهلها هي. لو ارتجف جفنها مخافة سؤال: إيه هيدخل بطني؟ جايز تفقد ميشيل. سكتت، لَفَت رقبتها في زاوية كاملة زي بومة ورجعت إليه. لم يبضَ زيها بانبهار. ولا كان يعرف إيه اللي جابه هنا؟ السؤال الحقيقي بالنسبة له: إيه جابه هنا مع سارة؟ تجنن القدر مرة وجَمَعَهُ بوردة الجامعة الفرنسية. قد يكون ندم على تخليصها من الحبسة. الأصل كان ألا يقبل دعوتها وهو غير فاهم ليه؟ هو لا يريد رداً للجميل. وبعدين سارة قالت ببساطة: أنا آسفة. وهي تبتسم وتهزّ رجليها كالطفلات. كان مكشوفاً لحمها الأبيض. مَنْ يمرق يرمي نظرة عليه. وهو يخاف أن تحرقها النظرة. ابتسم وعلى لسانه الفزَ: تعتذري لي على إيه؟

بسرعة، وجد المونولوج يُصاغ في عقله بلا تحضير. وشفتاه تدلقه. يُثبِت لنفسه أنه لا يشتهيها كما الناس. على الأقل لأن الشهوة مُتحجرة في قلبه. بُحكم الصوم الاختياري والصوم الإجباري: أنتِ واحدة من أحفاد الاحتلال شوفي لون عينيكِ الخضرا، بشرتك البيضا، أنا أناضل ضدَك. كان يوَجه كلامه أصلاً إلى رجليها: أنا مِش مكاني هنا أنا لن يكون مكاني هنا. كانت هنا تعني قدامها. بالنسبة إلى سَمع سارة، عَلَت موجة من أصوات الموجودين في المحل وخبط الملاعق على الأطباق. ريحة الكشري والدقة ومنادات الزبائن.

إحساسك بالخوف الفرحان زي بنت محبوسة أول مرَة تدخل جنينة. لا تعرِف إذا كان الورد والشجر ممكن يأذيها لو لمسته أو إنه أليف زي ما تعلم عن البشر. في هذه اللحظة من اللهوجة جايز تتحامى في أي إنسان آخر سوى النجَار القاعد قدامها. ضامم رجليه خوفاً يحمي رجولته. كأنه قال لها شوفي قد إيه الأرض جميلة! رَدَها أن ابتسمت يا مريم. تصوري! ابتسامة تانية بالبلاهة نفسها خلَت ميشيل يحس بالذنب. الملجوم. ينفض كوعيه. يُغيِّر الموضوع يفتح رِجليه شوية ويسألها: أنا عازمك على الغدا تحبي تطلبي إيه؟

أصغر طبق كشري ممكن. وزجاجة مياه معدنية. علشان هي بالتأكيد لن تشرب من الكوز زيَنا. وأكل وأكلت. ضحك وضحكت. سألها عن مكان سكنها؟ الزمالك. لازم يوصلها بنفسه. كيف مشَت بين الورش

حتى عثرت عليه؟ لم يسأل حتى لا يحترق دمه ويتحسر. دفع الحساب. وارتد إلى جانبها في الشارع. من عند محل كشري أبو طارق باتجاه دار القضاء العالي. أن يمد لها يده؟ هو كان ينفع يلمسها؟ هل كانت سارة أصلاً قابلة للمس؟ يُصرّ أن تكون هي في الطرف الداخلي من الشارع. حكى إنه يسمع عنها من زملاء الجامعة. وكانوا يحكوا عني إيه؟ لِك أصول غير مصرية وأنكِ مخطوبة إلى ضابط كبير في أمن الدولة. طيّب وأنتَ؟ كانت عيناها صافية جداً لما استدارت في الشارع وسألت بكل بساطة الخلق. طيّب وأنتَ؟ أنا أرسم الكراسي في خيالي قبل أن أبدأ الحفر. أنا أشطر نجّار في الكنيسة. هم يقولوا عني كدة. مطلوب مني أورِّد للمقاهي القريبة. لكن بصراحة أنا تعبان. تعبي سر، أول مرة أقول إني تعبان.

عن قطعة الأرض المسلوبة من الأب والأعمام. حكاية مِش قديمة قوي كتبت عنها صحف معارضة من سنة. وصف ميشيل رائحة دم البوّاب المذبوح والمرَمي جوار السور. تحذير من البيه الكبير. مَنْ يعترض سيلقى المصير نفسه. أبوه وأعمامه سكتوا وعزموا على أي نوع من المساومة. هو لم يقدر. والنتيجة قلم خفيف على ذقنه. ألقوا القبض عليه بلا تُهمة. شهر واتوصوا بيَ.

ضحك. ضرب على رِجله اليمين وضحك. بعد كلمة بيَ. طلع من لحمه صوت مكتوم. فكرَت سارة أنها رِجل من خشب. هي لا تعلم إذا كان عذبوه في السجن. هو

كان يقصد بالوصاية التعذيب؟ يمكن قطعوا رِجله. وهو نجَر لنفسه الرِجل الجديدة من خشب. اختشت أن تسأل. بس ابتسمت.

لما خلع البنطلون قدامها أول مرَة. قرّبت منها واحتضنتها. صحيح لم تكن من خشب. لكن مَخْرومة. حاوطتها بأصابعها دلكتها وأدنت أذنها منها. سمعت صوت تدفق الدم. كان صوت السجّان العالي يحذر من أنك تمد عينيك لحاجات الناس الأكابر. وعَلِّي صوتك وأنت بتوعد يا نجس يا ابن الأنجاس.

لم يلجأ أبوه للكنيسة سوى علشان يلاقي ابنه بعد ما جرّوه من الجامعة جراً ولا حد يعرف عنه خبر. تدخل أبونا فتم الإفراج عنه. في الخروج كان ممسوح الوجه. لا جرح ولا أثر لصفعة. بس كان يزُّك ويزُّك كما هيبقى طول عمره. أنا لم أخف يا أبي فالشجرة المباركة تطرح ثمراً مباركاً. صح؟ تملّى منه الأب. وتنبأ قبل أن يختفي. أنت هتموت بلاش.

يا مريم. وصلت سارة بيتهم الكبير في الزمالك. هناك عند المدخل الرخام. أكملت هي. وقف هو. كان وقت العِشا. ينتبه موظف الأمن للنجّار. لم تقدر سارة على الابتسام لميشيل في حضوره. كان بينها وبينه أقدام عشرة أشخاص. ساطع بلِبسه الهلاهيل. خاف أن يرفع كفَه لها مودعاً قدام بصاص الأمن. لأنه في الجامعة يا مريم كانوا كلهم بصاصين. من سُكات دار ورجع. غاب في العِشا. هي لم تقدر تبتسم. حسيتِ بإيه يا سارة؟

بالفقد كأن أمي مشيت وسابتني بعد أن طَلَّقتني في العالم. أخذت الأسانسير للدور السابع لأن البصاص يراقبها. ميشيل كان آخر شخص عاوزة العالم يتعرف إليه.

لأن العالم الذي تعرفيه يا سارة. ليس القصيدة ولا الديوان. لأنه على عتبة الدور السابع لما فتحتِ باب الأسانسير. كان ينتظرك آخِر شخص تمنيتِ أن يخلقه ربنا في الدنيا. صلاح العدل. لو العالم شجرة يا أروى كان يكون أحنَ! أو أنه لن يكون غير شجرة خبيثة. وأبوكِ على الدرج واقف يخطب في غرور. يوم تخرج سارة بإذن الله يوم كتب الكتاب. رغم الأبهة. ياما هنا ياما هناك. كان أهل سارة محافظين على العادات والتقاليد. والخطوبة في أقرب وقت ممكن. لو قالت سارة كلمة واحدة، كان جايز تغيّر مصيري ومصير أروى. بالتالي مصير مريم. كلمة واحدة كانت هي لا.

كنتِ ساكتة كأنهم بلعوا لسانكِ. كنتِ جاهلة كأنهم استعمروا خلايا مخكِ ونهبوها. في الماضي لم تفكر سارة في تفاهتها. كانت تعرف غرام الضابط صلاح العدل بها ولم يكن لها رأي. لم تفكر أنه من الطبيعي أن يكون لها رأي. وبعدين ظهر ميشيل وقام زلزال. بمنتهى التهذيب أطاعت أمر الأب. تقدمت وسلَمت على حضرة الضابط. العين في الأرض. وهو عينه عليها. كما تَوَقَّعَث دَعَكَ لحم كفها في السلام. كأنه يختبر مدى طراوتها ويسُر نفسه. الضابط الضدَ. الضدَ لميشيل. وعجزه أن

يكون معها حتى باب البيت. البصَاص الأكبر والأنيق في بذلة ولو كانت غير رسمية. الضد من ميشيل. الجسد رياضي ومشدود زي بندقية. كان يشبه أحمد رمزي في أفلام الأبيض والأسود. على الأقل وقتها قدام الأسانسير كان يشبهه في سذاجته. تُفضًلي عليه شكري سرحان أو حتى العليل عبد الحليم حافظ.

رقدت على بطنها في السرير الواسع. أكيد ربنا سوف يجد لي الحلَ وأنام مع ميشيل. أول مرة تظهر لك رغبة قاسية ترضخي لها بشدة. مِش ممكن أتزوج صلاح العدل. زي ما هو مستحيل أتزوج ميشيل.

لما قال لها ميشيل. لو تفتكري نحن يومها لم نتفق على ميعاد، أنا لم أطلب منكِ أن تعاوديني سراً زي ما تقولوا في **القرآن**. صححت سارة. قصدك تواعديني. كلما طلع عليها نهار آمنت أعمق أنها لن ترتبط بصلاح العدل. مستحيل. وقالت إنها ستذهب وتبحث عنه. مَنْ بدأت تشوفه في الأحلام. واقف قدامها بينها وبينه عشرة أشخاص. يبصَ لها بصَة مَنْ لا يملك حاجة ومالِك كل حاجة. ودايماً يلَف ويمشي. كُنتِ تعرفي إيه عن سارة يا مريم؟

أول المتظاهرين. يرفع كفه على الأذن. والأخرى على رِجله اليمين. ويكرر ما يُمليه عليه الملائكة. تواً ودون فهم. واللهِ إننا لن نُورَث ولن نُستعبد بعد اليوم. مَنْ المقصود بالضمير: نحن؟ كلامه يشعل الجمهور. فيصرخوا عليه ويشيلوه. يجروا بِه. ولا يعرفوا إلى

أين؟ صار الزعيم وعساكر أمن الجامعة مجرد فئران. طلبوا الأوامر وتلقوها. افتحوا لهم البيبان باتجاه البحر. كوبري الجامعة. النيل أولى بهم. حاجة تُذكرِك بالمَلك من قبل. صح؟ غير أن الغُصي المتهورة اهتاجت قبل نفاذ الأمر. لاحقتهم وراحت تبوس على ظهورهم راجية أن تتهذ. غصب عنهم أسقطوا ميشيل. كفَه ما زالت على رِجله اليمين. خلاصه الوحيد كان النط إلى النيل. يومها كتب لسارة أول رسالة: شُفتك في كل ستَ مرَت بالمظاهرة، أنا اشتهيت الموت هرباً منك.

الناس ظنَت أن ميشيل مات وارتحنا منه. سارة قلبها يسقط إلى بطنها. وتَحلِف أن تعترف للأب مهما عاقب. في يدها ديوان بودلير لابسة قميص نوم وردي أكتافه عريانة. بابا مِش عاوزة صلاح العدل أنا بحب واحد تاني. كأنها تقول له صباح الخير. لم يُغير زاوية رقبته حتى. وبنبرةِ الصوت الناعسة أجاب: ماشي يا سارة ادخلي ارتاحي دلوقت. طارت إلى الأوضة تحضن السرير. حالاً يا ميشيل العالم تحرر. إلى ميشيل كَتَبَت أول مرة: حيث إني لم أحضر محاضرات أمس سألت اليوم عمَا حصل في الجامعة وكاد قلبي أن يقف من الرعب، من فضلك قُل لي إنك لسة عايش.

وبعدين هجرت الملاحظة تحت عُقب باب الورشة المقفولة من أيام. انتظرت ساعات على بُعد وهي مُخبَأة في ضباب طويل أسود لا يكشفه أحد. ساعات من أيام. حتى مرَت سبعة أيام. رغم كل غضبي اقتربت منه

وكُنت ناوية ألطشه بالألم. رده الوحيد أن قال لي: غُمري ما تصورت أنك تعرفي تكتبي عربي. لا وكمان خطَك حلو! حَكَت المرأة المُلثمة لميشيل النجَار أنها لن تتزوج صلاح العدل وأن الأب وافق أن تتزوج ميشيل. حتى حبيبها لم يأخذها جدَ. كأنه ما سمعها. بصَي أنتِ زيك عندي زي الاحتلال. أنا لن أكون عبداً لكِ. لمست خدها بَس وابتسمت. في قلبها استقرَ أن تمشي وألا تعود إليه مهما حصل.

تصوَر حتى وأنا زعلانة منك هددت النيل أنه لو بلعك في يوم يكون على استعداد أن يبلعني. وأنا بتُ أخبط راسي في الحيطة وأسألها. دي عاوزة مني إيه؟ دي عاوزة إيه من ميشيل النجَار؟ لو إن ميشيل النجَار عَبَدَك كما يَعبُد الخشب يعيش إزاي الخشب من بعده؟ يعيشوا إزاي أهله؟

انقطعت سارة عن محاضرات الجامعة. ساكنة في البيت تحسَ لأول مرة بمعنى الحقد. لو قدامها كانت قتلته. أو أذلَته. يا نجار يا بن النجَارين. كان جباراً في قلبها. لم تقدر عليه لكن قدرت على المرض. رقدت في السرير. بهتانة. كأن الروح فارقتها. لا ترَد على تليفونات زمايلها. وتشدد على الخدم ألا يفتحوا الباب لأي سائل عنها خصوصاً لو كان صعلوكاً. الخدم لا يفهموها صحيح. لكن يفهموا أن الحُمى سبب في الكلام الغريب من أول الخلق. حاضر يا ستَ سارة. وسارة قالت

بالطاعة نفسها حاضر للموت وانتظرت أن يطيعها. نقلوها للمستشفى بهبوط في الدورة الدموية.

أنا مِت وانتهيت. ولما فتحت عيناي كانت الحياة كسحابة وأنا بعيدة عن الأرض. غير فكرة إني لم أفرق معه. حياته لا مكان فيها لراحة الحُب. راحة ألم الحُب يا أروى. لكن زارني صلاح العدل بخدمه وحاشيته. قَلَبوا المستشفى عاليها واطيها. وبابا فخور إن بِنته مصدر الانقلاب. آخر كلامي لهم. واللهِ إنني لن أورث ولن أستعبَد بعد اليوم. حاولت أرفع ذراعي لكنها سقطت من الضعف والفاقة.

ما هي الفاقة يا مريم؟

الطبّ أكرَمَ الباشا. وفَوَّقَ زوجة المستقبل. على شبابه كان أقوى المرشحين لمنصب مساعد وزير الداخلية. إلى ميشيل. قررت أن أكتب لك لما وجدتني بلا قيمة عندك. أنا مستعدة أن أمشي في المظاهرات معك ضد الاحتلال. ضد الأزهر. ضد الكنيسة. ضد روسيا أو أمريكا. وحتى فرنسا. أن يرميني صلاح العدل في أفران الغاز. ويذبحوني في الصعيد الجواني بتهمة الزنا. أنا أقدم لك كامل جسدي الاحتلالي كي تستعبده على طريقتك. بأي وضع تحبّ. ساعتها هل ستحس بالانتصار؟

مستشفى الشرطة وفي حفل عائلي بهيج تم خبطة الآنسة/ سارة المراكبي إلى أصغر مساعد شاب لمعالي وزير الداخلية/ صلاح العدل.

في وقت الغروب من الدنيا آن لكِ أن تكتشفي تفاهتكِ، أن كلمتكِ لا شكل لها ولا أثر، لقد خرجتِ إلى الأبد من كل كتب الشعر.

كل ما كنت عاوزاه من العالم أن أشوفك يا حيَ وأن أموت بسببك.

لم ترجع سارة إلى الكلية في فصل الربيع. حسبوها رسوباً. فتساوت أخيراً مع ابن النجّار.

قُصاصة من ورق الجرائد الأصفر سافرت لها من يد موظف الأمن الغلبان. مَنْ كان بصاصاً في وقت سابق. على هيئة مركب كانت. أنتَ يا ميشيل تعرف تنجر مراكب؟ بعد كل العذاب فكرت سارة أن تعاقبه بإغراق المركب. لكنها رقّت في النهاية واكتفت أن فضّته وقرأت.

6 شارع شامبليون الدور الرابع خطوتين من مقهى التكعيبة، الشقة 8 على يمين السلم، بُكرة في أي وقت يناسبك بعد بُكرة في أي وقت يناسبك أو بعد بعده، يُخبرني البوّاب بمجيئك فأجيء.

كان بيت شارع شامبليون يا مريم!

في أول صباح من الرسالة. خَطت سارة إلى الشارع في اتجاه الورشة. من هناك دلَوها إلى 6 شارع شامبليون. زي المَرَدَة ظهر لها البواب من تحت الأرض وخَضها. ثم ادَعت الثبات. لا يشمت بها. أسمر قصير ومدملك. تكلَم فظهرت أسنانه رفيعة جداً زي أنياب.

أنتِ مين وعاوزة إيه؟ عازوة ميشيل النجّار. أنتِ سارة؟ أيوة. بدون ولا كلمة اقترب وناولها مفتاح نحاس.

كانت الشقة ظلام. وسارة لم تبحث عن النور. تَرَبَّعَت فوق الحصير الأخضر في الأرض بمجرد الدخول. لم تتصفح البيت. قعدت هناك تنتظر. سبع ساعات وفكرها كالصحرا. حضر في المغرب. خبط برقة على الباب. فتحت له فاعتذر. أنا آسف المفتاح الوحيد معكِ. ضوَى لي شمعة هزيلة. ثبّتها فوق بلاطة ناتئة عن بقية البلاط. ارتفع إلى عداد النور وأوصل الكهرباء للبيت. صار بإمكانه رؤيتها كاملة. أكمل اعتذاره. الورشة كانت لوحدها. طلبوا مني أن أسلّم ثلاثة كراسي في يوم واحد. أنا لم أنم من ليلة أمس.

تمنته أقل رقة. رقته عذبتها. رَمَت نفسها إلى صدره. أنا آسف ريحتي عرق. إحكي لي من فضلك إزاي عذبوك في السجن؟

وقعت من طولها. حملها إلى الداخل. في زمن آخر أنا وأنتِ أسمينا "الداخل" غرفة الأوبوا. أسلمها إلى الأرض. أرقدها على الحصير الأخضر نفسه المفروشة به الصالة. فَتَح الشباك الواسع. وكان المنظر خلاء. هرول ميشيل إلى المطبخ. يفتح حَنَفيَة المطبخ. فتنفجر المياه وتغرق قميصه الزيتي وبنطلونه الأسود. يلعن نفسه ويجري ضاماً ما بين كفيَه على شربة مياه. تضيع منه في الطريق قبل أن يصل لسارة. من هنا إلى هناك. من هناك إلى هنا. ألف مرة. أفاقت سارة أخيراً. كأن الهدر من

المياه هرب إلى عينيها. دامعة قامت. قالت بحسِّها الناعم دون أن ترفع الذراع ولا الكفّ. واللهِ إنني لن أورث ولن أستعبد بعد اليوم، إلا لك.

بعدها كَتبَتْ: كُنت مسنودة إلى صدرك لما أحسست بك تنتصب تحت ذراعي فابتسمت وتمنيت ألا تستوي أبداً.

كُنتِ ستّ من شمع وأنا لم أعرف من قبل غير الخشب جسدكِ شمع أبيض ويخرج من كل حلمة جناح.

ساعتها يا مريم لم تحدث مداعبات أولى. تمددت سارة فاتحة رِجليها على الأرض. دخلها ميشيل فتألمت وكتمت الألم. مثل عود من الخشب. اخترقها وسبح. ظل يسبح حتى كَنَّ في القلب. لن أبرأ منك مماتاً ولا حياة. لن تبرأ منك ذريتي. بقيا على الحال. نصف يوم بشري. دوام كامل للشمس أو للقمر. أصبحا جعانين. هلكانين. كان مَفصَل الركبة عند ميشيل يحرقه. يحس بالنمل ينهشه. لم يتوقف الحرقان بعد ما توقف الخب. اشتكى لسارة فلمستها. الرُكبة في الرِجل الخشب. حضنتها بأصابعها كأنها تدلكها وأدنت أذنها منها. لتسمع صوت تدفق الدم. كان صوت السجّان العالي يحذر من أن تمد عينيكِ لحاجات الناس الأكابر. وعلي صوتك وأنت بتوعد يا نجس يا ابن الأنجاس.

هَبَت من رقادها إلى جانبه على الأرض. زي ما تتصوري يا مريم. إذا أنا ارتفعت عنك. تشوفيني بمنظور عين النملة. وسأكون أنا بالنسبة إليك أبو الهول

الرهيب. تحترق أعصابك. وعلى كل التعب تشعرين بنفسِك مُنتصبة من البداية. على ميشيل الكائن في 6 شارع شامبليون أن يقفز ويفرد ظهره فرداً كاملاً. وبعدين يقلّد سارة بأن يُحرك رِجليه في وضع العجلة. ما زالت سارة تمثل له الوضع في غرفة الأوبوا. لكن بلا أوبوا. ما زالت مندمجة في اختراع حل. تهتزّ ريشتا فخذيها. ويرتجف شعرها. لا تعرف شيء عن الكائن المتعلق بها من أسفل. المعترض باستوائها قدامه عريانة. ولا يريد أن ينام.

طيّب هجرّب!

قام وبدأ يقلدها. أنارت عيناها. أملت أن يرتاح بالحلّ فترتاح. ظلّت تمثل الدور بإخلاص. ورأسها ملتفة إلى اليمين حيث يقف. مع التمرين صارت تطقطق عضلات رقبتها. قرر ميشيل أن يُنهي هذا الهبل. بس يا سارة. أمزْ. ارتفع حاجباها خوفاً أن يكون زعل تاني! واجهها. حركها من تحت إبطيها. أخذ منها يدها وضعها عليه من تحت.

"هديتِ حيلي يا شيخة!".

ضحك جسدها كله. وهو حيران يتلمس ما يتلمس في قلق. تنفلت خطوة واحدة للوراء. فتظهر أسنانه اعتراضاً. "وبعدين يا ستّي"، رفعت سارة فخذها مقدار نملة وهاجمته فجأة. طفح الوجع من ملامحه. فشمتت به. زقته إلى حصير الأرض. جذبته من شعره وخبطت دماغه في الحيط.

لم تحكِ لي سارة يا مريم قد إيه مرّ من الوقت.

لكنها قالت عما شاهده ميشيل في تعبه وسط الضباب المرسوم بحجم جمجمة سارة. وهناك إلى الضباب تقدَم.

رأى أن له أختاً اسمها نوسة. عريانة. بشرتها بيضاء ويَنير بياضها مثل الشمس. رغم أنه لا يبدو منها سوى ظهرها. تشبه تماثيل الإلهات اليونانيات زمان. لكنها مجرد إنسانة. يُكتِّفها ملائكة موكلون بالأخذ بالثأر. كان لميشيل شعر ذقن طويل كسقراط. يلهث في الضباب ويريد أن يعرف نهايته. يسمع صراخها كأنه آتٍ من المستقبل. كانت نوسة قد ارتكبت الزنا. وصار لا بد من عقاب. عقد الصفقة بأسرع ما يمكن مع الملائكة. سيبوها وخذوني بدلاً منها. سكن الحشد كله. والتفتوا إليه. اتضح أنهم ليسوا ملائكة. ابتسمت الوجوه بخبث. أتحب أن تكون مكانها؟

أحس سقراط بتنميل ونار في رِجليه فقال إنه بالموت سيخلص من العذاب التحتي لا بد. وكانت هي لا تزال تصرخ في المستقبل خوفاً من الذبح.

"أيوة عاوز أكون مكانها".

"لكَ طلب واحد".

"أن أرى جسدها مرة أخيرة من الوِجه حتى الرِجلين".

اهتزت نوسة كبَرْجَل على رِجل واحدة. كراقصة باليه آلية. بكى سقراط. اندفع القيء من فمه حاراً كبركان لا

يعرف متى ثار. نادى باسم واحد. سارة. لم تكن حواليه. فارقت البيت وإلا كان صوته صرعها. سقط رأس ميشيل كثمرة لم يقطفها أحد وفقد الوعي.

كانت سارة في المحل القريب من الشارع نفسه. قلبها يرقص في انتظام ويدور حوالين نفسه. الحياة أجمل من الشعر. لكن العلم سرّ. لا تدري عنه كل الناس. عليكِ، يا سارة، أن تحافظي على السرّ. اختارت عيش وتونة وجبن نستو ومياه. جمعت أكبر من قدرة يديها الهزيلة أن تشيل. الحياة جميلة والمُحاسِب يضرب على ماكينة تشبه الآلة الكاتبة لما نَغَزَ العود الخشب قلبها. أول مرة خفيف جداً. وكما تتوقع مريم ابتسمت سارة من أجل أن يُخفف الابتسام من النغز. شافها المحاسب تبتسم فاستغرب ولم يبتسم لها. دار يُعبئ الحاجات في أكياس. ولا يعرف أن النغز زاد عليها جداً وأصبح التنفس صعباً. تفيض الدموع في عينيها بلا سبب. من المشتريات قبل الجري خطفت زجاجة المياه المعدنية. دفعت الحساب لحُسن الحظ. فلم يعتبرها المُحاسب حراميّة. لما تأكد أنها اختفت ولن تعود أعاد المشتريات إلى مكانها الأول.

غريبة يا مريم!

أن سارة قصدت إلى ورشة النجارة أولاً. فرأت هناك الأب. يشخر والجورنال يغطي وجهه. نَتَشَته منه ففَزَ الرجل. ميشيل فين؟ استعاده منها وغششها العنوان في الحلم. 6 شارع شامبليون.

فوَقتها الكلمة وتذكرت بقية القصَة.

كالمجانين جرت ورِجلاها تتهاويان على السُلَّم. من قبل كان باب الشقة موارباً. وصلت له وهي تنهج. سكنت ثواني قبل أن تدخل. ثم توجهت كرصاصة. كاد ميشيل أن يختنق بعد أن سدت الحمم فتحتيَ التنفس ولوثت جفونه.

"ميشيل".

حملت رأسه إلى حِجرها. فكّت قفل زجاجة المياه. وبدأت تسقيه بشويش. الحيلة لم تنفع للآخِر. زاغت تبحث عن أي شيء تمسح بها على صدره. وجدت لباسها التحتي بلونه الأحمر. خطر على بالها أن تناديه باسمها. فنادته: يا سارة.

وشوشت طبلة أذنه: يا سارة.

أفاق ميشيل. صعب عليه يصدق أنه لِسَّه حي. عاهدته سارة. لا حياة لي من بعدك. ولا خير في العالم لو فرَقنا.

روت سارة لصلاح العدل ما جرى بينها وبين ميشيل. قرأت له من ديوان بودلير ما كانت تقرؤه بينها وبين نفسها. المجنونة لو طاولت أن تُذيقه الحب كما ذاقته، لكانت فعلت. كل ما أرادته: عفوه غير المشروط وعتقها من مشروع الخطوبة. لكن صلاح أعلن على رؤوس البرية أنه سامح سارة للأبد بشرط ألا تعود إلى ميشيل. وقتها صار صوت سارة الناعم مسنوناً في التليفون. قالت إنها لن تترك ميشيل إلا على لحمه ولحمها. لم تتصوَر أن ملاك القدر الواقف على قفاها قرر أن ينفذ لها الأمنية كما هي. لو كانت عرفت، يمكن ما كانت قالت. من وراء الأسلاك وصوبات التهجين التي تحوِّل المساجين في الشتاء إلى مسوخ. أتى لسارة صوته عادياً وهو يقول: مع السلامة. انقطع الخط ولم يكن عندها سوى أن تطلبه مرة جديدة. علشان يقول: آلو، ثم يضحك لما يسمع صوتها متوسلاً: أرجوك يا صلاح أرجوك. يتركها على الخط تسمع مسجوناً ما وهو يئنّ. تبلع سارة ريقها وتتصوره كلباً. الكلب فعلاً كان يشمت فيها. لما يرجع ستقول له ما يستدعي شهامته: أنا آسفة إني ورطتك فيما لا تقدر على احتماله، والله العظيم أنا لم يكن لي يد في المسألة كلها. تعرفي أن سرَ الترقي الصاروخي له في الداخلية مُرتبط بالكيد. صلاح العدل أكثر من أي إنسان خلقه ربنا كان يعرف مَنْ هي سارة كويس. شافها عريانة قبل أن تتعرى فعلاً قدامه. هكذا في مرَة قال لها.

لا طبعاً أنتِ فاجأتيني وأنا محتاج وقت أرتبها.

نجح أن يخلَيها فعلاً تبَطَل بُكا. وتسأل. يعني إيه يا صلاح؟ خطط لأن تقضي سارة الليل كله تحلم بلحظة العتق. وهي رغم خوفها نامت على وعد أن تبعث له أكبر بوكيه ورد في العالم. لما تطلع الشمس. على أي عنوان يحبه. أن تكتب له في الكارت طلبها أن يوزعه على المساجين وردة وردة. أن يذكرهم بحبيباتهم فينسوا الحبس. أن تعتذر له وتتعهد بمواصلة الابتهال نيابة عنه لربنا. أن يلتقي بستّ البنات.

طلعت الشمس. وصلاح هو مَنْ فاجأ سارة بأكبر بوكيه ورد ممكن. استلمته بقميص النوم. حافية. مذهولة. جحظت عيناها من السهر والبكاء، وبصعوبة منعت نفسها أن تفكر في الانتحار. لم تفهم ولم تتنبه إلى الكارت الذي وقع على الأرض بينما العامل يسلمها الهدية. من غير تفكير حملت البوكيه إلى الحمام. وضعته تحت الدوش وفتحت عليه المياه. لأول مرة في حياتها تقرر أن تقتل ورداً.

ظهر أبوها وسألها عما حصل. وكأن من اللحظة لا خيار سوى قول الحقيقة بأقبح طريقة ممكنة. ورد من صلاح العدل أنا أغرَقه ولو اعترضت أغرق نفسي معه وأخلص منكم كلكم. وكما تتخيلي لجأت سارة إلى ميشيل. كما كلب مسعور جرت إليه وهو ينجر في الورشة حتى خاف وانقلب على ظهره. سقط الخشب فسَحَبَته من كُمه. حكَت له الموقف بدقيقة واحدة. كان

يسقط الكلام من لسانها كالملبوسين. عرضت عليه الهرب. إحنا لنا إيه في مصر؟ انتَ لك إيه؟ انت مسيحي والعالم كله كنائس. تعالى نسافر إلى بفاريا، تعالى نجعل منها أرضنا الموعودة. وأنا أغير اسمي إلى أروى إلى نوسة ولا أعوز أحداً من أهلي طول عمري. فرصتنا الوحيدة أن نعيش كأحرار يا ميشيل، لأن تحت هذا السقف لن نعيش غير عبيد.

إلى السما أشارت سارة بأيدٍ مُبالغ في بياضها.

كان عندها حق. صحيح إن ميشيل لم يرفض. رغم قلة الحيلة قدام هجران أهله. قدام الورشة وخوفه عليها. قدام حتى الموت في بلاد الغربة. وسؤال قرَب يوجهه لرِجله عن أكبر قدرة احتمال لها للمشي بلا نهاية. وافق ميشيل قبل أي إجابة. ابن النجّار عاد إلى شقة شامبليون. يصلي ويطلب من العذراء أن تحرس خُطاهم. وفي نهاية الصلاة رفع إليها عينيه من الدمع. زعلان أن سارة عرضت عليه السفر ومشيت بسرعة. لم يمر على بالها أن يقضيا ولو ساعة واحدة في البيت. يكتب لها ميشيل: كان ممكن أفكّركِ بيَ كطفل جعان يطلب من أمه صدرها وهي قرفانة من البرد فيعزّ عليه وقتها الطلب.

وطبعا يا ميشيل يا ريتك كنت طفل وطلبت.

يا مريم لا تتصوري أن ميشيل لم يقاوم. أن سارة لم تقاوم. كانت تحب أن يواصل أبوها ضرب الأمثال. جمال وأدب وزوج من أمن الدولة. يعني الطريق

المستقيم. في الواقع صارت سارة مومساً في نظر الكُل. أهلها وزوجها وحبيبها وفيما بعد حتى البوّاب. كما تتخيلي انقطعت سارة عن قراءة الشعر. لكنها كتبت جوابات. حزمت على نفسها مرأى الكتب. لكنها نجحت بتقدير مقبول في السنة الأخيرة من الليسانس. خيّبت ظن أساتذتها وتمنياتهم بالمستقبل الباهر. كرست نفسها للحُب مهما كان المصير. والتكريس أضعف الإيمان بالقلب. لو كان عندها طريقة أخرى للتنكيل بنفسها، كانت نكلَت. أضحت الحياة مع الوقت كتاباً بلغة لم تعد مقروءة. لكن ضروري أن يكون لها أصل.

التقته بإذن. على عتبة الورشة وهو مهموم. قالت له: أودعك يا ميشيل لمدة شهر بعدها أن تكون الحياة مِلكنا أو لا تكون. احتملت منه صدّه وإعراضه كما توقعت. زقها في كتفها. أبعدت الشال عن صدرها ورفعت قميصها بلا أكمام. ظهرت عريانة من فوق وفي قلب الشارع. دَعته وهي عارفة أنه سينتقم منها ويرفض. لما أشاح عنها واستغرق في دق خشب الكرسي بين رِجليه كأنها غير واقفة. تمنت أن يدوسها هي، أن يدق مسمار في معصمها وتنزف قدامه. لما قال: مش عاوز أعرفك تاني. لم تزعل ولخص عقلها الموقف في كلمتين.

"بُكرة تقوم الثورة".

لكن بُكرة غير قريب. وصلاح العدل قال في أول يوم إن بقاءها معه يعني حياة ميشيل ويوم تغادر هو يوم موته. قال إنها أشهى امرأة لمسها في حياته. وإنه يحب

معها لو أن الحياة مجرد سرير كبير. داعبها سنة قبل دخوله الأول ومع ذلك توجعت. حتى مِهبلها قعد يدفعه إلى الخلف. لم تلِن إلا لما بكى في حضنها وحكى كيف يعذب المساجين. يَحرِم الزوج من زوجه. عضها في الرقبة وفي الوسط من صدرها. ومن تحت. خرج الشعر بين ضروسه. كان ينحت أثر مروره عليها. كأنه يمحي أثر من سبقه. ثم دخلها وصرخ في انتصار. وصل واهتدى. واستوى على المرتبة. أصبح السقف غير بعيد. وقف في غُربه يتضرع لها باسم ربنا أن تغفر له كل ما تقدَم من ذنبه في حق الخلق. وهي غفرت على وضعها. ممتدة تحته بياض في بياض مجروح. تداري الثدي بيدها قدام الغريب وتردد. باسم ربنا أغفر لك في حق الكل إلا حق ميشيل. أصرَت. القبطي أنت سرقت منه كل ما له بعد ربَه لو ردَتني له يغفر لك ربنا.

أما صلاح العدل، كما تتوقعي يا مريم، فلم يغفر. ظلت بين رِجليه تهلوس. رجَعني لميشيل. تطل رأسها من بين ضلوع هيكله الرياضي تئن. تغيب أوقاتاً وتهذي. هو الجزَافة ينزع الورد من الجذور ويرميه في وجه السما. تحاول أن تهرب من التعذيب بخيالها إلى حبيب ولهان. نادراً ما كان يستوي الخيال. ميشيل هو كمان محبوس في شقة شارع شامبليون. خاصمها سنوات ولم يصالح إلا في العام الأخير فكان عام قيامته ووفاته. حكى لي بصوته حكاية كنت أعرفها. زمن الخصام بنى الشقة. حواليه أخشاب ألف شجرة. ينَجَر

لكل أوضة في البيت عفش. يرفع الحصير وهو يتذكرهما معاً. تحسَر وقرر أن يكون كل شيء من عمل يده في البيت مخلوقاً لفرد واحد. كان ميشيل المبتدئ في السرير واختيار ألوان الدهان: دولاب وردي ذبلان على مقاس هدوم ميشيل الطفل. لأن الطفل لم يقابل سارة ولا وقع في الغرام. جعل لباب غرفة النوم اللون نفسه لكُبس النور. لون النيل الذي رمى نفسه فيه مرّة. مال الخشب منه ولم يعدله. يعاند في صناعة طاولة سادة. طاولة معووجة يملأ بها مساحة فارغة ويثبت بها أنه بعيداً عنها يقدر يصنع معجزات. لم يكن مهتماً بالكمال ويمكن تقصّد النقصان. كلما فتحت سارة الباب، خَبَطَت الطاولة. ومريم كلما جريت في اللعب معي خَبَطَتها. يُركب هنا في وسط السقف مصباح قديم يرمي كل الضوء على الأرض زي لحية عجوز غابر من أهل الكهف. وأوقات يكون المصدر الوحيد للنور في الشقة.

في غرفة الأوبوا اكتفى ميشيل بتأسيس مكتبة للكتب لم يُسكنَها في حياته أي كتاب. وأمامها أنشأ مساحة لرَسْم بالحجم الطبيعي لسارة. نزع مقابض البِيبان والشبابيك وقد اختلقهم من أخشاب هزيلة تشبهه ولا تحتمل سوى كف شخص واحد. المطبخ اختار له ألواناً قاتمة وقد زين البلكونة بالثوم الطازج. دهن سقف الحمام بيده وهو يبكي على السلم الحديد. وفي الأسبوع السابع سقط ميشيل من الحزن.

وحَبِلَت ماما.

خرج لحم البيت كما تقدري تشوفي يا مريم. غريب جداً. ندَاه ويلتصق بالجلد. لو أغمضتِ عينك تسمعي الصوت. هنا غير وارد أن تنقطع عنك الأحلام. لو نمتِ في عتمته يحميكِ من العساكر والموت البلاش. يوم زُرته عرفت أني لن أنساه عُمري. مع ذلك كذبت على نفسي. حاولت أبعد فسحبني أعمق. أدركت أنه قَدَر لما قامت الثورة وشُفتها تزحف على الشاشات وتهدر بالهتاف. غنيت له أغنية تعلمتها على الأوبوا. شكوى أعزفها في الميادين هناك بين الأغراب. يسمعوها يتأثروا ويصفقوا. يروا للسماوات السبع بإحساس لا يفقهوا مصدره. الموسيقا وحدها تقدر تبعث البيت في أي مكان بالدنيا. تقدر تحفظه كما حفظتني. أنا أشفق عليكِ يا روحي. من هنا ورايح أنتِ صدِّيقة على كل غرابة شقة شارع شامبليون. لن يكون لكِ أن تقبلي أو ترفضي. لن يكون لكِ أن تطلبي مساعدة. أن تحكي لأحد أو تشتكي. لن تسألي أبداً الساعة كام. ولا إحنا في أي يوم من أيام البلد.

فاهمة يا مريم؟

يا مريم. لو رأيتِ مشهد وصولي إلى مطار القاهرة يومذاك، لكُنتِ امتنعتِ عني أكثر مما اممتنعتِ يوم المترو، أو كنتِ ابتسمتِ وحفظتِ سذاجتكِ في وجه العالم. رغم أنني صعدت في يوم إلى الطائرة "اللوفتهنزا" مقررة ألَا أعود أبداً، عدتُ وفي جيبي جواز سفري الألماني. منذ قامت الثورة منذ يناير الماضي وأنا مجذوبة كما لم أكن عمري إلى كل ما يمر عليه اسم مصر، أعرف كم أصبح البلد مُتحسساً ضد الأجانب كما أتحسس ضد نزلة برد أن تسلبني صوتي. أنا الآن أجنبية الهيئة والجنسيَة، وكان عليّ سواء توقعت أم لم أتوقع تبرير أسباب رجوعي بعد كل تلك السنين لكل ضابط أو عسكري وعامل نظافة، لطابور طويل من الخلق، أنتظر أن يسألوني وأرَد بما لم أكن أعلمه، رجعت لأنني لم أستطع ألا أرجع. تصدقيني لما أقول لكِ إني لم أعرف لمَ عُدت إلا حين شُفتِك في المترو وجلست إلى جوارِك، لهذا يمكن زعَلتك، وصار من واجبي أن أصالحك. في صف الوصول القصير متوازياً مع صف المغادرة الطويل، دبرت حالي بالإجابة النهائية، بالإنكليزية وبلا أن يرمش لي جفن سأقول: "work"، وسيرتاب فيَ الضابط ويسألني بحذر: "حضرتك جاية ليه دلوقت؟"، قُلت: "work"، بكل العَنجَهيَة، وبأصابعي اللصَة سَحَبَت من الشباك بيننا جواز السفر، لم يتجرأ على الاعتراض لأنني بَخلَقَت في السقف مُهددةً بطلب السفير! طبعاً خِفتُ في البداية أن تنقلب عليّ لعبة التهور، لم أرجع كي يرموني

في السجن، كان يمكن أن يرميني في الركن، أن يستبيح حاجتي، على الأقل أن يسألني: وإيه هي طبيعة شغلك الآن في مصر؟

ساعتها بإيه كُنت سأرد؟ خصوصاً أنني لم أكن قد التقيتك بعد، ولم أكن أعرف أنني على وشك أن ألتقيكِ حتى، خصوصاً أنهم لن يقبلونا غمرهم. ولا حاجة، أنا علّقت كيس الأوبوا على كتفي، وسحبت من الأذن الحقيبة المجرورة على أرض المطار الواسعة، كأن ولا حاجة حَصَلَت، ولن تحصل، كنت أهتف ضدهم من قلبي: يا كذابين يا ولاد الكلب، يا كذابين يا ولاد الكلب، ومقدماً أعرف أن كل ما أملكه هو الهتاف، لكن واجب عليَ أولاً أن أخرج من البناية الرسمية طيَبة وباردة. صعب يا مريم. صعب أن تُمثلي بعد كل الابتعاد أن الرجوع لا يؤذيكِ كما كان الغياب يؤذيكِ ويمكن أشدَ، أنا فقط عُدت لأنني منذ مشيت وأنا مجذوبة إلى النيل من عرقوبي. فكرة يمكن تُضحكك لكن الحقيقة أنني مشيت وكملت المشي. كنت مثل؟ تعرفي كأنني أول حواء يخلقها ربنا بين نسخ مُكررة من آدم، حواء خلقها ربنا في غفلة من آدم وبعد جوع وعطش، انفتحت أفواههم على ابتسامة غريبة لم أستطع أن أفسرها، شماتة أم جهل؟ ابتسامة خبيثة، صبَرت نفسي عليها بلقاء القاهرة، القاهرة التي كانت وحشتها تهاجمني دون توقع، في الشتاء كما في الصيف، كلما أهملت صحتي، بسبب العزف بسبب الحب أو حتى الحزن، يومها كنت

أنتظر أن أمرض، حقيقي أن يعاقبني جسدي لأنني إلى جهنم جلبته، إلى حيث نظرات الرجال تجلدني على ظهري، كنت أعرف كل العواقب يا مريم.

حزينة قوي ولا أفهم لماذا انفرط الناس من حولي على هيئة أشخاص تتبعوني مُتحرشين يمكن، أو كانوا مجرد واصلين من سفر طويل مثلي بفم مفتوح على الهواء وذاكرة ممسوحة، فراغ، كادوا يفلتون غضبي الذي من الممكن أن يبلع المطار، أن يجبروني على أن أقول: أنا لست حواء التي تظنونها، إلى أن سمعت الكلمة "ليموزين؟"، فالتفتَ إلى مصدرها، استغربت من السائق كبير السن الذي قالها بابتسامة مَنْ لا تحدث في بلاده الثورة، شخص عادي جداً بدأ يُكلمني بلغة الصم والبُكم لأنني أجنبية، يشير إلى سيارته البيضاء من ماركة شاهين، ليموزين؟ كانت فاتت أعوام كثيرة لم أرها فيها، كُنت قريبة من الحنين على وشك الغرق فيه والبكاء زي العيال، تجاهلت صيحات باقي السواقين، كلمته وحده: "أيوة على وسط البلد شارع شامبليون عند كشري أبو طارق تعرفه؟". ضحك الرجل وأحس قطعاً بالإحباط، ساعتها انتبه إلي الضباط، بَطَّلَوا ما كانوا يقولونه من حديث، رفعوا حواجبهم مُستنكرين، كأنني ارتكبت فعلاً فاحشاً في الطريق العام أن تكلمت بالعربي.

لم يكن متوقعاً مني أن أحكي عربي، وكان يُمكن أن أرجع إلى القصر هناك، في مساكن الضباط في حيّ

الرماية، كان يمكن ألا أتمادى في تعذيب نفسي بكل أدوات التعذيب القديمة مجموعة في سلاح واحد، مصر وشقة شارع شامبليون والثورة والأوبوا، لكُنت استدرجتكِ إلى بيت قريب من بيتكِ، يسهل أن تعثر علينا فيه جدتكِ، أو تتوهم أنها تقدر، يسهل أن تُصبحين ربَته، لكن بيتي الحقيقي، بيتي الحقيقي هو هنا حيث يعشش الغبار وتغدق عليه العتمة، لم أكن لأسامح نفسي أن أغويتِك إذاً بعيداً عنه.

أنا لم أسألَك في العدل، عمري ما سألتك في العدل، كُنت أعوز إيه منه العدل؟

أنتِ كنتِ في الشارع يا مريم ولم تكوني، وأنا كُنت في الشارع، كُنا على وشك أن نلتقي حين التقينا، أحببت أن أنفذ ما هجرت حياتي من أجله، ما تعلمت في أعوام تلو أعوام أن أقوله بأرق طريقة ممكنة، بأعنف طريقة ممكنة، بالموسيقا، لم أكن قد نظفت هذا البيت، لأنني لما وصلت اندفعت كما رصاصة خَرَجَت من بندقية وخائفة لأي سبب أن ترتد، لم أتأمل الشارع لما نزلت من التاكسي، ولا فكرت في هؤلاء الذين يتكلمون على المقاهي ويلعبون الطاولة لأنهم بلا شك الآن أشخاص آخرون، غير مَنْ غادرت وهم جالسون، أخذت الشنطة والأوبوا وتماديت في الصعود، تجاهلت نداءات البوَاب المصدوم وقد عرض عليَ مساعدته وفيما بعد مساعدة زوجته، نفرت مرة واحدة بعصبية قدام الباب لأهشه كما تهشين الكلاب: "ششش"، مستحيل أن أنسى

ما فعله معنا، هو فارقني فعلاً وأنا أدخلت المفتاح النحاس في القفل العتيق، تلف ببساطة كأنه مُنتظر منذ أعوام بعيدة أن يتلف، بعدين انفتح الباب على الظلام التام، عَتَبَت الشقة ودعيت الأرواح لأن تمر في نفْسي، الريح الأليف هي هي، وابتسمت، لم أستسلم لإحساس البكاء أو العتاب. يا سارة أنتِ قلتْ لأروى هاجري ولا ترجعي، يا سارة أنتِ لسة فاكرة كيف كانت أروى؟ تركتْ حاجتي في الصالون، أشعلت شمعة ورفعت كُبس الكهرباء فأضاء مصباح غرفة النوم واستردت مع نوره الدهشة التي خَلَفها اكتشاف حاسة سمعي أول مرة، كأنني حالاً وُهبت، مجرد أن انزلق الكُبس، سمعت بوضوح الصرخات والاستغاثات والضحكات وحشرجات الموت تصل من ميدان التحرير ومجلس الوزراء وشارع محمد محمود، كأن الأصوات جمعت بعضها بعضاً ومشيت مُظاهرة إلى حيث بيتي في شامبليون، أصوات جليّة تقترب كالطبول، دبيب الجنود المُجَنَّدة، لم أقفل الباب عليّ، ذلك ما جئت من أجله، ما أردت أن أتعذب به، سلَمت على صورة مريم العذراء في المَرسم أو سمَيها غرفة الأوبوا، كانت معي الأوبوا في كيسها، وأخذت الدرج راجعة، أسابق الخمى التي تصر على الصعود من رأسي، كان الناس بردانين وأنا على وشك الانصهار في جلدي، نفس نظرة استنكار ضباط المطار، النظرة الشمتانة، وصلت إلى قمة شارع محمود بسيوني أولاً من غير ما أحس بالطريق، ثم فجأة خطر لي أن

أرجع وآخذ المترو، أن أغني تحت الأرض للخائفين، حتى يقل خوفهم.

لو أنني مَنْ بحثث عنكِ فقط، لكانت الحياة تغيّرت، ما كنت رجعت لأراكِ ولم تكوني أنتِ كمان ناديتيني وناولتيني التذكرة، تذكرة دخولي بيتكِ. قبل حضورك بدقائق بالطول والعرض كنت أمسح شارع شامبليون، في ساعة سأراكِ فيها بُكرة من غير ما أحس بالطريق، ذاكرت المنطقة الجغرافية على الإنترنت، لمحت مقهى التكعيبة الشهير مفتوحاً على عدد قليل من الطاولات، الجو كله حذر، ومع الحذر رغبة في تكذيبه، رغبة في إشاعة الوهم أن الحياة بلا خطر. وعدث نفسي بماء وقهوة وينسون في الهواء الطلق مكافأة لي إذا أنا أديث مهمتي، اشتريت التذكرة من محطة جمال عبد الناصر، وأنا أردد على نفسي بصوت مرتفع عناوين الاتجاهات، وكانت بسيطة جداً إذا قارنتيها بالخطوط الألمانية مثلاً، ابتسمت وشعرت بالحنين، دوّنت في سرّي أسماء الرؤساء: جمال عبد الناصر وأنور السادات ومحمد نجيب وحتى مبارك، كنث بالنسبة لهؤلاء، والنساء العجائز والرجال بالجلابيات، والبنات المحجبات الخجولات، كُنت لهم العفريت الأجنبي الذي يُكلّم نفسه بالعربي، العفريت الذي لن يستطيعوا أن يروه من الداخل، وحتى لو رأوه، فلن يستطيعوا أن يحسوا، تربصوا مني لما اخترت أن أركب أول عربة صادفتني في الوقوف، أول عربة يشير إليها السهم.

عَمَلَ الفنان الفن علشان يعبر أصلاً عما يخشاه الناس في أنفسهم، وكان من اللازم أن أحضَر ما سأكلم به هذا الشعور، كان في العربة نساء ورجال، رقابيهم مُطأطئة إلى الأرض، مشهدهم أحبطني جداً، توقعت من قبل لكن مَنْ سمع غير مَنْ رأى، ولم يكن لي إلا أن أقعد تحت أرجلهم، وأتوسل إليهم بما يتمسكون به في الأرض المتوترة من حركة قطر المترو، كان قد فاتني معظم هذا الحزن، تشككت لو أن قضيتي الخاصة تقدر على الاشتباك معهم، أنا سافرت وتعلمت وأحببت ورأيت، أنا عرفت نفسي يا مريم، ووضعث يدي على دماغي، وحاولت ألا أتخيل اللحظة القادمة، ساعدتني الهزّة المتواصلة في طرد الحذر من جلدي، ثم اقترب مني الطفل ولا يمكن أن يزيد عمره عن خمس سنوات، على جسده فانلة نادي الزمالك البيضاء، هو الوحيد الذي ضحك لي ورفع يده ليُسلم عليّ، أحسست أن ميشيل واقفاً معي يُشجعني، وقُلت إن حضور ميشيل دليل على حضور سارة، لا بد أنها هنا حواليّ، تضع يدها على كتفي، نهضت دون أن أتمسك بالعمود، وغنيَث.

أحلف بمريم أن العالم قد صمت لحظة طويلة، طويلة من أجلي، وأنها امتدت داخلي كنهر يلد عصافير تزقزق على جنبيه، نهر صافٍ وغير ملوث بالحقد. كانت أروع إشارة بمواصلة العزف تلقيتها في حياتي، وضعت الريشة بين شفتيَ ونفخت، لم أكن أعرف ماذا أعزف أو لمَنْ، كُنتْ أرد على السؤال الشفوي بالامتحان الذي

أعيشه في المنام فوراً أو كما خطر على بالي، وإذا بي أغني صوت البجعة في سيمفونية لمؤلفة يونانية اسمها إيليني كارنيديرو، البجعة المنفردة والنائحة ولها اسم هو الأوبوا. أحلف بكِ أن اللحظة كادت تتحول إلى عُمر جديد للتعويض، لولا أن قَطَعَتْها أصابع العكسري النحيلة، تنغرز في عظم كتفيَ، تألمت، تجاهلته وواصلت، جرَبت أن أواصل، رأيتهم وهم يبددون النهر، رأيت العصافير تطير، واصلت إلى أن مَلَّ وتعصَب فقرر أن يسحب مني الأوبوا، ساعتها انقلب العزف إلى صراخ.

بحثت عنكِ بالقوة نفسها لبحثكِ عني وذلك هو التفسير الوحيد للقائنا، أنا في العزف أفقد جسدي يا مريم جسدي كله، وأنا في الحُب أستردَه من تاني معكِ، كله. حياتي مَقْضِيَة بين المذهبين، هُم لما باغتوني يا سئي كُنت أعزف، أغمضتْ ودفعتْ نفسي إلى الخلف، دفعتْ بأقصى ما عندي من طاقة مُهدرة، هرست أرجلاً كنت أتوسل بها منذ وقت، سمحت لظهري أن يمرّ ويشق، اصطدمت بالحاجز، فتحت عينيَ وخَلّلْتْ في جسدي، اضطررت أن أرى المشهد: الناس الذين عزفت من أجلهم لم يتدخلوا، لم تقع عيني على طفل، فَتَحَتْ العربة حضنها في المحطة للعساكر والمزيد من العساكر، تحت توجيه الضابط، وهو يشير إلى جهتي، كأنني أكثر من أروى، كأنني أشخاص عديدون ومخيفون، لم أخف يا مريم لكنهم في غمضة عين كانوا قد أحاطوني

بلباسهم الأسود ومُدرعاتهم، حجبوا عني النار والأكسجين، فتوقف العزف، لم يعد لي غير التمسك بسلاحي الوحيد وإشهاره في وجوههم، الأوبوا كسيف مسلول لأن الأوبوا كانت تؤذيهم، لأنهم كانوا مرعوبين منها، أمروني في الميكرفون: "سيبي البتاع اللي في إيدك واخرجي برَة".

لم أعرف إزاي خرجت غير إني حتى برَة لم أسلم الأوبوا، إلى الهواء الطلق، إلى ما تحت السماوات يبدو أنهم سحبوني، ويبدو أنهم ضربوني، أتذكر أنني صرخت مُطلقة كل كراهيتي لمصر في وجوههم على الأسلحة وفوق الخوذات، لقيث نفسي أردد الأغنية كما بدأتها في المطار أول مرَة لكن دون نغم: "يا كذابين يا ولاد الكلب يا كذابين يا ولاد الكلب"، وإثماً بإثم أوجعث كل ما وصلت إليه يدي.

أراد الضابط أن يحسم المعركة، تدخل في هياجي يقبض على رقبتي كأنه سيخنقني، ثم صَعق وغصباً عنه ارتد إلى الخلف، آآآه، كأنه لمس سلك كهرباء مكشوف، بسبب سخونة جسدي بعدوا عني، على أساس أني شخص خارق أو شيطان، هي نبوءة بابا لي. أما جواز سفري الألماني، فحررني من بقية الخطوات نهائياً، ورجَع لخط المترو هدوؤه، كانوا يقولوا: حتى في المترو صعبان عليكم أن تتركونا في حالنا. قرأت لافتة محطة المترو "جامعة القاهرة"، وعرفت فيما بعد أنني نجوث مما لم تنجُ منه بنت أخرى في الميدان، ست

البنات، وكان هناك أشخاص يتفرجون على ما حصل معها على شاشات الموبيلات، وأنتِ كُنتِ على رصيف المحطة، رابطة شعرك ذيل حصان معؤوج تتأملي في الأفق وتبتسمي لنفسك، لا تعرفي إنكِ تبتسمي لنفسكِ ولا حد قاعد قربكِ يوصف لك ملامحك.

كُنت أعرف أني في يوم سألتقي بكِ، وأنك ستحبينني مهما بدت لكِ الفكرة سخيفة في البداية. زمان كانت ماما تقول عني لما يعايرها صلاح بخِلْقَتي: أروى ست البنات. وتبتسم لي كما لا تبتسم لمخلوق، ولا حتى لميشيل، تبتسم من قلبها، كما تبتسمين لي أنتِ، كلما لمستكِ من تحت وقلت لكِ كم أنه جميل وأبيض ويشبه الحلم، تبتسمين لي من قلبِك كأنه العالم أنا وأنتِ. أروى ست البنات كلمة كانت تعني أنني أكبر من سني: امرأة بالغة في جسد طفلة، وصف يستفز صلاح لأن يشتمني ويصحح: شيطانة كاملة في جسد طفلة. كل واحد منهما عنده نصف الحق، أنا لم أحزن، كلما كبرت وفهمت، زالت أسباب حزني عليَ. وأنا صغيرة لم أحس أبداً أنني غريبة، لما دخلت المدرسة، فكرت من العالم كله في ماما، بالغريزة كُنت أعرف أنني سبب بقائها في القصر، فعلاً، أنا استقبلتكِ هنا يا مريم، لكننا زمان كُنا نعيش في قصر، من ذهب خالص، قصر حقيقي موقعه وسط الغابة في حي على أطراف الجيزة اسمه حي الرماية، مساكن الضباط، الاسم بالتأكيد يُذكِّركِ بحاجات.

قصر يحميه جنود على أحصنة، في الليل، يقفلونه علينا بالترابيس، وأنا استأنست كل ما كان يخافه الأطفال في سني، الذئاب الفضيّة، البوم الحُمر، مخلوقات محبوسة معنا في القصر، منزوعة الدم، ومصبوبة بأمر بابا من أنفس المعادن. تصوَرتُ في البداية أن بابا هو ربنا، أن أفراد الخدم القليل هُم الملائكة، لم يكن لهم حق مُغادرة العمل، لا يمرضون ولا نسمع لهم صوتاً، لكن الملائكة طيّبة والخَدم مش كدة. كانوا ينقلون عننا كل همسة إلى بابا، خصوصاً عن أمي، متى ضحكت متى بكت ومتى جلست لتكتب. لا أذكر أنني ولدت يا مريم لكن أفقتُ في يوم من النوم ووجدتُ نفسي هناك، حاطّة على الأرض، ظهري مصلوب ورأسي وحدها تسقط على صدري، لم أحاول أن أعود لأن ذاكرتي لم تُرشح أي حياة بديلة، ثم نادتني سارة فاطمأننت ودخلت معها إلى الحمام الأبيض، الرُكن الوحيد من القصر الذي هو بلا زُخرف أو حرس ولا تئن فيه التماثيل، خلعت سارة خُفَيها أمامي وارتفعت إلى البانيو، رأيت كامل الجسد ولم أصدق، ثم صدقت وصدقت، كنت مبهوتة لما صعدت معها إلى أعلى التل، ضمّتني وغنّت لي بالفرنسية أغنية كانت تحفظها من أيام المدرسة. إذا لم تكوني موجودة. تلقت عني صدمة الماء البارد قبل أن يستجيب السخّان، ودَعَكَت جسدي بصابون الياسمين، مرَ وقت وهي تدعك، الياسمين كان

رائحتها المُفضلة، ودلوقت هو ريحتي، كانت سارة أول امرأة في حياتي.

ثم دخلت المدرسة، وتركتها وحيدة على باب الغابة، تجهز نفسَها لأن تعود إلى ميشيل في شارع شامبليون بعد سنوات الكبت الطويل. قالت إنها لن تعود إلى مساكن الضباط هذه المرة مهما حصل، بالغريزة كُنت أعرف أنني سبب بقائها في القصر، كنت عارفة ولا أستطيع أن أترجم على شكل كلام الناس، مغادرتي إلى المدرسة تعني أنها ستغادر، لن يبقى لها شيء في القصر بعد أن أمشي، زمان كانت تكتب الجوابات لحبيبها وترسلها له في الفجر مع العساكر الذين يأتون لقضاء طلباتنا، سواء تسلَمها ميشيل فعلاً أو تسلمها بابا، لم تتوقف ماما عن الحلم، وعن انتظار التليفون. في أحيانٍ قليلة، غادرت البيت، وعادت قبل الغروب. أما الآن، فصار من الممكن أن تذهب إليه بنفسها وترحم الحبر والورق. أنا رَكِبتُ مع السائق الخصوصي في العربة بزجاجها المستتر إلى مدرستي في الزمالك، تركتُها تلوَح لي وتودعني على صورة أفلام السينما، منذ ولدت يا مريم وأنا أعرف أن سارة تعيش هناك في شقة شارع شامبليون، كان انتقالها مسألة وقت، ظللتُ ألوَح لها حتى اختفت وحتى وصلت إلى بوابة المدرسة، وقفت في الصف كما قالوا لي مع التلامذة وبدأت الموسيقا كما تبدأ كل يوم في المدارس منذ بداية الخلق، تحية العلم ونشيد المدرسة، كان الصوت النشاز أعلى من قدرتي

على الاحتمال، شعرث بالدوخة ثم سقطت، فأعادوني إلى قصر لم تعد فيه ماما.

كل يوم أقول هل سيكون النور في نهاية النفق، هل ستكونين هناك؟ كل يوم أسأل والسؤال يختلف مع أن له المعنى نفسه. إذا فرضنا أنكِ لم تتعرفي على نفسكِ هل كان يصح لكِ أن تتعرفي عليَ؟ أنتِ دَلَقتِ كل الحياة الفائتة هناك على قضبان المترو الذي يهرس الفراشات لما ضَلَّت الطريق والفئران، دلقتيهم وطلبتِ مني أن أناديكِ وأغويكِ، أنا يا مريم لم أعمل شيئاً من تلقائي، لكنني وأنا صغيرة قوي لم أعرف كل ما سيحصل ساعتها، لم أعرف أنني سأكمل لك العزف المقطوع في المترو وأني سأنسى الناس دون أن أخاف من تلويح بعقاب. أنا من صغري على سرير النوم كنث ألمس يدها بيدِ، وأضغط بالأخرى رأسي إلى المخدة، أحكي لها قبل أن ننام ما كان يحدث تحت الأرضية المغطاة من الخشب الموصولة بسريري، ما كانت تنقله إلي أذنيَ. بابا لم يكن في البداية بابا، في البادروم يسكن الرجل صاحب الكلاب الجائعة والأسلحة النادرة والصقور الدائمة الكآبة، في الليالي لما يصطحب معه النساء الأخريات، في أوقات سعيدة من الليل، كانت تدفن أنفها في رقبتي، وأنا ألصق شحمة أذني بلحمها، كنث أسمع فوران الدم في شرايينها وأحاول أن أحصي دقات قلبها لكنني أتوه وأرجع، تعرَفث على العالم بالسمع أولاً يا مريم.

حكيث لسارة عن خوفي من أن أتحول إلى شيطانة كما قال صلاح العدل، لأنه كان من المستحيل أن أتحول إلى الملك سُليمان الذي سمع دبّة النملة في الطابق السُفلي، كُنت بحاجة إلى تفسير لكل تلك الأصوات، تحاشيث لأيام طويلة أن يشوفني، تصورت أن حجم أذنيّ الحقيقي مرئي للناس كما أنني لم أكن أبرد كالأطفال في أيام الشتاء، هو الذي اكتشف حرارتي الدافئة وعايرني بها وعاير ماما وهي جاوبت وقالت له: أروى ست البنات. مَنْ هو صلاح العدل بالضبط يا مريم؟ لا يمكن تقولي إنه أبي، تحت الأرض كان عرشه وأحياناً كان يُحب أن ينام، أقدر أحدد موقع البادروم أنه المستطيل الذي يقع تحت هيكل سريري بالضبط. بعد أن غادَرَث سارة كُنت أسمع دقة قلبه عالية كأنها إنذار، وأنا لم أكن أريد أن أسمعه، أحياناً أفكر أنه كان كما آلة موسيقية مسحورة تُصدِر أصوات كل آلالات، وأنه بسبب القهر أعطاني كل رهافة الحاسَة، كان يبكي ويتذلل، سمعته ينادي على أسماء لنساء لم أصادفها من قبل في حياتي كفوزية وسهام ونعمات، كان لا بد أن يأتي على سيرة سارة ويناجيها في قطع شعُرية ممتازة، طالباً منها أن تصفح عنه مرَة وتترجمها إلى اللغة الفرنسية وسيُحبها، كان يجرح الحائط بصوته وباب غرفتي، سرَه الذي احتفظت به وأخفيته عن الجميع حتى عنه، وسمعت المساجين يطلبون العفو منه وهو يستهزئ، كل ما يقع داخل عقله يا مريم كُنت أسمعه،

كل يوم أتحسس أذني، وأخاف لو صَدَق صلاح العدل، كيف ستكون شكل الحياة؟ لأزمنة تصورَت أنني كنتُ أتنصت على كوابيسه دون إرادتي لأنني قد أكون فعلاً من إبليس.

لكن الناس ما كانوا يرون ما أرى، ما زالت ماما تقول إنني أكبر من سني، إنني امرأة في جسد طفلة، يعايرها صلاح بخلفتي فتغني لي وتبوسني: "أروى ست البنات". طبعاً لم يكن لي أصدقاء، إلا العصافير والحمام على الشجر، الكائنات المغرومة بالهرب مني، من كل الناس، وللأسف أنا مازلت من الناس، أنا إمتى كُنت طفلة يا مريم وأنتِ كُنتِ إمتى؟ وفي يوم صعدتُ كما التلاميذ إلى البناية، وترددتُ في الدخول إلى الفصل، وفجأة نَطَيتُ إلى السور الفاصل بين الأرض والدرج، خلعتُ عني اللباس الرسمي وعلى إثره اللباس التحتي، رميتهم إلى خُفرة السلم ورائي. كُنت عاوزة أعمل إيه؟ مش عارفة أنا حاولتُ ألا أهتز، على السور لو اهتززت كنت سقطت وساح دمي، ولما سَكَنتُ، فتحت ذراعيَ على وضع الحضن، وباعدتُ ما بين رِجليَ.

تخيلي المشهد يا مريم.

تمنيت من البنات والبنات فقط أن يقتربن ويفعلن مثلي، دعيتهن بحماسة: "يلّا تعالوا". لما كنَ خائفات، طبطبتُ على السور ومسحتُ عنه التراب، أعطيتهن حرية الجلوس أو الوقوف، وقلدت زقزقة العصافير لأستعطفهن. آه يا مريم كانت العيون حولي تتشقلَب

سعيدة رغم المستقبل المعلوم. صفَّر الشباب من الزاويا البعيدة، وخافوا من الاقتراب لأنني هددتهم بصوتي: "ششش". كلما اقتربت من السقوط اعتمدتُ على ذراعيَ في الاستناد، وفتحتُ نفسي أوسع، بنت واحدة استجابت لدعوتي، بدأت تُقشر نفسها قدام العالم كله كما كان ساعتها مُكوناً من الدادات والصبيان والحيطان والبلاط وجرس الفُسحة المرفوع إلى السقف، كانت مُراهقة وأكبر مني في السن، الحقيقة لم تقع عينيَ عليها من قبل، والحقيقة كمان أن الحياة بانت لما اكتشفتها كما لم تَبِنْ أبداً، ودلوقت أذكرها كما أذكر وجهي في المرايا وأنا أتأمله أيام الطفولة: صافية وهادرة ولا شيء يقدر يعكرها. اقتربت مني البنت بالتصوير البطيء وهي تخلع كل ما يغطي الجسد فرحانة ومخضوضة، بلعت أنفاسي كالغرقى وأنا أرى وأستعذب الرؤية، أحسست بالدوخة تصل إلى دماغي وتصهره، لم أحس بنفسي يا مريم، حدقت وحدقت فانخلع قلبي من ضلوعي وعيني كادت تفرَ من المَحجِر. صارت الحاسة المُعذبة بسمع ما يلزم وما لا يلزم مشوية على الفحم، رأيث نفسي من خارج نفسي كالملائكة، كالموتى، وأشفقت على الغبطة التي وصلتني قبل فوات الأوان. أردت أن أحضنها بداية وكنت أدرك الأصوات الصاعدة إلينا على الدرج والصرخات وهي توزعت بيني وبين تهديدهم، كانت تبص لي كأنها تُعاتبي، وأنا أبتسم لأن ما رأيته يكفيني. تعاتبني لكن على إيه؟ لم أكن

أعرف، يمكن على حاجات كنت سأعملها بعدها بأعوام.

طبعاً لم أطلب من أحد أن يتدخل، لكنهم تطوعوا وأنزلوني من هناك جبراً، والبنت أخذوها بالعنف نفسه، الفرق بيننا أنني لم أستجِبْ للعقاب الذي أرادوا فرضه عليّ، أما هي، فاستجابت على طول وبكت وتذللت، سحبوني إلى غرفة المديرة، مسحوا بي البلاط ولم أحس. راحت الصورة لما غطوني بزي عاملات النظافة الأخضر، ألبسوه لي وصارت هيئتي غريبة، لم أعرف أبعاد جسدي الحقيقية فيه ولم أزعل، كنت لسّة سكرانة بالنشوة، حبسوني طوال اليوم الدراسي في المكتب الفخم فبقيت بينهم أجترّ المشهد لحظة بلحظة، أنفصل عنهم وأدخل إلى المعبد، جسدها وأضيع فيه. في الليل وصل صلاح العدل، رآني بالزي الأخضر فرفع السلاح عليهم وشتم ولعن وبصق، قالوا من بعد إنني كُنت أتصرف من سلطته.

والله يا مريم لم أكن قد تعرّفت على صلاح العدل حتى أتصرف من سلطته، أذكر لما فزّ الحمام في الفيلم البوليسي الذي كنت بطلته دون سبب، على الأقل من وجهة نظري، ساعتها كان بلا سبب، وأذكر بحثي العليل عنها كل يوم أذهب إلى المدرسة، صارت هي غايتي من الذهاب إلى المدرسة ثم كما تتخيلين، لم تعثر عليّ.

كانت تلك أول ثورة أخمدوها في حياتي يا مريم.

في غياب سارة، عشت وحدي، اتصلت الأيام بالليالي، كان يمكن أن تفوت سبعة نهارات دون فاصل نوم واحد، لم يكن قدامي سوى أن أرحل إلى أي مكان. بيت شارع شامبليون كان راسخاً في ذهني كما أبو الهول الذي كنت أشوفه جليّاً إذا فتحت شباك غرفة نوم ماما وتأملت. استدعيت حقائب السفر من البادروم، قررت أن أجمع ممتلكاتي، صوري مع سارة العزيزة، لحظة ميلادي وهي تنظر إلى الكاميرا بهزال، أيام نِفاسها الصعبة، أيام كتبت الخطابات إلى نفسها بالفرنسية المُقعرة كي يمر الألم، أرَخت لحياتها باللغة التي لن يفهمها أحد غيرها، اتَّصَلَت بي سارة مرة في منتصف الليل وقالت: "أنا اشتريت لك كل أسطوانات الموسيقا الكلاسيكية".

ثم رنَت ضحكتها في التليفون، طبعاً ميشيل كان إلى جانبها، ويمكن كانا نائمين زينا على السرير دلوقت، فخذه يلمس رِجلها من تحت كما ألمسكِ، وصوتها العذب يغني: "أنا اشتريت لك كل أسطوانات الموسيقا الكلاسيكية يا أروى".

ميشيل هو مَنْ حضر إلى المدرسة في السر، وترك الموسيقا لي جوار علم مصر المُرفرف فوق أبعد سطح ممكن عن العيان، كانت مجموعة في كيس زبالة أسود، سرقته في غفلة الكل وهجرت المدرسة ساعتها بدري.

لأيام قعدت على الأرض عريانة كما أحببت، أخك بأذنيَ المشتاقتين معدن السماعة السوداء الضخمة، أفتش عن المعجزة، صوت المعجزة، من أين كان يطلع؟

كانت الموسيقا تهبط من السقف وتخرج من الحيطان، كانت تتنطط في الهوا يا مريم، وأنا كنتُ أصغر من القدرة على تسميتها، كنت أصغر من تسميتها على شكل كلام الناس، إنما في قلبي كان لها اسم، وهي عرفت طريقها إليَ، في الساعة المباركة، إندسَّت الموسيقا في قلب لم يقاومها وأعلنت أنها، هو وهي، صارا واحداً، لن يكون هناك شكٌ، لما عرفت الموسيقا طريقها إليَ، خَلَت لموهبتي معنى، آمنت على مراحل ولم أبشِّر بالإيمان إلا باللغة الألمانية بعدها بسنوات. كان إغلاق الباب دوننا يعني أن في الغرفة أكثر مني، أنني غير وحيدة ولن أكون، والنغم يتلاحق، كملائكة طيارة ترمي حبوب قمح للعصافير ولا تقف ثانيةً واحدةً لا لألمسها ولا للمس العصافير، درث لأسابيع وشهور وأعوام من أسطوانة إلى أسطوانة، ولهانة كأن الأسطوانات نساء.

في ميونيخ، تَعَلَّمتْ الحُب والموسيقا، وتعلمتْ نفسي.

بعد ستة شهور من موت سارة، سافرت إلى ميونيخ، اخترتُ ألمانيا كي أبتعد عن العربي والإنكليزي والفرنسي. الهجران كان شرطي الوحيد للرجوع إلى الحياة. في الأيام الأخيرة، قبل ما تفارق جسدها نهائياً، قالت لي: اخرجي من مصر زي ما كان لازم نخرج سوا. ماتت سارة في فيلا موحشة في مساكن الضباط من حيَ الرماية وكان ذلك المكان هو كل مصر بالنسبة إلي، لأنني استجبت لها لما قالت لي: لو خرجتِ من القصر

أبوكِ لن يتركنا في حالنا حتى بعد الموت، لن يتحمل صلاح خسارتكِ. ومع أنني سمعت كلامها وكلام ميشيل في شارع شامبليون لما قالا لي إنه أحسن للكل أن أرجع ورجعت، نفذ بابا فينا بؤسه.

كل الأيام قادتنا إلى اليوم المشؤوم يا مريم. انتظرتني سارة قدام مدرستي واقفة مرتبكة ومسكوفة، يطل بياض رِجليها من التنورة الكُحلية، لا ترتدي أي شيء تحت التنورة، في عز البرد تلبس فانلة سمني بحَمالات وتغطي ذراعيها بشال أبيض. كُنت متأكدة أنها لم تعد تحس بشيء، طلبنا من السواق الخصوصي أن يمشي، فلن نرجع إلى مساكن الضباط مِن بغد، أنا وهي وحقيبة المدرسة الخالية من الكُتب وزمزمية الشرب. مشينا جميعاً من الزمالك إلى شارع شامبليون وسط البلد، تضغط سارة على يدي وتتكسف للمرة الألف: "متأكدة أنك عاوزة تشوفيه؟". أشوف حُمرة خدها الأيسر، وأحس اللون في صوتها فأدفأ بها وأعاكسها: "سارة تشبه الوردة". وأغني لها إمعاناً في إخجالها. "هقابله بكرة وبعد بكرة". كُنا في الشتا كمان، ذلك أراه بوضوح كما أراكِ، لا الشمس تُعيينا ولا الدنيا تمطر، قالت سارة إنه طقس مثالي لي كي لا أمرض، وصححت لها أنه طقس مثالي للحُب، لاستعادة الحُب، قلت إني مشتاقة جداً لأبي الحقيقي، في نوفمبر كمان. شُفت البواب لأول مرة وشافنا بجلبابه الوسخ وكان لاؤياً بوزه ويستغفر ربنا. تركناه وصعدنا متعجلتين، أول دخول

إلى شقة شارع شامبليون، كنت أحس بقلب سارة يدق في صدري، أنا كأنه هيقف، كأن ميشيل حبيبي أنا، كأني هي، أو كأنه وجه البنت المختفية من حوش المدرسة إلى الأبد. لم تكتمل سارة إلا يومها، أنفاسها المتلهوجة بذلت مجهوداً رهيباً كي تضبط سرعتها في حضوري، كم كنتِ ملهوفة يا سارة على عناق الشقة ومَنْ يسكن الشقة، لم تسكني أي بيوت من قبلها، كلها مجرد نُزل وأنا ورثت عنكِ، تحبّي تشمي ريح ميشيل لما فَتَحَ الباب على وقع رِجلينا وهي تدب على السلم قبل حتى أن نرّن الجرس. اعتذر في البداية: "أنا آسف يا أروى الجرس محروق من زمان ماما عارفة كدة".

أخذني في حضنه ولم يهتم لها، اشتممتُ رائحة عرقه، وطَفَرَت فيَ غيرة فُجائية، ذابت لما نطق لي أنها حكت له من قبل عن عشقي الكبير للموسيقا، قعدنا فأخرج يده من جيبه وبسطها بالهارمونيكا، آلة بسيطة بحجم كفَكِ وأنتِ طفلة، صوتها يشبه صوت العصافير المولودة حالاً. نفخ ميشيل فيها من روحه قدامي فصدرت نغمة تحاول أن تكون نشيد الصباح في المدرسة، لكن ملخبطة، قررت أن أصحح له فأخذت الآلة وارتجلت العزف الصح. ارتاح ميشيل إلى ظهر كرسي الصالون الذي استندتِ عليه أول مرة، انجذب إليَ كُلياً ناسياً وجود سارة. كان يراها فيَ وكنتُ أراها في عينيه وهما تلمعان، رسم في الفضاء بالأنامل

السمراء شكل آلة التصوير ثم غمز وقال لي: "قمر يا أروى بكرة تجنني الرجال".

وضحكت سارة.

ماتت سارة بتَمَهُل شديد وعلى أجزاء، حتى نَوْمتها الرايقة في التابوت كانت تحصيل حاصل، كُنت قد قررت أن أبقى، ألعب بالهارمونيكا ساعة الغروب كل يوم من الشباك المطل على التكعيبة وأنسى إلى جوارهما كل ماضٍ، لكن ميشيل أقنعني أن أرجع إلى مساكن الضباط كي لا ينفذ بابا فينا بؤسه. أزورهما من وقت إلى آخر وأعزف على الشباك كما أحب. سمعت كلام ميشيل ومشيت فلم أشهد لحظة موته، أنا كمان من قبلك لم أصدق يا مريم ما حصل، دخل عساكر بابا إلى الشقة، ففزعت ماما وفقدت الوعي، ربطوا ميشيل بحبل من رقبته ومضى الوقت وهم يتندرَون عليه ويسحبوه بينهم وهو يصرخ خائفاً مما سيعملوه معه، وفي لحظة جرَوه إلى شباك غرفة الأوبوا، وألقوه من الدور الرابع، من الدور الرابع يا مريم، سقط ميشيل جنب المقهى، سقط على أنفه وقعد جسده ينتفض وقتاً زي الفراخ المذبوحة إلى أن وصلت الإسعاف، كان على الأرض لما سارة هوت عدة مرات على السلم، وبدا لها ميشيل في آخر الكابوس، ولما جعلت أصابعها في أصابعه، وبالكف الآخر تلاعب شعره وهي تقول له إنه مكسور كسراً بسيط. "أنت مكسور كسر بسيط قوي يا ميشيل وهتعيش". سارة نفسها لم تصدق أن العساكر فعلوا

فعلتهم وساعدوها أن تفيق بهدوء أعصاب نادر كي تودعه الوداع الأخير، هل كان هذا من أمر أبي أيضاً؟ آمنت أمي يا مريم أننا كلنا مجرد حشرات في نظرهم، كان ميشيل يسمع صوتها ولا يستطيع أن يراها، "سارة، يا سارة"، بينما رواد المقهى ملتفون حوله يطلبون منه ترديد الشهادتين، ظل يحاول أن يفك ربطة الحبل من رقبته لأنها كانت تخنقه كما قال، لن ينطق ميشيل ولا كلمة في المستقبل، وصل المُسعفون فعزلوه عنها، كأنهم يعرفون مسبقاً ما يفعلون، يغطون جسده بكيس زبالة أسود، كان ممكناً لميشيل ألا يعرف أنه مات، كان ممكناً أن يواصل المقاوحة، لكن التمرجي النحيل مال عليه ووشوشه: "إنك ميت"، فخلَّصه من المحاولات.

أخذوه وتركوا سارة على الأرض تُعبئ بنهم التراب الذي نزف عليه في فمها وأنفها وصدرها، وكان التراب يهرب منها، لا أفهم يا مريم كيف وصلت إلى التليفون، كيف قالت كلمتها العادية، وانقطع الخط.

رموا ميشيل في الزبالة يا أروى.

وإلى مَنْ كنتْ سأحكي لو مِن غيرك؟

لما وصلت ميونيخ، شُفت الدنيا من شبَّاك الطيَّارة، قبل هبوط الدرج الحديد، كانت ليل جداً وبرد وكانت تمطر كأنها لم تمطر من زمان وافتكرَت أن تُمطر الآن لسبب لا تبوح به.

في أول سفر لي، راكمتْ حقيبتيَ فوق بعض كما شُفت المسافرين المُدرَّبين يعملون، ومشيتُ أترنح إلى الضابطة الشابّة تختم لي جواز السفر وتبتسم أنه أهلاً في "منشن"، تهت في حلزونات تحت الأرض حتى محطة المترو وتعبت، كنت مُصرة على اختراع وطن آخر غير مصر، وعندي العزيمة أن أرحل وأجمع العلامات من فوق اليافطات وأتحمل أن تتشابه عليَ، حاولت أن أحفظ نطق أسماء محطات المترو والمُذيعة تنادي على كل وِجْهة للهبوط، ساعتها كان لسَة العربي هو المرجع، لم أكن قد أجدت الألمانية بعد. كنت في القطار أرى مشاهد الاخضرار على الجانبين، وبيوت خلَابة كنتِ ترسمينها في حصة الفن بالمدرسة وتحسي أنها غير موجودة في العالم سوى على الورق، خلال ساعتين من اكتشاف الدنيا الألمانية وصلتُ إلى إيسار، النهر الطويل الذي يلِّف ميونيخ كلها بلا كلل أو ملل، أنا في أرض بفاريا التي اشتهتها ماما من قبلي وماتت على اشتهائها، وكان الفندق المُخصص لي غرفة فيه على بعد خمسين خطوة من النهر بالضبط. نزلت من التاكسي ودخلت بجواز السفر أملأ الفراغات عن اسمي واسم

بلدي وفترة إقامتي والغرض من الإقامة، كتبتُ كلمة واحدة أرجوها في خانة المدة هي إلى الأبد، وتلقيت بالبساطة نفسها التعليمات عن مواعيد الإفطار ورقم مكتب الاستقبال في حالة الطوارئ وقد نسيتُه على عتبة الأسانسير، هناك لاقيت شاباً وشابة يتكلمان لغة إنكليزية ركيكة، هي شفايفها بيضاء وشعرها أصفر قصير، موزعاً على بشرتها كاللبؤات، وهو وجهه بريء كالمراهقين، كان بينهما الزعل والصلح عندها عقده مُحدد جداً أن ينام معها عند النهر في البرد وأوصل ثلاث مرّات.

بتضحكي يا مريم؟ كان حقك تشوفي المشهد. رميث حاجتي في الغرفة وبابها المفتوح. أصغيث إلى الهاتف الذي وسوس لي أن أتلصص عليهما. بدأ الولد يساومها، طيّب نبقى في الفندق وتوصلي عشر مرات؟ وهي تصرخ وتهدده إلى حد لبّى أمنيتها وكانت هي أمنيتي. نزلت وراءهما الدرج بخفة، أنطّ وبالكاد ألمس الأرض كُنت قريبة من الطيران، المفتاح في جيب وفي جيبي الحرة يدي مضمومة وعرقانة، لن أسمح أن يفوتني المشهد، خطفوني بلا مظلّة، كنت مبلولة وهما يتدفآن بالبوس كل خطوة.

شوفي عدالة العشاق يا ستّي!

عند الجسر كانت السلالم منحوتة من الصخر تستدعي في خيالك سؤالاً عن قوة الناحتين، وعَرَق إيسار على الجَنبين يخلّيكِ تهبطي بحذر، أتسحّب

وأتسمعهما مُدوَخين بالحُب لا ينتبهان إلي، تقف البنت فجأة وتزعق: "يا ابن العاهرة أقوى"، وتنزل أكثر إلى النهر، كانت تُعاقبه على حيائه من الطبيعة، صفعها صفعة خفيفة لأنه لا ينفع المزيد من الهبوط، لأول مرَة منذ بدأت العركة كان حاسماً وقال: "هنا"، وكان هنا عند بيت السنجاب قرب الشجرة، صحا السنجاب النائم مذعوراً من الصوت وجرى، هما دخلا إلى بيته الضيق وتكوَّرا معاً في ضلال عن العالم، وانتفضا مرَة وعشرين، تركتُهما ونزلت إلى النهر، حررت يدي من جيبي وخلَيتها تتنفس، مثلث ما يُمكن أن تُسميَه وضع الصليب بلا قصد، كُنت عاوزة المطر يدخل إلى قلبي الأسود والنهر يمر ويكنسه.

رجعت الفندق سِتَ تانية كأني أنا مَنْ نام معها العاشق، كأني أنا مَنْ نامث معه، في وقت واحد كنت أنا العاشق والمعشوق. لا أعرف كم مرة حصل أو لو كانت شبعت بالكامل. إرتَمَيت على السرير غارقة في النوم ولما فقِث أغيِّر هدومي من ليلة أمس، تذكرت أني حلمت بسارة وميشيل يتعاشران في بيت السنجاب، كانا متكوَرين في ضلال عن العالم، بردانين ويلهثان من خمى الحُب، انتبها إلى الحيوان الصغير السن واقفاً يتفرَج عليهما وكانت الهارمونيكا في جيبه، ضَحِكا له ضحكة خاطفة وهبطا إلى النهر يُخفيان منه غريهما.

تحولت الهارمونيكا إلى أوبوا على يديَ نويمي.

ما حصل أنني خرجت في الليل وسرت عشوائياً بمحاذاة النهر، أينما يقودني أذهب، حتى وجدت أنني أمام مبنى ثقافي خلفه كنيسة، انجذبت للاقتراب بينما رنَت أجراس الصلاة ثم انقطعت، وبفضل الانقطاع المفاجئ استمعت إلى صوت الموسيقا الصاخب يناديني من قلب المبنى، فدفعت الباب ودخلت، كان الظلام محددٌ دوره بإعطاء هيبة للمسارح مع نور بسيط لألوان قوس قزح ترقص، ونغمات الراي المغربي تبيع ما كانت تبيعه للأجواء من جنون وانفلات لطاقة الذات، بعدها يا مريم وقعت عيني عليها، وقعت عيني على نويمي.

كانت الموسيقا كحلقة نار وهي كانت في منتصف الحلقة، نور مفروض أن يراه الناس ولحُسن الحظ لا يراه سواي، عازفة للأوبوا بين الساكسفون والترومبيت والمُغني حليق الشعر بحنجرته التي تُلعلع على نحو استثنائي في ليل ميونيخ الجديد عليّ، ميزتُ صوت الأوبوا على أنه الرقة وسط التلاحم، الشكوى في أوج اللذة، عزفٌ صادر عن الأسطوانات الأولى لما قشرتني وعرَفتني موهبتي، مشيت وراء الصوت ولم أعي في البحث، من وراء الآلة كانت هي بالزي الأسود منسجماً مع بشرتها الفاتحة وشعرها القصير كالأطفال، تتحرك كريشة وفخذاها مجرد حدود وهمية لكيان لا نهائي، كانت العازفة الأجنبية الوحيدة في فرقة لموسيقا الراي المغربي، منفصلة عن العازفين الآخرين سوى ما تُلزم به الحاجة وتقريباً لا ترانا، نحن المشاهدين، تلف في الباحة

بخطوة الضرورة وهي تزفر في آلتها السحرية بلا أي إحساس بالاختلاف، تتفادى الوجوه قدر ما يمكن، وإذا حدث وصدمها أحد منًا، ابتسمت بتهذيب مُكتفية، حاجة تجزم بالغياب الأول وتؤكده، تجرأتْ فطاردتها وصرت أدور وراءها من زاوية إلى زاوية، مازلت أسمع عزفها مُجلجلاً يا مريم، ونقياً كأنها عازفة منفردة رغم أنها لم تكن كذلك، عزفت وهي بعيدة عنًا رغم حلولها بيننا، خلال ساعتين لم تمس رِجلها بحر الحياة.

زاحمتُ الناس وتقدمت إلى البار في نيتي مطاردتها حتى آخر يوم من الحياة. لم أقدر على مقاومة فكرة أنها هابطة من مكان أسمى من مصر ومن ميونيخ. مكان فيه أشخاص من بني جنسنا لكن حتماً يضاهون جمالها. وفي الحال قررت أنني سأعمل الليلة أي شيء كي أقترب منها. كي أكلمها وأُعلِمها عن الحال التي وقعت لي بمجرد رؤياها. تابعت الرقصات ولم أرقص. حاول الرجال أن يجذبوني للهو معهم فخوَفتهم بنظرة. فكرة قتل كل مَنْ يقف في طريق اجتماعي بها كانت منتهى العدل بالنسبة لي. سعيت لتسجيل المشهد ثانية بثانية. بحثت عن ورقة أكتب عليها أو قلم. لعنت نفسي لأنني لما أحببت أن أدون بعد سبع عشرة سنة من تعلمي القراءة. كُنت في آخر مكان على الأرض أقدر أن أجد فيه وسيلة واحدة للكتابة. بار وسط ناس سكارى. فهمتِ دلوقت ليه كَتَبَتْ سارة إلى ميشيل جوابات؟ لجأتْ إلى ذاكرتي وترجيتُها: أنتِ لا يمكن أن تخونيني،

امحي من فضلك أزمنة العذاب وسجلَي من أجلي عدد المغنين في الصالة حواليها شكل الآلات، بل تطرفت فتتبعت ثياب الجمهور وأعدادهم ولغة أجسادهم. سجلي لي يا نفسي من أجل أعوام ستأتي وتمر في قحط.

تحركث بخفة المجرمين، تتبعتها بمكر الثعالب، لم أتعجل انتهاء الحفل لأنني كنت أستخرج الأوبوا من بين المليون صوت كما تستخرجين شعرة من العجين. استخرجتها وسرحت معها كأن ليس في الكون غير صوتها، ولما انتهى الحفل، خفق قلبي وابتهجت. لاحقتها من وقت ما فارقت البار وأخفت الأفعى التي نادت عليَ بها في كيسها، الأوبوا. بَسَطَث المظلة كسقف أعلاها، سألث نفسي كلما تقدمت إلى الشارع ومشيت كما يمشي الناس: إزاي كانت تتحرك بسهولة كدة ولا تتعرف إليَ؟ لم تغلط مرَة وتدير رأسها إلى الوراء فتسلم عليَ، بعدين طريقها الطويل استولى على فكري، سرَني وتمنيت أن يستمر المشي إلى الأبد ويتبدد عمري. وإيه يعني؟ في اللحظة التي لم تحتمل فيها البرد ورفعت ياقة البالطو إلى أذنيها كنت أربت على كتفها وأناولها كوفيتي.

وِقفث نويمي وسط الشارع رافعة حاجبها، وأحاطنا مشهد المطر كما أفلام السينما، بدأت أحتمي معها بمظلتها، حدث عفوي لم يكن قصدي أن أنتقص من مساحتها، القرب منحني حق التملي منها. كنت أمنع كل

رفة طبيعية لجفن وأنا أتخيل العذاب الذي سأحياه لسنين قدام في توزع هيئتها على كل ستّ أتعثر بها: العين خضراء والأنف نحيلة ومدقوقة في الجمجمة تجمع مسامات عزيزة حواليها كأنهم أولادها. لم يكن معي كاميرا للأسف، فأصورها كما افتقدت من قبل الورقة والقلم أن أرسمها. الشجاعة كانت سلاحي الوحيد في مجابهتها، أن أصرح باسمي معترفة بالخوف الذي يعتريني كلما تكلمت بالألمانية: "إيش هايسه أروى". ضيَقت عينيها وابتسمت، أنا في الأثناء كُنت أتصرف بإحكام الكوفية حول رقبتها وبالإشارة إلى صدري وترديد اسمي مُستعيرة لغة عاشرة قد تربط بيننا "أروى"، أخذت أرددها بإزعاج: أروى أروى أروى. بعد أوان ردت عليَ بإيماءة رزينة أنه أهلاً، أعتقد أن دفء الكوفية دفعها أن تخفض حاجبها. في النهاية أنا مجرد ستّ ومستحيل أن أؤذيها، إيه ممكن يخوَف فيَ؟ ثباتي قدامها أجبرها تعرَفني على نفسها بالمثل: "جو مابيل نويمي". هي فرنسية وأنا قد عُدت من حيث بدأت. ولما كان الوقت يفوت في عجب بالنسبة إليها، ومع المطر والبرد الذي خَشِث عليَ منه بحكم رد الجميل مش أكتر، سمحت لي بإكمال الطريق معها لو أحببت! سرنا صامتتين يا مريم وفي عقلي حتى لم ينبت الكلام، بَس أبتسم إذا ما نظرت إليَ بطرف عينها مستفهمة وخجلانة من استفهامها، أبتسم بثقة أنه الجواب موجود وسهل لكنكِ لن تقرئيه، سرنا مسافة

ساعة على القدمين انتهيث فيها إلى انتصار عظيم، أن إنحَلَّ توجسها مني، وأن جعلتني بعد محايلة أحمل الأوبوا عنها، وأنا تماديت فأخذث كفها في كفي.

فندقها كان على قد الحال، تصعدي أربع درجات وتضطري إلى مسح الحذاء جيداً في السجاد الأحمر على العتبة امتثالاً لليافطة المُعلَّقة تطلب من الضيوف، بالتأكيد لم يكن لنويمي أموال صلاح العدل فتحجز غرفة إلى جواري وجوار إيسار، المهم أننا هربنا دلوقت من المطر، صدقيني يا مريم كنت سأوصلها إلى الباب لأطمئن أنها في مكان آمن ومنام ثم أنسحب، كُنت أطلب إيه يعني؟ لما هي دعتني أن أصعد معها إلى فوق ذيَلث الطلب باسمي مُضافاً إلى كلمة محايدة: "شير أروى"، وعرضت عليَ مشاركتها في شراب يخفف البرد، لم أرفض لكنها على الرغم استعطفتني، كان حنانها حقيقياً وهي تبص إلى هدومي المبلولة بإشفاق، قلت لها بعربي صِرْف: "أنا مش بردانة لكني هطلع"، كنت متأكدة أنها ستفهمني ولم أتحقق من اليقين. ليست من سكان ميونيخ بل فرنسية من ضاحية بباريس، ولما يطلع النهار تعود بالقطار السريع، دعتني أن أبقى معها يا مريم حتى موعد الرحلة، وبقيث.

على الدرج، أفلتت يدها من يدي، وكانت وردة حمراء راقدة على طاولة الاستقبال، أنا يا مريم ندمت على هذا الإفلات، مع نويمي كنت أتقدم إلى هشاشة نسجت حبائلها حواليَ بنعومة وقلبتني رأساً على عقب، مسحت

بيدها على الشرشف الناعم لسريرها المؤقت كي أقعد، وقعدتُ أتذكر الوردة في الاستقبال وأحاول التكهن بالشبه بينها وبين نويمي، جرَت إليَ علبة البيرة من الثلاجة وجاءت واستقرت جنبي، صار فخذها ملامساً لفخذي، تشرب فتصبح على راحتها أكثر، بدأت تحكي لي جملاً بسيطة كأنها تُعيد رواية العالم بعد تخليصه من الزيادات، وأنا أسمع ولا أرد، كُنت أتلقى اللغة من جانب واحد، وهي تشرب وتبتسم، تستدير إليَ وتحنَ عليَ بحرف العين، تستدير وتنام على جنبها زي الوردة على الطاولة.

أغرمت بنويمي يا مريم.

قالت إن لأهلها دكان ورد في فرنسا وهي تساعدهم في أيام الإجازات، تمردت على العزف في الأوبرا لأنها لا تُحب الأزياء الرسمية. أحبَت الناس في ميونيخ وأحسَتهم طيبين. "أين هي مصر بلدك بالضبط؟" عندها خطيب مشغول بأصول البستنة وحقائق الزراعة، يدَعي أن العالم بلا فن سيصبح أكثر إنسانية، أنا أعتقد أن عنده منطقاً في رأيه لكنني يمكن أحب أن أخرِّب العالم. وأنتِ؟

كنت أتفرج على نفسي كأنني بطلة في فيلم وهي البطلة أمامي، رفعتْ خصلة ذليلة فوق جفنها وهي تتكلم، لم أضرب لحظة عن تأملها، ولا أجبت عن سؤالها. سحبت الأوبوا وسلَمتها لها، يعني رجوتها أن تعزف وهي استجابت فوراً، انتصبت بإخلاص قدامي على السرير

أغمَضَت ووضعت الأوبوا بين شفايفها، غنّت ببساطة كأنها في الكنيسة تُشعل الشمس، إيه هو اسم المقطوعة؟ كنتُ راقدة تحت رجليها أتعبد، قدَست جسدها، والأوبوا تُمرجحها بيني وبين فراغ الشارع الذي سكت فيه المطر.

ما زالت تعزف وأنا أرتفع إليها فينساب جسدي كسمكة أعادوها إلى النهر، كانت منهمكة وحزينة كينبوع للحزن، وأنا كنت أصرخ باسمها في روحي محاولة دفع الشرير. في الواقع لم يكن لي الحق، حق محاربة العالم من أجلها، كان لها خطيب وعائلة، أما أروى، فلا قرابة لها بها،وفوق كل ذلك هي مشردة، في مواجتها لي العين بالعين، كانت الموسيقا تنشطر قدامي من الزمارة حادة كسكاكين غير محددة المرمى، وأنا واقفة ضدها صدمني خاطر مضيء: الأوبوا كلمة السرَ، الأوبوا كانت طوال عمري هي كلمة السرَ، الحلَ الوحيد لمعادلة خلقي، الأوبوا، قد يكون الخاطر أشعل نظرتي فاستسلمت أخيراً ولاحظتني. كما لم يعمل أحد. بكرم بالغ ودون أدنى تردد، قدمت إليَ زُمارتها السحرية: "سي بور توا أروى"، وطبعاً قبلت أروى الهدية.

لما طلع النهار ودَعتُها على رصيف محطةِ وصلتْ منها أمس، جَسَت كفَي وابتسمت مُخفية عينيها، راقبتها وهي تبتعد وتجرَ الحقائب خلفها، مشَت ولم تنظر إلى الوراء، وبعدها لما قالوا لي إن صلاح العدل أكل جسده السرطان وعاوز يشوفني قبل أن تغادره الروح، طلبت

منهم أن يبلغوه باختصار: أروى أصبحت عازفة أوبوا في الميادين وصار لها خليلات.

لا شيء يمكن أن يموت من الماضي. حتى مَنْ مات قريباً ترجع له الحياة. ويقوم ينطق على ما عمله وما عملوه له. الجثث في الشوارع والرصاص الساكن. حتى الحيطان الصامتة سيأتي عليها يوم وتتكلم عمّا دار في البيت. تحكي كما نحكي الحكايات. أنا لما رجعت يا مريم، كان آخر أملي ألا أبكي. أن أضحك لو أمكن وسط الناس. أن أعزف كما يجب أن أعزف. أن أعيد شريط الحياة من الأول وأغيّر كما المخرجين العظام فيلمي. لكن قبل أن نستيقظ أنا وأنتِ على السرير نفسه. لأول مرة على السرير نفسه. كُنت أغني لكِ في الأحلام أغنية تقول إنه ناعم وأبيض وجميل. وتكرر أنه ناعم وأبيض وجميل. كنت ألمسكِ وأنتِ تبتسمي وتتكسفي. كما الآن بالضبط.

أنا وأنتِ كل ما نملك. تصوري لو أن عمري سار في البرودة كما كان مُقدراً له أن يسير. لو أنني في لحظة اكتفيت بالأمان ولم أخاطر. لو أنني لم أضل في المترو يومها. لو أن العساكر لم يضربوني ولم يجروني من هدومي. لو أنهم عاملوني باحترام. تصوري لو أن بلادنا بلاد عدل. لو أن الدبابات لم تدهس الضلْبان يومها أمام مبنى ماسبيرو. لو أنهم لم يقتلوا ميشيل مرتين وشرعوا في الثالثة. لو أن سارة ما قامت ونادتني أن أخالف وصيتها وأرجع. تصوَري. ما كنت سافرت ورجعت

فقابلتك. لم أحس مرة واحدة بالاحتراق الذي أحسه على جسدكِ. بفضل هذا الجلد لما يقشعر وينتصب ولما ينام، امتلأث بحياة لم أتصور أنها موجودة في الحياة. بفضل توتر الأكسجين ورعبكِ من النشوة. خوفنا من فنائنا التام. تشققت على بشرتكِ وخطر لي أن أسلخ الجلد وأستخرج العظم فأدقه وأستخدمه كآلة نفخ لأكتشف صوتك كما خلقه الله وقبل عوامل التعرية. على الضوء الخافت للحُب. على النور البعيد لمصباح الصالة العجوز. اكتشفث حقائق الكون واحدة تلو واحدة وحكيت لك في سكوتي وأنتِ سمعتيني زي العيال. الشمس يا مريم كانت تطلع كل يوم ولا تطلع. والقمر عنده دورات اكتمال. فاجأتني الحقيقة في المنام، نحن اكتملنا خلاص. وأنا لا أجرؤ أن أكتفي من الاكتمال.

الثورة هناك مشتعلة على بُعد خطوات قليلة منَا. غداً آخذكِ وننزل إليها فنزيد نارها وتزيد نارنا. لن تضيع منكِ أرضكِ تاني. في كل وضع اخترعته للنوم معكِ. في جنون الحركات القديمة وبعد أن ينتهي العالم. سمعنا البِغال تصعد وتهبط الدرج. تهيأ لنا أن الأثاث يهتز، أن الطابق الرابع سيسقط فوق رأس الثالث. كُنا في السرير ملتحمتين بالظلام. وأنتِ قُلت إن الحياة هنا في شامبليون أبدية ومحمية، وأنا صدقتكِ وتلصصتُ من الشبابيك على شاشات الجيران والراديو في المقهى القريب يذيع المارشات العسكرية. كُنا في مصر وفي

أبعد مكان عنها. أقول لكِ بصراحة. لم أحب في حياتي كما أحببتكِ يا مريم.

لما طلع النهار، كانت أم كلثوم تُغني "أمل حياتي".

تحركتُ لتهيئة المكان الذي رأيته بعينيكِ غريباً وغير مأهول بالسكان مع أنني مؤمنة أن حضوري يُطمئنكِ. في المشهد حاجة صحراوية تشبه التراب المُتكوّم بعد عمليات حفر الأعماق. ولم يكن هذا يليق بكِ يا مريم. فكرت أن أتصرف بإزاحة الصالون مثلاً. واشتعلت الخواطر فيَ. قلقت لأنني لم أجهز لك أي طعام. لذلك قلت إنني سأنزل الشارع وأشتري ما يمكن أن نأكله ويُعيننا على الحياة. أنتِ قعدت على الكرسي الأحمر. وقُلتِ إنه يشبه زحليقة قديمة نسيتِ أن تحكي لي عنها في حديقة طفولتكِ. ناديتكِ وحضنتنكِ فهالَني عليه طعم الحضن. كنتُ واقفة آخذكِ وأنتِ دماغكِ على بطني كما حصل في الحلم. وأجبتكِ لما سألتيني بعد التنهيد كيف وصلت الحداثة إلى شقة شارع شامبليون؟ كيف وصل لها لون دم الغزال الحيَ؟ الكرسي أنا اشتريته من بائع روبابكيا مرَ وصاح تحت شباكي قبل أن تزوريني بساعة. لا أعرف من أين اشتراه أو لو كان سرقه من بيت اغتصبه البوليس. أحسست أنه نصيب البيت الجديد الذي سنشيّده في شقة شارع شامبليون. وكان باب الشقة مفتوحاً وأنا أهرول على درجات السلم وأصيح: "يا عم يا بتاع الروبابكيا!". دفعت أول ثمن طلبه فبَشّ لي ودعا بالهنا. لم يكن معقولاً بعد كل

السنين لما توصلي أن تدخلي فتجديني أعيش في متحف.

ثم خرجتِ من حضني وبرَقتِ عينكِ وسألتِ: "فين تليفوني يا أروى؟".

طبعاً تجاهلت سؤالكِ كأنه لم يحدث ورجعتُ إلى وجلي بشأن البيت. إصلاح سخَان الغاز المُتحجر. تجديد المواسير. لن يتحمل جلد البنت الرقيق الماء البارد والملوث. هجرتكِ وأنتِ نازلة من الزحليقة تتكلمي إلى نفسكِ رأيت الرشد يعود لك فجأة. سمعت خطواتك إلى غرفة النوم تبحثين عن التليفون وقد أغاظني فعلاً أن لكِ دماغاً لتفعلي. أحتاج إلى شيء أشعل به النار. كبريتاً أو ولَاعة، أو حجرين سائبين، أو حجراً واحداً أقسمه نصفين. تذكرت أن ما تبقى من الفلوس في محفظتي باليورو، وعليَ أن أفكر في حل مع البقال، لما أنتِ رجعت مُتبرمة وقلتِ: "التليفون انكسر يا أروى".

لم تحظَ شقة شامبليون بأي نوع من الصيانة طوال أعوام. ساح دهان سقف الحمام. وأضحى يكوِّن مثلثات هشَة تسقط فوق رأسي ورأسكِ. كنتُ أحصي الأعوام في بالي وأجيبكِ عن سؤالكِ بسؤال: "أنتِ عاوزة إيه من التليفون يا مريم؟".

"التليفون كان عليه الرسالة يا أروى".

"أي رسالة يا مريم؟".

انكسر قلبي على فعلتي بحقكِ وابتسمتُ من الإحساس بالذنب. طيّب الرسالة وصاحبة الرسالة هما

بين يديكِ. "يعني أنتِ كسرتيه يا أروى؟"، ضممتكِ إلى صدري. ويدكِ ضمَت الموبيل عليكِ كحاجز بيننا. بعدين اشتغل السخان في اللحظة نفسها. أمطرت الدنيا علينا. نروح فين بقى من السينما؟ ابتللنا بلا خضّة وطلبتُ منكِ أن تتبعيني فتبعتيني. مشيث بكِ إلى المطبخ. وكُنت أحس بالسخونة تصعد إلى مُخي. وبمفعول البيرة في دمي دون أن أشرب نقطة واحدة. حاولث مع باب البلكونة أن أفتحه. جذبتكِ بقوة وأرقدث صدركِ على ظهري. مسّ لحم رجلينا الحاف بلاط البلكونة. نجحت في اختبار البرد لكن أنتِ لا. نزعت الثوم المتحلل بأطراف أصابعي ورميته في المنور. "هنعمل إيه يا أروى؟". أنَّث قطة بصوت مُخيف فاهتززتِ. بُصي لي يا مريم. هل قلت لكِ من قبل إني أشمَ فيكِ أحياناً ريحة البيرة؟ جاوبيني أريد أن أسمع صوتكِ. "لا يا أروى لم تقولي". ورميث نظري كحبل إلى القاع بعيداً عن أنّة القطة. قُلت لكِ إرمي التليفون حالاً يا مريم. وأنتِ أطعتيني ورِميتيه.

وصَفَت مريم لأروى.

ليلة أمس وأول أمس. مهما تعددت الليالي أحسكِ كأنها أول مرة. وقت متعتنا كانت تجري عقارب الساعة. غنيث لكِ أغنية فوجئت أنني أحفظها لسيّد درويش. "أنا هويت وانتهيت". أوعدكِ أن أعزفها لكِ على الأوبوا. وأنتِ بكرة لازم تتعلمي العزف عليها. يجب أن نتساوى أنا وأنتِ. قلتِ إنكِ حلفتِ زمان ألا تلسميها طول عمركِ وإنكِ تريدي أن تبرَي بالقسم. وأنا تأثير البيرة لم يكن يفارقني. نظفنا مرآة الحوض. ضحكنا وسخرنا من إصرارها على إظهار وجوهنا بعد كل تلك السنين. شهدت صفحات المرايا أهوالاً وأهوالاً. ثم جاء أوان الجوع.

فتحث ضلفة الدولاب الحزين لغرفة النوم فأصدر الصوت المضحك وأنتِ لم تنتبهي إليه. تمنيت لو كُنتِ انتبهتِ يا مريم. مرتعشة كنتِ من البرد وأنا قرَبت منكِ ألفكِ بفوطة لونها أخضر ومتعطرة بالياسمين. وجدثُ في الدولاب كمان هدوم داخلية لسارة ولميشيل استعرضناها بحنين. يلزمنا في بيتنا حاجات وحاجات يا مريم. وقبل أي شيء يلزمنا الأكل.

لكن مَنْ يقدر على النزول إلى الشارع في الثورة ليبحث عن أكل؟

أنا أروى يا مريم، وبالتأكيد لن يفعل أحد سواي. من الدكانة القريبة، سأشتري عيش وجبن وتونة ومياه معدنية. لن أغيب. أجمع كل ما ألاقيه قدامي يؤكل.

أجمع وأجري. لن أدفع الحساب حتى لأن الحساب دُفع من زمن. سأذكر البائع يا مريم.

يعني هتسيبيني يا أروى؟

سأسيب لكِ الأوبوا. قفي قرب الشباك. اجعلي الخوف وراءكِ والشارع قدامكِ. تدفئي بالبطانية الثقيلة لشخص واحد. انتظريني وأنا أظهر لكِ بعد دقيقتين بالضبط من الفُراق. راقبيني وأنا أظهر إلى جوار صف الطاولات القصير في مقهى التكعيبية. وألف وأغمز لكِ. ظلي هناك. كصورة العذراء الوفيَة. إذا حدث وتأخرتُ. إذا لم تحتملي تأخيري. ارفعي الأوبوا إلى شفتيكِ وانفخي أي لحن يخطر على بالكِ.

حلفت ألا ألمس الأوبوا يا أروى ولن أتحمل غيابكِ.

تَلَحَّفَتْ بالبطانية وسَحَبَت العرش حتى باب البيت. قالت إنها ستلصق أذنها بالباب. فلا تضيع من سمعها خطوة واحدة من غيابي. أنا لم يكن عليَ سوى أن أتماسك وأدندن أغنية يقول كلامها "مادمت أنا بهجره ارتضيت". تعانقنا قبل أن أفتح الباب وبكت مريم على صدري. كُنت أرتدي الهدوم التي وصلت بها من المطار وخرجت بها من ميونيخ. وكانت الدنيا ليل جداً وبرد. عرفت من وجوه رواد المقهى الشاحبة. تقدمت وقاومت دق الطبول في قلبي. الألم من التاريخ. الألم يحدث من التاريخ أصلاً يا مريم. واستدرتُ لها في العطفة قبل أن أدخل إلى الدكانة. وكانت اليوروهات معي في جيبي وجنيهات قليلة. وكُنت أحس بالوخز

في قلبي يزيد كلما فكرت فيما نحتاجه من مادة لتستمر الحياة. وكُنت أُهَدّي نفسي بهيأتها المُتلهفة لي عن بُعد. أراها منفرجة الساقين تناديني وأنا سكرانة سُكراً تاماً. سأعزف لكِ يا مريم كما وعدتك. أنا هويت وانتهيت. وأعلمك أن تعزفيها. لكنني وعدت نفسي زمان أن أقدس الأوبوا يا أروى. يا مريم كانت الأوبوا وسيلتكِ في استحضاري. أنتِ طلبتيني من الله في ليلة قدر. فاكرة؟

لما دخلت الدكان كان الشاب البيّاع واقفاً يدخن ويتفرج على المظاهرات في التلفيزيون. لحظة رآني رمى السيجارة وجاء إلى جهتي كأنه يُسلم نفسه. بعد قليل أحكي عربي وتحبطه اللغة. أحب الشرَ يا مريم. كُنت أخاطبكِ في خيالي وأقول انظري إلى كرم العالم يا حبيبتي لما سمعتْ الأوبوا تعزف من الشباك وفرحتْ.

كانت أياماً عادية...

# برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام 2014، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (2014) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (2015) والثالثة (2016).

اليوم، وبعد انتهاء البرنامج، يمكن القول إنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية

وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.

# حول الكتاب

## نبذة

في محطة ميترو القاهرة تلتقي مريم وأروى بينما أصوات المتظاهرين تنادي بإسقاط النظام.

مريم التي فقدت والديها في الرياض، تعود إلى مصر حاملةً ذكريات طفولتها الغريبة وأحلامها بالجسد وحلمها القديم أن تكون عازفة أوبوا.

أروى التي غادرت إلى ألمانيا إثر كارثة عائلية، تعود إلى مصر لتؤدي ما تعلمت لأعوام أن تفعله في ميونيخ، أن تعزف على الأوبوا بين الناس في الشوارع.

طرفا مأساة وحلم تجمعهما المصادفة في لحظة فارقة، تتشاركان الحكي وتتشاطران ألم لحظة الثورة.

## قيل في الكتاب

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج آفاق لكتابة الرواية، الدورة الثالثة، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

## عن المؤلف

أريج جمال مواليد الرياض 27 ديسمبر 1989. درست الصحافة والإعلام في جامعة القاهرة، والنقد الفني والأدبي في أكاديمية الفنون. صدر لها في القصة القصيرة «مائدة واحدة للمحبة» و«كنائس لا تسقط في الحرب».